

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مجلة نصف سنوية

تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

السنة الأولى - العدد التجريبي - 1425 هجري / 2004 ميلادي



مجلة الثقافة الإسلامية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - مجلة الثقافة الإسلامية - العدد التجريبي - 1425 هـ / 2004 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مجلة نصف سنوية

تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

السنة الأولى - العدد التجريبي - 1425 هجري / 2004 ميلادي



مجلة الثقافة الإسلامية

وزارة الشؤون الدينية مجلة الثقافة الإسلامية

مجلة نصف سنوية

تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

السنة الأولى
العدد التجريبي
1425 هـ - 2005 م

المدير العام مسؤول النشر : الدكتور بوعبد الله غلام الله، وزير الشؤون الدينية والأوقاف

رئيس التحرير : الدكتور عبد العزيز راس مال، مدير الثقافة الإسلامية

مستشار المدير العام : الأستاذ حمزة يدوغي، المستشار الثقافي للسيد الوزير.

هيئة التحرير : أ.د. عبد الله بوخلخال

أ.د. عمار مساعدي

أ.د. محمد زعراط

أ.د. عمار طالبي

أ.د. عبد القادر خياطبي

د. عبد القادر فضيل

أ.د. موسى لقبال

د. مصطفى باجو

د. محمد عيسى

د. محمد حمداوي

د. يوسف بلمهدي

أ. محند أو إيدير مشنان

أ. رشيد خالد كاتب التحرير :

المراسلات : مديرية الثقافة الإسلامية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

04 نهج تيمقاد حيدرة - الجزائر

هاتف : 69.47.13 (021) / هاتف فاكس : 60.22.87 (021)

المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر

محتويات العدد

الافتتاحية : لمعالي السيد وزير الشؤون الدينية والأوقاف

د/ بوعبدالله غلام الله 9

1 - حوار الحضارات

فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة 13

2 - ما منهجية التاريخ الاسلامي

د. عبد العزيز راس مال 33

3 - الشيخ الإمام محمد بن عمر الهواري

أ. محمد بن معمر 45

4 - الانتساب إلى السلف انتساب لمنهجهم أم إلزام بنتائج تجربتهم

الأستاذ : عبد الوهاب بوخلخال 61

5 - دور الطلبة الجزائريين في الثورة التحريرية المسلحة

أ. فريج خميسي 85

6 - في الذكرى الخمسين لثورة 1 نوفمبر «ثورة في الثورات»

محمد سعيدي 123

7 - أهم تحديات الأسر الجزائرية والرهانات المطروحة

أ. بوتخيل معطي 143

8 - تقييم الملتقى الدولي حول فكرمالك بن نبي

د. محمد بن سميّة 167

9 - أحداث ثقافية

إفتتاح الموسم الجامعي بومرداس 2004 / 2005 205

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة الثقافة
الإسلامية

الافتتاحية لمعالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف

بوعبد الله غلام الله

ينزل هذا العدد التجريبي من مجلة الثقافة الإسلامية ليثري رصيد الوزارة في مجال المنشورات، فبعد «رسالة المسجد» التي أحرزت نجاحاً مقبولاً خاصة لدى الأئمة ورجال السلك الديني على العموم، ها هي مجلة الثقافة تتوجه إلى جمهور آخر قوامه النخبة المثقفة والباحثين والطلبة والجامعيين.

لقد رفعنا شعاراً لهذه المجلة قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ إشارة إلى أن العلم الذي تركز عليه الثقافة بصفة عامة نسبي، لذلك لا بد من ترقيته وتعميقه، والحاجة إلى الاستزادة منه.

في البداية اخترنا محاضرة فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة حول موضوع معاصر، يتمثل في «حوار الحضارات» وهو يكتسي أهمية بالغة نظراً لأنه يدحض الأطروحة التي تدعمها وسائل الإعلام والصناعة الثقافية لبعض الدوائر الغربية وتتمثل فيما يسمى بصراع الحضارات.

ما دام التاريخ الإسلامي اليوم يسترجع مكانته في التعرف على أحوال المسلمين وثقافتهم، فإنه حري بنا أن نؤسس له منهجية تضمن الموضوعية والحياد العلمي المنشود.

هذان المطلبان ضروريان لتصحيح أخطاء الماضي وتجاوزها، حيث عانت الجوانب المضيئة في تاريخنا من التعتيم والتحريف ما لا حد له إذ انبرى عدد من المستشرقين المغالين والنخبة المثقفة المتعصبة تشويه تاريخنا الثقافي، والمبالغة في إذكاء حدة الخلافات وسوء التفاهم والتناقضات إلى أن أصبحت بمفهومهم الطريق إلى صراع للحضارات.

من خلال التاريخ الإسلامي نسلط الضوء على شخصية بارزة يشهد لها بسعة العلم والإطلاع، وهو الإمام محمد بن عمر الهواري الذي يعتبر معلماً ثقافياً ودينياً لمدينة وهران، لذلك ومن باب رد الاعتبار لهذه الشخصيات أن نقيم ميزاناً لغربلة الأفكار وتحديد المفاهيم التي غزت المجتمع الجزائري وانتشرت بين شبابه، ولا شك أن من بين أهم وأخطر هذه المفاهيم والأفكار مفهوم «السلفية» وكيفية الانتساب إلى السلف الصالح، أهو انتساب لمنهجهم أم التزام بنتائج تجربتهم؟

أما اليوم، فإننا مشغولون بذكرى عزيزة علينا، وهي ذكرى الثورة التحريرية المباركة التي شاركت فيها جميع القوى الفاعلة في المجتمع، وقد كان دور النخبة المثقفة من الموضوعات التي لم تحظ باهتمام أهل القلم، لذلك ساهمنا ببحث حول: «دور الطلبة الجزائريين في الثورة التحريرية المسلحة»، بالإضافة إلى دراسة نوعية تتمثل في التأثير الاستراتيجي لثورة أول نوفمبر على الثورات الأخرى في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

كثر الجدل حول مشاكل الأسرة موضوع الساعة، وقد ارتأينا أن نطرح هذا الموضوع تحت المجهر الأكاديمي، وحتى تكون الرؤيا الاجتماعية واضحة، فقد

اخضع الموضوع للدراسة الميدانية مع ما يتطلب ذلك من وضعه على محك الشريعة الإسلامية.

بالنسبة للأعلام، فقد اخترنا مفكراً معاصراً وهو «مالك بن نبي» من خلال نظره نقدية وتقييمية للملتقى الدولي الذي نظمه المجلس الإسلامي الأعلى في الأشهر الماضية حول فكر هذه الشخصية البارزة التي لم يكن لها حضور إقليمي فقط، وإنما دولي تشهد على ذلك المشاركة الواسعة للباحثين من مختلف الأقطار والجنسيات.

والجلمة إذ تتوجه بالشكر الجزيل لفخامة السيد رئيس الجمهورية وكذلك للأساتذة المساهمين أصحاب المقالات المنشورة في هذا العدد التجريبي، تفتح صفحاتها لكتابتنا ومثقفينا الذين يرغبون في تنشيط العمل الثقافي والتمكين لمساهمة القلم العربي في الدعوة إلى التركيز على القيم الإنسانية العليا ونشرها بين الأمم، وإعطاء فكرة العولة معنى إنسانياً يتمثل في مد الجسور بين ثقافات الأمم وتجاربها الحية الإيجابية، وإنقاذ الفكرة، التي مكن لها تطور التكنولوجيا، من روح الهيمنة التي تسعى إلى أن تركيبها لتسيطر بها وفي نفس الوقت العمل على تخليصها من مشاعر الانبهار أمام القوة والانصياع للطغيان الذي يعتمد أساليب الغش والنفاق ليسلب الشعوب أعز ما يمكن أن تحيا به، وهو الكرامة وإمكانية المساهمة في إثراء مشاعر المحبة وجهود التواصل والتعاون.

بو عبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف

حوار الحضارات

فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

محاضرة بالمعهد الملكي الباجيكي للعلاقات

الدولية 10 / 12 / 2002

الرئيسي للسياسة العالمية فيما بعد الحرب الباردة هو التفاعل بين قوة الغرب وثقافته من جهة، وقوة الحضارات غير الغربية وثقافتها من جهة أخرى» ويفرد التدليل الذي جاء به الكاتب مكانة مميزة للحضارة الإسلامية .

إن ما يشعر به المرء من سخط عند قراءة مثل هذه الطروحات الجازمة لا يكفي إذا لم نحاول دحض المحاجة التي تقوم عليها، وإذا لم ندرك خطورة ما تشكله من تهديد على السلم في العالم.

فبمراعاة كل ما تقدم قررت، وأنا أتساءل عما عساني أختاره من المواضيع لأتناوله بالمعالجة أمامكم، أن أعرض عليكم بعض الأفكار الشخصية حول «حوار الحضارات» الذي يجب أن يناقض «تصادم الحضارات» الذي يلوح به هو نتغتون HUNTINGTON وينذر به .

حضرات السيدات الفضليات والسادة الأفاضل :

في مطلع الألفية الثالثة، كانت البشرية جمعاء تتطلع متفائلة إلى عالم جديد، عالم حيث يسود السلم بدل الحرب ويخلى العنف المكان للإستقرار، إن القرن المنصرم تميز، وبالأأسف، بحربين عالميتين وعدد لا يحصى من النزاعات التي لم تكن أقل وخامة، وإن كانت أقل اتساعا، والقرن التاسع عشر الذي بدأ بالعنف والمجازر، انتهى بنفس العنف ونفس المجازر.

يمكن للمرء، إذن أن يتساءل، بحق عما تتمثل فيه حضارتنا، فغداة الحرب العالمية الأولى صرخ جورج دوهامل GEORGES DUHAMEL من حيث كان شاهدا على وابل القنابل المسلط على الخنادق شرق فرنسا، وعلى أعداد الجرحى الذين كان يهرع بهم إلى المستشفيات الميدانية «لا تكمن الحضارة في مبضع الجراح وإنما في قلب الإنسان، وإلا فلا وجود لها في أي مكان».

وعلى عكس جول فيري JULES FERRY، المناصر المتحمس للإجتياح الإستمعاري والمناادي بالحروب الإستمعارية باسم تفوق الأعراق والحضارات صرح شاهد اخر من شهود الحرب العالمية الأولى كان طرفا فاعلا فيها ومعنيا مباشرة بالنزاع، وأعني به كليمنصو CLEMENCEAU صرح من أعلى منبر قصر بوربون PALAIS BOURBON : «أوالهنديون عرق وضع ؟ أوالصينيون عرق وضع ؟

كلا، ليس هناك حق ينحول لأم منعوتة بالراقية على أم منعوتة بالدنيا، فلنكف عن محاولة تغطية العنف نفاقا وزيفا بلبوس الحضارة ؟» .

وفي أعقاب مؤتمر فرساي VERSAILLES، واستجابة منه لتطلع الشعوب المستعمرة التي تركت قتلاها في قبور مجهولة بالمدافن الأوروبية، قال الرئيس ويلسون WILSON، من جهته، هذه الجملة التي زرعت أملا عظيما : «إن شعبا يخضع لقانون ولم تكن له يد في سنه، هو شعب سليب الحرية مستعبد» .

لقد استندت إلى هذه الشواهد لأبين أنه بالرغم من فوارقنا، ولكم هي عديدة وبالغة، فإننا ننتمي، كلنا لنفس الحضارة، وهي الحضارة البشرية. فحضارتنا العالمية ينبغي أن ينظر إليها، من قبل كل واحد ومن قبل الجميع، كرصيد مشترك للبشرية تم بناؤه بصبر وأناة منذ فجر التاريخ، بفضل عبقرية الشعوب وذكاء الناس على إختلاف أعراقهم ولغاتهم ومعتقداتهم .

وقد يكون من المجازفة، بل من الخطر، إعتبار أن هناك حضارة أكثر قدرة على التمددين من أخرى أو أكثر إنسانية أورشوخا في العلم من غيرها، حتى وإن صدرت عبر التاريخ، تحت طائلة الأهواء هنا وهناك، أحكام كاريكاتورية، باتة ونهائية، مثل حكم الشاعر بوشكين POUCHKINE الذي قال : «القرآن، يا له من علم فلك مقيت، لكن ياله من شعر راق، أو ذلك الذي صدر عن كاترين CATHERINE،

قيصرة روسيا، عندما حلت على تتر شبه جزيرة القرم CRIMEE عام 1887» إن الإسلام دين منطقي أقدر من المسيحية على تمدين آسيا. إن الحضارات كالأخوات التوائم : يعانين من البين عند الفراق ويسعدن عند إلتئام الشمل وتقبل كل واحدة على الأخرى عند اللقاء، وفيما عدا ذلك، فلسن حضارات.

حضرات السيدات الفضليات والسادة الأفاضل،

إن إسهام الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة العالمية أمر غير معروف من حيث تنوعه وغير معترف به من حيث حجمه. وهذا يصح خصوصا وأن تأثيره على حقل التطبيق العلمي يمتد من الفلسفة إلى سوسيولوجية التاريخ، ومن الرياضيات إلى علم الفلك، ومن التنجيم إلى الطب، دون أن ننسى الاكتشافات العديدة مثل اكتشاف الأسلحة النارية والورق وحتى علم الملاحة البحرية الذي سهل الإلتصال بين الشعوب. وتوسع هذا الإسهام بحيث شمل فضاءات جغرافية شاسعة تمتد من أوروبا إلى إفريقيا ومن المشرق إلى آسيا.

ولا أريد أن أعدد في هذا المقام كل ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية إلى الحضارة العالمية. إنني أحيل ذلك على المختصين الذين هم أكثر تأهيلا مني وأقوى سلاحا لتناوله بكفاءة واقتدار. غير أنه يصعب على، في ظروفنا الراهنة، حيث تغدى المغالطات مكررا رغم الأصوات المأذونة التي أدانتها، ألا أذكر على الأقل في خطوطها العريضة، بعض مراحل توسع هذه الحضارة الكونية وتطورها.

فإلى جانب بغداد وبعدها، تصدرت إسبانيا الأندلسية حركة الريادة الثقافية وخرجت بها من غياهب القرون الوسطى ودياجيرها إلى رحاب أكثر نورا وأكثر إنسانية. أفمن صلب الشرق ولد الغرب كما كتب غوستاف لوبون LE BON

GUSTAVE في كتابه «حضارة العرب» الصادر عام 1883 في عز التدابر بين الشرق والغرب.

لقد بدأ إسهام الحضارة الإسلامية مع تأسيس بيت الحكمة، ذلكم المركز الثقافي الذي كان، خلال العهد العباسي، مصدرا حقيقيا لإشعاع العلم والثقافة. إن تأسيس بيت الحكمة هذا كان في القرن التاسع، إبان حكم المأمون، الخليفة المستنير، ابن هارون الرشيد الذي كان شارلمان CHARL EMAGNE لا يفرط في مبادلتة الهدايا.

خلال ذلكم العهد، الذي شبه بعصر برقليس PERICLES، تبوأَت المعرفة مكانتها المرموقة إلى جانب الدين. «ما كان للعلم أبداً ألا يكون توأم للدين» على حد ما كتب الدكتور موريس بوكاي - MAURICE / BUCAILLE.

فالعلماء والمترجمون والأدباء الذين لم يكونوا كلهم يدينون بالإسلام، كانوا يتمتعون بالرغد وبالرعاية الخاصة من قبل الخليفة. فكان ذلك بداية ازدهار بلغ أوجه في إسبانيا الأندلسية، وفي هذا الشأن، يكتب موريس بوكاي، «كانت مكتبة الخليفة في قرطبة، تحتوى 400,000 مجلداً، وكان ابن رشد يدرس فيها، وفيها كانت تدرس العلوم الاغريقية والهندية والفارسية، ولهذا السبب كان الناس يفدون من شتى أنحاء أوروبا طلباً للعلم بقرطبة، كما هو الحال اليوم حيث يتوجه الناس إلى الولايات المتحدة لإتمام بعض الدراسات» ويضيف بوكاي: «لنتذكر أنه حينما كان الإسلام في عز مجده وعظمته، بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر المسيحي، حصلت اكتشافات متعددة في الجامعات الإسلامية، في حين كان التطور العلمي في البلدان المسيحية مكبلاً بالأغلال».

وكانت أوروبا في القرون الوسطى تنهل، دونما عقدة، من المعارف المتدفقة من الديار الإسلامية. وعند نهاية حكم عمر طويلا (1105-1154) طلب الملك

روجي الثاني ROGER II ملك صقلية، من الإديريسي أن يعد له خريطة العالم، فأنجز له ما طلب ببراعة فائقة، إن كان كتاب الجغرافيا الذي ألفه الإديريسي وترجمه الفارس جوبير JAUBERT قد حظي بالثناء والاستحسان من لدن رينهارد دوزي REINHARD DOSZY أحد المستشرقين الأشد ولعا بالحضارة العربية الإسلامية.

وفي ذكر الجغرافيا، يعترف للبحار ابن ماجد بالفضل في إنجاز بحوث واكتشافات مكنت فاسكو دي غاما VASCO DE GAMA من أن يكتشف المسالك البحرية، الأمر الذي فتح الطريق لاكتشاف الأمريكتين، وادخال البوصلة في الملاحة وهو، أيضا، من إنجازات العرب، والحال كذلك، بالنسبة للأسطرلاب فيما يتعلق بعلم الفلك.

وما بالك بأسطون الطب، ابن سينا، الملقب بأمير الأطباء، والذي شكلت مؤلفاته طيلة أكثر من ستة قرون مرجع الطب الجامع في العالم.

وكان محمد أبو موسى أبا الجبر، إنه قام، بطلب من الخليفة المأمون بتأليف كتاب في الجبر مكن نقله إلى اللاتينية الأوروبيين من أخذ علوم الرياضيات ويكتشفوا، لأول مرة مفاهيم مثل المماسات والحساب المثلثاتي وبشأن الرياضيات، يتحدث شازل CHASLES عن «الثورة الموفقة في العلم» أن الخوارزمي كرس نهائيا الأهمية القصوى لهذا العلم، وأعمال ابن قرة في الهندسة وفي نظرية الأعداد مازالت إلى يومنا هذا تشكل مرجعا هاما، وهل يلزم أن نذكر البطاني وإدخال الدالات المثلثية؟

فمن لا يعترف لابن خلدون بابتكار قواعد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ؟ إنه دون بعض مؤلفاته في مغارة تقع غرب الجزائر، قرب مدينة تيارت الحالية، إن

الباحثين في مجال الحضارة يدينون له على سبيل المثال، بنظرية الأطوار، بعد ذلك وفي القرن التاسع عشر، نقل علماء الاقتصاد وخصوصا منهم اتباع المدرسة الماركسية، نظريته حول تأثير العامل الإقتصادي في التاريخ الذي كانت عبقريته سبابة إلى طرحه .

فالعرب لم يكتفوا بتطوير العلوم والفلسفة والأداب، بل نشروها، كذلك، بفضل إشعاع جامعاتهم ومؤلفاتهم.

وفي العلوم التطبيقية، وفي مجال الإكتشافات - يصعب ذكر مئات الإختراعات التي تمت على يد المسلمين، ولنشر على الأقل، إلى أن منسوجاتهم وأسلحتهم وجنودهم وورقهم كان لها رواج واسع عبر العالم في عهدهم الزاهر .

لقد جاء في الرويات أن أولى الأسلحة النارية استعملتها الجيوش العربية خصوصا للدفاع عن الجزيرة الخضراء ضد جيوش ألفونسو الأول، ويذكر المؤرخون أن الكونت دربي DERBY والكونت سالزبوري SALISBURY الإنجليزيين اللذين حضرا الحصار، أحضرا معهما البارود إلى إنجلترا واستعملته الجيوش الإنجليزية في معركة كريسي CRECY.

ومثلت الحضارة العربية في إسبانيا مرحلة رئيسية في تاريخ البشرية، ذلك أن أسس كل العلوم الحديثة والحضارة المعاصرة ظهرت حقا بشبه الجزيرة الإيبيرية ومن أهمية التأثير العربي في شبه الجزيرة أن دوزي DOZY وإنجلمان ENGELMANN وضعا قاموسا للكلمات الإسبانية والبرتغالية ذات الأصل العربي.

وفي إيطاليا، لم يكن الحضور العربي الإسلامي أقل أهمية، فزغريد هانكه SIGRID HUNKE. تحدثت، في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» «عن حنين صقلية للعرب» فمن هناك انطلقت فعلا المواجهة مع بيزنطا، ولكن من هناك أيضا بدأ الحوار معها .

وفي صقلية دائما، وبفضل العرب، كان بلاط الملوك النورمانديين مزدهرا للغاية إلى درجة أن أبا الفداء، صاحب حماة، وهو مؤرخ وجغرافي، قارنه ببلاط خلفاء، بغداد والقاهرة .

وفي آسيا، كانت امبراطوريتا فارس والهند أول من عقد اتصالات مع الحضارة العربية الإسلامية، إن هذا التمازج في الأعراق والأفكار أفضى إلى بروز أعلام لا معة في مجالات العلم والثقافة وأدى بحق إلى إغناء متبادل ومثمر ولا ريب، ويشهد تكاثر الشعراء والمبتكرين من كل الأصناف على ذلك بكل وضوح، وفي الصين والشرق الأقصى، كانت للحضارة العربية الإسلامية أصداء حميدة وأتاحت إلى جانب الإتصال بين الشعوب التي فصل بينها الموقع الجغرافي، مبادلات تجارية هامة، أوجدت اتصالات دائمة بين نخبة متعطشة إلى المعرفة، مبادلات فتحت مناهج جديدة للتفكير المشترك وخلدتها طريق الحرير وطريق التوابل .

وباعتناق الإسلام في بعض المناطق، بقيمه الأخلاقية والإنسانية، خصصت إفريقيا، من بين لهاجاتها العديدة وتقاليدها، حيزا فسيحا للغة العربية التي اعتمدت في المعاملات اليومية، وسرعان ما برزت للوجود اخوة إنسانية، ضمن المجموعات الاجتماعية شجعت التقارب الحضاري بين العرب والأفارقة، الذين واجهوا معا فيما بعد، خلال القرن التاسع عشر، الهيمنة الأجنبية والذين جمعهم تضامن قوي أملته ضرورة تحررهم جميعا .

حضرات السيدات والسادة :

إن الإسلام قد استطاع أن ينتشر عبر العالم بفضل قيمه الإنسانية السامية، ونجد روح التسامح في صدارة هذه القيم، لا نؤكد هذا من أجل تبرئة الذمة، بل إن هناك ما يزيكه من شهادات التاريخ التي لا جدال فيها.

في البداية، وإثر حملة التفتيش المرعبة التي تلت إستعادة شبه الجزيرة الإيبيرية إثر سقوط غرناطة عام 1492، كان مستوى التسامح شامخا في أرض الإسلام، في شمال إفريقيا والشرق الأوسط بما في ذلك اسطمبول، بحيث أن الآف اليهود المضطهدين والمطرودين من إسبانيا تم استقبالهم في هذه البلاد بحفاوة إنسانية لا نظير لها . فبعد أن أُلقي بهم فيما يشبه القوراب باتجاه المغرب العربي مجردين من كل أملاكهم، مسلوبين ومهانين، تم احتضانهم في هذه المجتمعات الجديدة بقدر من الأخوة سمح لهم بالحصول على المسكن والإقامة والعمل، وبالأخص على حرية ممارسة المعتقد .

هناك مثال آخر للتسامح والشهامة في سيرة صلاح الدين الأيوبي، فبعد أن استتب له الأمر في القدس بقوة السلاح، عامل الجيوش المسيحية المهزومة برأفة ورحمة . وهو ما أثار اندهاش قادتها الذين كانوا يتوقعون منه أن يأتي عليهم عن آخرهم، نظرا للجرائم الفظيعة التي اقترفوها، لقد تم إطلاق سراح المئات من النساء بأمر من صلاح الدين، هن اللاتي كن يعتقدن أن مآلهن الضم الى أحد «حرام المشرق» .

وفي هذا الموضوع، كتب بيار روسي PIERRE ROSSI يقول : «لقد كان إمبرو طور القسطنطينية من أول مهنئين لصلاح الدين باستعادة القدس في أكتوبر عام 1187» .

لم يكن لهذا الحلم نظير على الضفة الأخرى من المتوسط سوى عند القديس فرانسوا داسيز SAINT FRANCOIS D'ASSISES الذي أدان الدعوة إلى الحرب الصليبية من حيث هو أساس بالأخوة الفطرية بين المسيحية والإسلام وأقرب عهدا بنا، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعطى الأمير عبد القادر مثالا آخر للتسامح والإنسانية ومن لا يعرف الأمير؟ حتى في أمريكا،

هناك مدينة تحمل إسمه، تمجيدا لخلقه الكريم وشهامته، ولقد أفرد له الشاعر الفرنسي ارتور ريمبو ARTHUR RIMBAUD قصيدة من شعر صباه عنوانها: «الأمير عبد القادر سليل يوغرطا» .

سنة 1860 بينما كان قدّم الأمير عبد القادر وساطته على 12 ألف مسيحي مهددين بالموت المؤكد على يد المسلمين، عن حماية رفاقه في المنفى كانت حرب القرم CRIMEE قد انتهت لتوها، وقد أنقذ الحلفاء الفرنسيون والبريطانيون خلالها وحدة الإمبرطورية العثمانية المهددة من طرف روسيا، وتلى ذلك إصدار فرمان سلطاني عثماني يمنح بعض المزايا لمسيحيي الإمبرطورية، الأمر الذي تسبب في ثورة من البعض والنقم لدى السكان المسلمين بتحريض من بعض غلاة الموظفين العثمانيين.

وإذ أوى المئات من المسيحيين في بيته وفي بيوت رفاقه الكثر، بلغ إلى مسامع عبد القادر صراخ الحشود الثائرة وهي تصيح : «أنت الذي حاربت المسيحيين بالأمس، كيف تمانعنا في الإقتصاص منهم على شتائمهم ؟ سلم لنا أولئك الذين تخفيهم في بيتك .

فأجابهم الأمير عبد القادر : « إن ما تفعلونه عمل شنيع، ومخالف لشرع الله، أما أنا، فإنني لم أحارب مسيحيين بل غزاة زعموا أنهم مسيحيون» .

وعلى رأس رجاله المسلحين، جاب المدينة طيلة أيام بلياليها، بحثا عن المسيحيين المذعورين فأنقذ بذلك الآلاف منهم، ثم وضع تحت حمايته الشخصية القناصلة المعتمدين في دمشق .

ولقد أبدت له القوى الكبرى عرفانها وتقديرها وأرسلت إليه رسائل الثناء مشفوعة بالهدايا وأرفع النياشين والأوسمة، بعثت له روسيا الصليب الأكبر للنسر الأبيض، وفرنسا جديلة جوقة الشرف وبروسيا الصليب الأكبر للنسر الأسود،

واليونان وسام بيو الرابع، وأهدته انكلترا بندقية ذات مسورتين مرصعة بالذهب وأمريكا مسدسين مرصعين بالذهب أيضا.

إن الرجل الذي صنع هذا الصنيع المذهل، مخاطرا بحياته، ماهو إلا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، ولا يمكنني، وأنا أحيي ذكره، أن أخفي هنا فخري واعتزازي بهذا البطل الذي يتمثل الشعب الجزائري نفسه فيه .

وعندما أرسل إليه سماحة أسقف الجزائر بافي PAVIE سنة 1862، خطاب ثناء وعرفان، رد عليه، ما يلي : «إن ما قدمناه من جميل المسيحيين، كان من واجبنا أن نؤديه وفاء منا للعقيدة الإسلامية واحتراما لحقوق الإنسانية».

احترام الحقوق الإنسانية، كان ذلك، عندها، إعلان عن تمسك المجموعة الدولية باحترام حقوق الإنسان.

ورغم ذلك، فبإسم حقوق الإنسان هذه بعينها، وجد دعاة الإرهاب ملاذا في بعض العواصم الغربية، وهو ما أتاح لهم إقامة شبكات حقيقية للتمويل والتخريب، ومنابر للدعاية المغرضة، ممولة في معظمها عن طريق المتاجرة بالمخدرات واقتناء ونقل الأسلحة، مستفيدين في بعض الأحيان من تواطؤات سافرة أوتكاد .

حضرات السيدات والسادة :

إن الإعتداءات التي شنت على الولايات المتحدة يوم 11 سبتمبر 2001 قد أثارت عبر العالم مشاعر الإستفظاع والتعاطف المشروعة. ولقد أثارت بطبيعة الحال، ردود فعل متضامنة مع الشعب الأمريكي وإدانة مطلقة للإرهاب الذي إجترح هذه الأعمال البشعة الشنيعة.

ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر التي تكبدت طيلة عشر سنوات

معاناة مريرة من هذا الإرهاب الهمجي الذي سفك دماء آلاف الأبرياء من الرجال والنساء وحتى الرضع، ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر التي عانت عدم الاكتراث وحتى عدااء العالم وهي تقارع هذا التكالب الغاشم الذي لا زالت حتى اليوم، ولعله ليس هناك من مكان أفضل من الجزائر يمكن فيه تفهم ومشاطرة مشاعر الشعب الأمريكي وعزمه على ملاحقة المجرمين إلى أن يقطع دابر هذه الآفة النكراء.

ليس هناك من هو أولى منا بالتألم لكون هذه الأحداث المأساوية تستعمل في بعض الأحيان ذريعة لبعض الخلط غير المبرر ولبعض الرؤى المقزمة والإزدراء بالتاريخ القديم والحديث، مما يشوه الحقائق بشكل صارخ ويوحي بحدة بأنه لا يزال هناك في الغرب تصور للإسلام والحضارة الإسلامية أقل ما يقال عنه، إنه لا يؤيد قضية التفاهم والسلام بين البشر.

كيف لا يشعر مئات الملايين من المسلمين الذين يعيشون عبر العالم عقيدتهم في كنف الطمأنينة والسلم ببالغ الإهانة جراء بعض الأحكام التي تصل حد إنكار القيم الجوهرية للإسلام وتلك الحضارة التي بناها والمنجزات العظيمة التي أنجزتها.

كيف لا يستأثرون من أحكام، تتجاهل قرونا من التاريخ، وتقوم على أطروحات لا أساس لها، تتهم الإسلام بالدعوة إلى العنف، في حين أن العنف مرفوض لدى غالبية المسلمين لكونه يتنافى وكل تعاليم دينهم.

فقدر ما لا يمكن لمحاكم التفتيش والتزمت الأعمى للقرون الوسطى أن يدنسا العقيدة المسيحية، ولا للهمجية النازية أن تصم الحضارة الغربية بالخزي، لا يمكن للطروحات الداعية إلى اللاتسامح والإنطواء على الذات والعنف أن تنتمي إلى القيم الحقيقية للإسلام والحضارة الإسلامية .

كما لا يمكن، من خلال موقف حضري غريب ومتناس للماضي، أن نقرن بين الإسلام والظلامية وأن نشكك في مسيرته للتقدم والقيم الإنسانية الكونية بينما ظلت تعاليمه السمحة لقرون طوال تحت على التقدم والرقى في كل المناحي الثقافية والعلمية والتقنية، خدمة للبشرية قاطبة؟ وبينما استطاع الإسلام أن يترجم هذا التقدم في كافة النشاطات البشرية؟ وبينما استطاع، انطلاقاً من مجتمع بدوي في القرن السابع، أن يصقل، عبر العالم، حضارات مدنية غاية في الدقة والتنظيم متفتحة ومتسامحة وأن يعطي في الاندلس، أوفى مثال عن تاريخ البشرية لتعايش الثقافات والأديان في كنف السلم والتسامح.

كيف يمكن أن نتجاهل، في التقديرات التي تناقض بصفة جوهرية وبلا تورع بين الإسلام والغرب، الدور الحاسم للمفكرين والعلماء المسلمين في حركة الأفكار والمعارف التي أخرجت أوروبا من حنادس القرون الوسطى، وفي وضع اللبنة الأساسية للرقى الكوني؟

حقاً، وقعت المجتمعات الإسلامية في القرن السابع عشر في تحجر فكري وركود جعلها تتخلف تدريجياً عن ركب التقدم الفكري والتقني والاجتماعي الذي قادته من قبل والذي أغدقت عليه الشيء الكثير.

إن التحجر والركود هذين لا يمكن أن يعزيا لجوهر الدين إلا عن جهالة أوسوء نية بل إنهما ناجمان عن غياب الفكر النقدي الذي وضع حداً للنقاش الفكري المتواصل منذ عهد المعتزلة - دعاة العقلانية المتشددتين تسعة قرون قبل ديكارت - إلى الأشعري وأبي حامد الغزالي الذي حض على البحث وطلب المعرفة مثلما شجع تطور معايير التنظيم الاجتماعي في اتجاه التقدم .

ولئن استطاعت نظريات وتأويلات تدعوا للتسامح والإنكماش على الذات والتقهر والإنغلاق على الماضي أن تنتشر مؤخراً في بلاد إسلامية، فلا بد أن

نرى فيها نتيجة ما تراكم من أشكال الحرمان والإحباط والمساس بالكرامة الجماعية والظلم والإجحاف، إنها في الغالب، رد على مواقف الإقصاء والإزدراء في عالم طبيعته ولا زالت تطبعه علاقات الغالب والمغلوب، وعين المتحفظ فيها تكتشف سهولة تدخل مصالح وصراعات أجنبية عن العالم الإسلامي.

إن التاريخ الغربي الحديث ذاته يخبرنا بأن المهانة والتعاسة الاجتماعية تواتي تطور نظريات حاكمة تدعو إلى اللاتسامح والعنف، والمؤرخون والمفكرون يبررون انتشار النازية في ألمانيا بالنود المهينة لمعاهدة فرساي VERSAILLES وبأثار الأزمة الاقتصادية لسنة 1929 فلم يتم إذن مع هذا إقحام أوتاهام المسيحية ولا الحضارة الغربية التي كانت ألمانيا إحدى أبهى مفاخرها.

وبالطريقة ذاتها، لا يمكن التحجج بالعنف المقترف في بعض الأحيان باسم الإسلام للإساءة لديانة والحضارة ووسمهما بأنهما مصدر خطر على الإنسانية.

إن سلسلة الإهانات الفردية والجماعية الطويلة وتراكم المعاناة الاقتصادية والاجتماعية في العالم الإسلامي توفر التربة الخصبة لبزوغ مختلف أشكال التطرف وانتشارها .

ولا مندوحة عن الاعتراف، ويا للأسف، بأن الثقافة الغربية تنزع، وتغالي في ذلك، إلى تشويه الإسلام والخط من قيمته، أولاً بزعم أن الحضارة الإسلامية تهدد للحضارة اليهودية المسيحية وأنها منوثة لها بشكل أساسي، ويجنح، في الرأي العام الغربي، إلى غمط العلماء والمفكرين المسلمين ما كان لهم من إسهام خلاق في تطور المعارف على المستوى العالمي، أو في أحسن الحالات إلى اعتبار هؤلاء العلماء، مجرد نقلة سلبين للحضارة الإغريقية، ليس إلا، ويعمد إلى فصل الإسلام عن عقيدتي التوحيد الآخرين، بينما يحتفي الإسلام بكافة رسل

وأنبيا اليهودية ويعترف بالطابع الإلهي لرسالة المسيح عيسى عليه السلام إذ نقرأ في القرآن :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون».

من الممكن أن نرى في المواقف المتطرفة الراضية للإسلام هذه آثار لا زالت موجودة، للهيمة الإستعمارية التي عانتها البلدان الإسلامية والتي أدت إلى استلاب ثقافي وإلى الخط من شأن المسلمين هوية وعرقا.

وربما تكون كذلك نتيجة للفوارق الكبرى التي تطبع الوضع المادي في البلدان الإسلامية مقارنة بذلك السائد في البلدان الغربية، تلك الفوارق الناجمة، في معظمها، عن العلاقات الإقتصادية غير المتناظرة بين هاتين المجموعتين، مما يذكى مختلف أشكال الشعور بالحرمان والإحباط، في عالم تتضاعف فيه الإتصلات وتنمحي المسافات.

وأخيرا، لا يمكن أن نغض الطرف عن التأثير الذي تتركه في أرض الإسلام، المعاملة الظالمة المجحفة التي يعامل بها الغرب المتجبر الشعب الفلسطيني، الشعب الذي دفع ثمن الإنحرافات الوحشية لتاريخ أوروبا والذي حرم، منذ أكثر من خمسين سنة، خلافا لما تمليه الأخلاق وما يفرضه العدل والإنصاف، من دولته الوطنية ومن الوجود الحر.

إنني لعلى دراية تامة بوجود مسببات داخلية لهشاشة المجتمعات الإسلامية ولضياعتها المعنوي تمهد الطريق أمام مختلف أشكال التطرف، وهي تتمثل في اللامساواة والتعاسة الإجتماعية وانحراف القيم المدنية والأخلاقية والتعسف في استعمال الحق، التي إذا تضاف، هنا وهناك، للجم طويل للفكر النقدي تكون قد

غذت وسهلت تحريف قيم التسامح والسلم والتقدم التي يدعو إليها الإسلام الحق.

ولا شك في أنه من الأهمية بمكان أن تتقدم المجتمعات الإسلامية في اتجاه ديمقراطية أكبر، وفي اتجاه العصرية والعدالة الاجتماعية والترسيخ الواضح لدولة الحق والقانون إن الأمر يتعلق ههنا بمسؤولية رؤية الدول الإسلامية نفسها، ولكنه، من المهم بالنسبة لمستقبل الإنسانية، في عالم تنمحي فيه الحدود وتتشابك فيه أكثر فأكثر شتى أنواع المصالح أن، يساعد الغرب، الذي أصبح اليوم يمثل مركز القوة والنفوذ في العالم، على مثل هذا التقدم.

وهو يستطيع ذلك بالسعى إلى استبدال علاقات السيطرة القائمة بينه وبين العالم الإسلامي بعلاقات شراكة خالصة، وهو يستطيع ذلك بالعمل على رفع الحواجز التي تحول دون التنمية الاقتصادية بفعل لعبة المصالح الأناثية والآنية وهو يستطيع ذلك بالسعى إلى رفع الظلم الذي حاق بالشعب الفلسطيني وهو يستطيع ذلك باتاحة تعليم لتاريخ الأشخاص والحضارات أكثر موضوعية وأقل تحاملا توخيا لمحو دواعي التوجس والريبة والعداء بين المجتمعات البشرية ولمحو العنصرية السافرة أوالمضمرة التي تحمل رؤية أحادية مقزومة للعالم ولتقدم الفكر الإنساني.

إنه يمكننا جميعا، انطلاقا من مثل هذه الأعمال المشتركة، إعطاء كل مغزاها للمكافحة الشرعية والضرورية للإرهاب الهمجي والقضاء على عوامل الإحباط والمهانة التي تغذي الحقد واللاتسامح .

حضرات السيدات والسادة الأفاضل :

إنه يتعين على المجموعة الدولية، التي أدركت أخيرا أن الإرهاب إنما هو أفة عالمية تتربص بالأمن الدولي وتهدهده، أن تتصدى له بقوة، في كنف

احترام مقاييس الشرعية التي اعتمدتها هي نفسها وسيستقي مسعاها مشروعيتها من هذا الإطار وهذا الإطار وحده، لكن يتعين علينا اجتناب كل خلط خطير والا نخطيء في تحديد العدو، ونحن نؤكد هذا الأمر ونلح عليه، إن الشعوب ليست أبدا هي من يقترب الذنب ولا يمكنها أن تتحمل مسؤولية فتك وهتك فئة خرقاء من الأشخاص، أيا كانت أصولهم وأيا كانت جنسياتهم.

إن الإسلام يحرم القتل ويتوعد من يقتربه بأشد العذاب، ولا تصبو الشعوب المسلمة إلا الى العيش في سلام مع جيرانها والإشتراك مع أتباع الديانات الأخرى في عبادة الله الواحد الأحد الرحمان الرحيم.

إن حرمان أي شعب كان من حقوقه يولد شعور بالحرمان المتزايد ويؤدي حتما إلى الريبة وحتى إلى اضممار الحقد الذي قد يتحول إلى إنتفاضة وثورة .

حضرات السيدات والسادة الأفاضل :

لقد آن الأوان لقيام هبة تضامن تجاه البلدان الأكثر فقرا وتجسيدها من خلال أعمال منسقة تحت إشراف منظمة الأمم المتحدة وبالمساعدة الطوعية والمسؤولة للبلدان الأكثر ثراء في المعمورة.

إن الإرهاب الدولي له من الإنتشار الواسع والأخطبوطي بحيث لا يمكن القضاء عليه بالعمل العسكري وحده، إن مكافحته تقتضي وضع جهاز قضائي وأمني كامل وتنسيقه على المستوى الدولي إن الأمر يتعلق بشكل جديد من أشكال الحرب، ذلك أن الشكل الجديد للعنف هذا ينبغي أن يحارب بأسلحة جديدة، إن خلاص البشرية يقتضي دفع هذا الثمن، إنه يكمن في هبة تضامنية وحازمة لكافة الدول الأعضاء في المجموعة الدولية.

إن الحرب تولد الضغائن والأحقاد والمواجيد، والهوة بين الشعوب إنما تحفرها مثل هذه الأعمال التي لا يحسب لعواقبها حساب، والتي يجد فيها دعاة تصادم الحضارات مدعاة لتبرير نظرياتهم فلنكن على بينة من أمرنا، إن صراعات اليوم هي نتاج ظلم الأمس وإجحافه وظلم اليوم وإجحافه يمهّدان الطريق لمواجهة الغد والعالم المضطرب الذي نعيش فيه يملئ علينا الجنوح إلى الحكمة وتكريس طاقاتنا لبناء عالم أفضل.

أشكركم على كرم إصغائكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ما منهجية التاريخ الإسلامي ؟

د. عبد العزيز رأس مال

مدير الثقافة الإسلامية

تمهيد :

يقول الجبرتي: « اعلم أن التاريخ علم يُبحث فيه عن معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية من حيث هي وكيف كانت، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصُّح بها»..(شرارة: المسألة التاريخية).

هذا النص يحيلنا إلى الرسوم والأحوال والعادات، وهو يدرج هاته العناصر على امتداد خط موجه من البدايات (الأنساب) إلى النهايات (الوفيات)، وهو يحرر الحادثة التاريخية، وكيفية حدوثها، وكذلك المقارنة بين الماضي والحاضر في كون التاريخ الإسلامي ليس إلا معيّدًا لنفسه ولكن بصورة مختلفة من حيث العبرة والدلالة والرمز.

1- التاريخ في التصنيفات الإسلامية للعلوم :

التاريخ في التصنيفات إما غائبا، وذلك اقتداء بالتقسيم الأرسطي واليوناني، وإما ثانويا كمساعد للعلوم الدينية، وقد قسم المسلمون العلوم إلى علوم أجنبية وعلوم أصلية:

فأما العلوم الأجنبية، فتصنف من ضمنها الفلسفة.. وأما العلوم الأصلية فهي العلم الإسلامي الحق، وهي ما يسميها ابن خلدون : العلوم النقلية.

إخوان الصفا أثبتوا علم التاريخ بين العلوم الرياضية (التاريخ dates، ربط تاريخ البشر بعالم السماء والأفلاك وقراءاتها) وفي العلوم الشرعية سموه تارة «علم السير والأخبار» وتارة أخرى «علم الروايات والأخبار»، وأثبتوا هذا العلم بين العلوم العربية الإسلامية الأصلية.

نفس الأمر بالنسبة لمحمد بن عبد الله من خوارزم، الرياضي المشهور الذي ألف في 679 م «مفاتيح العلوم» الذي أدخل علم التاريخ في العلوم الشرعية، وفهرست ابن النديم الذي وضع 10 مقالات في العلوم الأصلية، الثالثة منها مختصة بعلم التاريخ (الأخبار والسير).

أما في رسالة ابن حزم، فيقول عن التاريخ بأنه علم نافع، وأن أصح التواريخ عندنا تاريخ الأمة الإسلامية؛ وحتى تاريخ اليهود يقال أن أغلبه صادق، ولو أن في بعضه «دخل»؛ وتاريخ الروم (اليونان والرومان) لا يصدق إلا ابتداء من الإسكندر؛ أما تاريخ الهنود والصينيين فعلى الرغم من أنهم عرفوا علما مزدهرا فإن كتبهم «لم تبلغنا»، فهو تاريخ غير معروف، كما هو الشأن فيما يتعلق بتاريخ القبط - قدماء المصريين - واليمنيين والسريريان. أما شعوب الترك وأم الشمال والزنج فلا تواريخ لديهم لأنه لا كتابة لديهم ولا علم، وهذا التقسيم شائع ومنتظر عند العلماء المسلمين بين الأمم المتحضرة وغير المتحضرة.. فالتاريخ الإسلامي إذن هو أصدق التواريخ عند هذا العالم القرطبي، وهو موقف مفهوم إذا قيس بمدى توفر الوثائق.

أما أبو حامد الغزالي، فيرى أن هنالك علوما مباحة كالتاريخ، ويسميه «تواريخ

الأخبار» - علم غير شرعي -؛ وعلم بسيرة النبي وأخبار أصحابه ويسميه علم الأخبار والآثار - علم شرعي - .

2. ابن خلدون ومنهجية التاريخ :

يعبر عنه بأنه «أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها خليق»، فهو يخرج من العلوم الشرعية ليدخله في العلوم الفلسفية «الحكمية»، ودعا إلى دراسة التاريخ بمنهج عقلاني من خلال نقد منهج الإسناد (تمحيص الخبر من خلال طبيعة إسناد، مقارنة صدق الخبر بطباع العمران المتواجدة في عصره) ، ومن ثم فإن نقد الإسناد هو في حد ذاته نقد التقليد الذي وقع فيه الطبري والمسعودي، فنسبت أصول الأخبار، ولم تعد هنالك حاجة إلى معاودة البحث عنها.

لكن تناقل الخطأ يشتد تفاقماً حين يقع التاريخ - تبعاً لثقافة برمتها - في التقليد؛ أي أنماط يحللها إلى مختصرات وملخصات، أي نموذج للتعليم الديني الذي يهيمن على نماذج الثقافة الواقعة في التقليد. لكن نقد التاريخ عند ابن خلدون كان بلغة أصولية - علم الأصول - وهو الذي أراد لنقده أن يكون جذرياً.

يقول ابن خلدون: «ومن هذا الباب ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها، فيذكرون اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسائه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره، كل ذلك تقليد لمؤرخي الدولتين من غير تفطن لمقاصدهم، والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأبناءؤها متشوقون إلى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقترفوا آثارهم...» (المقدمة ص 31 - 32).

وهنا يسلك ابن خلدون كما يقول أواميل مسلكاً مختلفاً عن علماء التاريخ الآخرين، فهو لا يكتب لأهل السلطة من خلال الحوادث الفردية، ولا يكتب

للمجتمع الخملي، بل ما يهمه هو سير الأسلاف، ومعرفة أحوالهم - أي أوضاعهم الحياتية -، أي ينبغي إرجاع التاريخ إلى وقائع التاريخ، أما اللجوء إلى مصطلحات العلم الديني - الأصول -، فهي من أجل إحداث فصل منهجي: وهو إرجاع التاريخ إلى موقعه الحقيقي (قوانين التاريخ)، باختار إلغاء الانفصام بين التاريخ والخطاب التاريخي.

حكم بن خلدون على عصره، كان من خلال عبارات قوية وموحية: « وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة، فقد انقلب أحوال المغرب الذي نحن نشاهدوه، وتبدلت بالجملة.. وما نزل من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر» ، لذلك فهو يشير إلى تبدل كوني كبير من الناحية السكانية ومن الناحية العمرانية، وهذا ما لم يعره كتاب تاريخ الملوك أهميته الخاصة.

من الناحية المنهجية فإن ما خلا تاريخ العرب والبربر، جمعه من مكتبات القاهرة ومكة ودمشق، وكذا الاتصال بالتجار والموظفين ورجال الدولة وهذا الجمع للمعطيات ساعده بأن يكتب عن تاريخ المشرق، ويكمل ما كان ناقصا.

من ناحية أخرى - كما يقول أواميل - فإن دراسة تطور المشروع التاريخي لابن خلدون، نشأته ونموه، ينبغي أن تسبق كل حديث عن فلسفته التاريخية.

منهجيا ينبغي أن نقرأ المقدمة من خلال كتاب التاريخ ، أي من خلال العبر؛ فكتاب العبر يعرضُ التاريخ، كما كان يعرفه «ابن خلدون»، والذي ينبغي تحديد حقله.

المقدمة ليست في نهاية الأمر سوى تنظير ينبغي أن يستخرج من قراءة منهجية لكتاب «العبر».

يعالج التواريخ الأخرى بشرطين اثنين : -

* أولهما: أن كل تاريخ خاص لابد له أن يتموضع بالنسبة للتاريخ الكوني، وهي أن التاريخ هو ذكر «للأخبار الخاصة بكل عصر أو جيل، وأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده» (المقدمة ص 32).

* ثانيهما: أما التواريخ المعاصرة لتاريخ العرب و البربر (لفظ معاصرة نجدها في ص 6)، فهي تواريخ الفرس وبنو إسرائيل والمسيحيين، وذلك في الجيل الثاني للعرب وهو العرب المستعربة. أما جيل الترك فقد عاجله باتصال مع تاريخ الجيل الرابع، أي العرب دعاة الإسلام ومؤسسي امبراطوريته.

ومن هنا فإن النظرية الخلدونية تعتمد على «محور العصبية»، فتاريخه هو تاريخ الشعوب ذات البنية القبلية، أي الشعوب التي تعتمد على العصبية في تغييرها من حال إلى حال ...

يرجع أيضا للكتب الدينية (التوراة)، للتعرف على بدء الخليقة، كما أن الطوفان ليس كونيا حيث تجهله بعض الأمم مثل الهنود والفرس، كما يعتمد على الوصف الجغرافي للمناطق ..

3. اهتمام المؤرخ في التاريخ الإسلامي :

المؤرخ المسلم محكوم عليه بأن يدمج بين الإلتزام والتجرد العلمي، فالخيط الذي يفصل بينهما خيط رفيع، لا يظهر إلا إذا تحول الإلتزام إلى تعصب أعمى وتحول التجرد إلى فكر مجرد خام.

لابد أن نشير إلى أن الغرور الذي أصاب الفكر التاريخي (تبجيل الذات

والنرجسية التاريخية)، هو الذي كان وراء اندحار هذا الفكر وفقدانه لمصداقيته حينما تعلق الأمر بالمنظرات الحضارية.

هنالك مدرستين في التفكير :

* مدرسة نطلق عليها الإنتقائية، يتم استعراض الفكر تارة بدقة وشمول، وتارة بسطحية ساذجة، فهي كالذي يتسوق في سوق الأفكار، فيستسيغ الفكرة من هنا، ويدلل عليها على أنها إبداع فكري وانتصار حضاري، وغالبا ما نجدها مفتاحا لنفسية المؤرخ أكثر من كونها فهما لفكر هذا الأخير.

* مدرسة ثانية يتم فيها قسر الروايات التاريخية والأحداث والسير للمنهجية الدينية (من حيث الإسناد والتواتر) مثل القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو خطأ منهجي مازالت لحد الآن تتركبه النخبة من مؤرخين وغيرهم.. وكأن المجتمع اليوم في عصوره الذهبية، وهو في الحقيقة يبحث عن مخرج من أزمة خانقة على كل المستويات.

يبين لنا طريف الخالدي إلى أننا بحاجة إلى الهداية، وأن نبتعد عن الصورة التاريخية. وولتفت إلى ما نجده في التاريخ من الدروس والعبر، فأوجه الفكر الحيوية كانت بالمنظرة بين العلماء المسلمين وغير المسلمين، وبين المسلمين أنفسهم، ونرى أن إعادة النظر في التفكير الديني لم يكن مختصا بحضارتنا وإنما عرفته الحضارات الأخرى.

إن فهم القرآن من خلال الأحداث التاريخية والأديان المقارنة، هو الذي يسمح لنا بتملك أدوات البحث، والتعمق في المفاهيم، وليس العكس أي فهم الأحداث التاريخية من خلال القرآن،

نفس الأمر، فيما يتعلق بالهالة التي نحيط بها مؤرخينا مثل بن خلدون وبن

الأثير والمقريري وصاعد الأندلسي وغيرهم... ينبغي فهم أفكارهم ورواياتهم من الداخل، أي فهمها في إطار التفاعل بين البيئة التاريخية والفكر، وهو ما يهملنا في الحاضر.

يقول «رانكة» كل جيل من الأجيال يتساوى مع الجيل الآخر في مسافته الروحية من الله؛ وهذه عبرة من عبر تاريخ الفكر الإسلامي، إذ تابعت في صدر الإسلام أجيال من العلماء حاول كل جيل إعادة تقييم التراث بكامله، فكان أن نتج عن ذلك زخم فكري حضاري هام.

المؤرخ عندنا يستلهم التاريخ لا لاستشراف المستقبل، بل للترويح عن النفس في بهاء الماضي وعظمتها، وهذا ما نقوم به للأسف الشديد، لتعويض العجز والقصور الفكري.

المشكلة الثانية التي يعاني منها التأريخ الإسلامي هو أنه تاريخ نخبوي، وبقدر ما يؤرخ لطبقة صغيرة من العلماء التي تنحو منحى ضيقاً، بقدر ما يقصي حقائق حضارية عامة كانت بذاتها بذور فناء الثقافة الإسلامية التاريخية، وانحطاط الفكر الإبداعي.

4. المناهج المتبعة عند العلماء المسلمين :

إن منهجية التجريح والتعديل، تعتبر هي المهيمنة في مناهج البحث، مارسها المؤلفون، وبما أن العديد منهم كان من أهل الحديث، فقد استعملوها..

فالذهبي، وضع ميزان الاعتدال الذي يجمع فيه كل أصناف رجال السند من الثقة إلى الكذبة، فالبيئة تقع على الجراح، وهذا يفيد من لا يوجد بحقهم جرح، وقد أخذ بن حجر العسقلاني بهذا الرأي.

أما **السخاوي**، فيشير إلى أن نواقص الرجال هي ضرب من الغيبة المذمومة، وهو بذلك يختلف عن الذهبي والعسقلاني المفضلين للتعديل على الجرح. **البوريني**، لا يذكر إلا ما كان محموداً عند كل إنسان، إبتغاء الثواب خوفاً من يوم الحساب.

الغزي، حذف كل ما من شأنه الإساءة إلى البشر، ينسبها إلى نفسه بدل الراوي.

السبكي، طور منهج النقد هذا، وأخذ في البحث عن الخصائص التي ينبغي أن يتحلى بها المؤرخ، المؤرخ ينبغي أن يكون صادقاً، وفيما في ذكر مصادره، يعرف صاحب الترجمة إن أمكن، بليغاً، قادراً على استعادة سيرة المترجم في ذهنه ونقلها في صورة بعيدة عن الأهواء الشخصية..

هذه الآراء لم تلق الصدى، كما أشرنا، لمن تبعهم من المؤلفين الذين عادوا إلى أساليب المحاكاة غير المحببة بين مناهج التاريخ والسير ومناهج الحديث.

الخلاصة: - الذهبي وبن حجر اتبعوا أسلوباً وسطاً، السخاوي والسيوطي تميزا بالجرح، البوريني والغزي قدما التعديل وحذفا الجرح...

من هنا يبدو أن النزعة في الأول كانت نحو الإنتقاء والتمييز عند بن خلكان، ثم توسعت إلى الشمولية بفضل الذهبي والصفدي مؤرخ عصر المماليك، ثم عادت إلى الإنتقاء في العهد العثماني حيث أصبحت طبقة العلماء مميزة وذات دور سياسي.

أشار حمزة الإصفهاني على لسان أبي معشر البلخي إلى «**الفساد**» الذي يعتري التواريخ، في نقلها من كتاب إلى كتاب، ومن لسان إلى لسان، (افتراءات المؤرخين اليهود في السنين التي بين آدم ونوح؛ وعن الأنبياء والأئم، والمؤرخون الفرس عن أصل ملكهم من أول الدهر إلى زواله)؛ ومن ذلك اضطراب البيروني في

الإختلافات التي وجدها في المصادر التي اعتمدها للتثبت من المعارف التاريخية: أما أصحاب التواريخ، فكانوا حريصين على ذكر المصادر، فالسبكي الأب كان يحرص على أن يذكر المؤرخون المصادر في كل خبر تاريخي.

خطط المقرئزي ، لها مصادر ثلاثة: - * المصنفات الأدبية* المعلومات التي جمعها العلماء المعاصرين له * المعلومات المبنية على اختياره الشخصي ومشاهداته.

5. أين نحن من المعرفة التاريخية؟

للأسف فإن علم المناهج الحالي لم يؤدي إلا إلى عزل التاريخ عن العلم الموسوعي، فلا توجد حقيقة واقعة تاريخية.. التاريخ هو نتيجة للجهـد في معنى خلاق، يدعم المؤرخ أو الذات العارفة بين الماضي الذي يستدعيه والحاضر الذي يمتلكه، وذلك بالإلحاح على المؤرخ لإتقان التاريخ؛ ومن ثم يرى «جالبريث»: «لأفرض أن التاريخ هو الماضي، إنه أبعد كثيرا مما نعرفه، أو بالأحرى هو بالمقياس الذي نعرف فيه هذا الماضي»..

التاريخ هو كفاح الفكر، مغامرة مثل كل الغزوات والحروب البشرية، لا يعرف إلا الانتصارات الجزئية، تتناسب مع الرغبة الرئيسية، كما في أعماق النفس الإنسانية المحيرة، يعود منها بإحساس حاد عن إمكانياته، عن ضعفه، عن خضوعه.

لاتنسى أنك لست إلا إنسانا، هذا ليس اعتراف بالعجز واليأس، بقدر ماهو يعبر على أن عمل المؤرخ شاق يستلزم جهدا ومثابرة، ولكن داخل حدوده خصب بالتأكيد.

في موسوعة «الانجلوا - سيتيويوس» نجد في أول السطر «يجري تحري التاريخ بوثائق» وفي نهاية الكتاب «ليس التاريخ إلا الممارسة بالوثائق»..
يقال في مثل أوروبي: - «لا تأكل الماعز إلا من عشبها المجاور لها حين تكون مربوطة»، إن المجاورة لمخزن البطاقات والمصادر المكتبية، وإيجاد تحفة جديدة بلا تبصر، ولا قصد التنقيب يمكن أن تبدو كالأصل لأعمال مشابهة (الحالة كثيرة الحدوث في التاريخ القديم حين تكون الوثائق نادرة، وكل مادة جديدة مرحب بها).
يرى «أكنون» بأنه ينبغي دراسة المشكلات لا العصور، وهو ما ذهب إليه كارل بوبر، فتاريخ الحضارة هو المهم Kulturgeschichte، ومن ثم ينبغي نقد الوثيقة بالطريقة التالية :

1 - نقد خارجي :

- 1 - نقد الشرعية : - هل هو نص الكاتب؟ الأصل أو نسخة مصورة؟ أو نسخة عن نسخ؟ هل هي صادقة أو منحولة؟ هل نقد تصحيحي (الجرح والتعديل)؟ إعادة تركيب الأصل المختفي؟!
- 2 - نقد المصدر : - الصفات الذاتية، طريقة المقابلة بشواهد أخرى، من الذي حرر الوثيقة؟ متى؟ أين؟ كيف؟ شكل الوثيقة؟ بأي سبل وصلت إلينا؟

2 - نقد داخلي :

- 1 - نقد تفسير مقاله الكاتب أو ما أراد قوله.
- 2 - نقد القابلية للتصديق، سلامة الطوية، الطاقة والإتقان.. تأكيد القيمة للشاهد:

هل أمكن للكاتب أن يفضل؟ هل تمكن اضطرابا من تضليلنا؟ هل هو شاهد مباشر «عياني» أو مستعيرا خبره من شهود آخرين؟ إذا كانت الوثيقة مفقودة، فلا بد

من البحث عن مصادر أخرى «Quellenforschung»، بطريقة البحث البوليسي، والتي هي طريقة ناجعة للبحث التاريخي، فحص، نقد، تفسير، وفي نوع الدلالات (اثار الخطى، بصمات) والشواهد مجموعة؛ لكن هذا التاريخ ذو نمط أولي غير محكم تقريبا ببساطة الحادث الذي يراد إعادة تركيبه.

يقول ياقوت الحموي: «المتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدئ تأليفه» أما الجاحظ فيقول: - «عقل المنشئ مشغول، وعقل المتصفح فارغ» وعلى هاتين العبارتين لياقوت الحموي، ولأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أختتم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المراجع

- 1 - د. علي أومليل: «الخطاب التاريخي» دراسة لمنهجية ابن خلدون معهد الإنماء العربي - بيروت -
- 2 - طريف الخالدي: دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي دار الطليعة ط 2 بيروت 1977.
- 3 - أ - مارو : من المعرفة التاريخية ترجمة جمال بدران الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر - 1971 .
- 4 - فرونز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي - ترجمة - د/ أنيس فريحة مراجعة د/ وليد عرفات.
- 5 - وضاح شرارة: المسألة التاريخية في الفكر العربي معهد النماء العربي - بيروت د.ت.

الشيخ الإمام محمد بن بن عمر الهواري

* دفين وهران *

الأستاذ محمد بن معمر
معهد الحضارة الإسلامية وهران

عصر الهواري :

عاش الإمام الهواري ما بين 750 - 843 هـ / 1350 - 1439 م أي النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م والنصف الأول من القرن 9 هـ 15 م، وهي فترة اضطراب وتدهور سياسيين في تاريخ المغرب الإسلامي الذي كانت تتقاسم فيه النفوذ ثلاث دول رئيسية هي :

الدولة المرينية بالمغرب الأقصى (المغرب)

الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط (الجزائر)

الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى (تونس)

وبقدر ما عرفت هذه الدول ازدهارا كبيرا في أول عهدها بقدر ما أخذ هذا الازدهار يذبل شيئا فشيئا فيما بعد، حيث سقطت كلها في وهدة الانقسامات

والحروب الداخلية، فكل أسرة من الأسر المذكورة (المرينية، الزيانية، الحفصية) دخلت في تطاحن عائلي مرير وطويل، وعرفت خصومة داخلية مستمرة على الملك والصولة، مما جر عليها الكثير من المحن والبلايا.

هذا فضلا عن تلك الحروب الهوجاء التي كانت بين هذه الدول الإسلامية الثلاث، فتارة تقود الحفصيين إلى فاس، وتقود تارة أخرى المرينيين إلى تونس، ودولة بني زيان بين شقي الرحي، تنتمي مرة لهؤلاء ومرة أخرى لأولئك وتعلن وجوب التخلص منهما معا وانقضى القرن 15 بأكمله في مد وجزر واستقلت جهات عديدة بنفسها في بلاد المغرب العربي مؤلفة إمارات وطوائف.

ولم يقتصر الأمر على التطاحن العائلي والنزاع الإقليمي بل أخذ الصراع طابعه الدولي، فالوضع السياسي المتمزق والمتأزم هو الذي جلب الى المغرب العربي الأطماع الأجنبية فوقعت ثغوره تحت الاحتلال البرتغالي والإسباني وأصبحت المدن الأخرى مهددة بالاحتلال.

ولعل الدارس لكتاب تاريخ الدولتين للزركشي، وكتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ القسنطيني، وكتاب العدوان، وكتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ورسالة الثعالبي في الجهاد وغيرها من المصادر التاريخية، يقف بوضوح على مدى تدهور الأوضاع السياسية لبلاد المغرب العربي خلال هذه الفترة التاريخية.

وقد كان لهذه الاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية بعض الآثار السلبية على الحياة الثقافية، إذ أن بعض العلماء قد هاجروا إلى المشرق، ولجأ بعضهم إلى خدمة الأمراء، في حين فضل بعضهم الانزواء مفضلا الهروب من أدران الحياة.

ولكن هذا لا يعني أبدا أن الحياة الثقافية قد ارتسمت هي الأخرى بتلك الصورة

القائمة التي عرفتها الحياة السياسية، بل إن القرن 9 هـ كان عهد إنتاج ثقافي وفير، و المدن كانت تشع بمدارسها ومساجدها، ثقافة يتغذى منها المجتمع روحيا وعقليا.

ومن هذه المدن بالقطر الجزائري، نذكر: تلمسان، وقسنطينة وبجاية ومازونة ووهران والجزائر وعنابة وبسكرة، وغيرها، ففي كل مدينة من هذه المدن عائلات اشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد و التصوف .

فبتلمسان عائلة المقرري والعقباني، وبقسنطينة عائلة ابن باديس والقنفذ، وببجاية عائلة المنجلاتي والمشدالي، وبالجزائر عائلة ابن السكات وعالمها وزاهدا عبد الرحمن الثعالبي، وعرفت مازونة عددا من الفقهاء كموسى بن عيسى، وابنه يحيى صاحب الدرر المكنونة. أما وهران فقد اشتهرت بالعالمين المتصوفين الإمام الهواري وتلميذه إبراهيم التازي وكانت كل مدينة من هذه المدن تحتوي على عدد كبير من المساجد والمدارس والمؤسسات العامة والخاصة والزوايا، وكان التعليم بجميع مستوياته منتشرا بها.

ومن أهم سمات القرن 9 هـ /15م في الجزائر، ظهور عقيدة المراتب وانتشار الزوايا، وافتتاح عهد التصوف العملي، وذلك بسبب ضعف الدولة أمام الانحلال الداخلي والخطر الخارجي. حقيقة أن التصوف وخاصة الدعوة الغزالية قد وجدت أرضا خصبة بالمغرب الإسلامي قبل ذلك، لكن المبالغة في الاعتقاد في الشيخ وابتداع الحضرة والأوراد وغيرها و الالتفاف حول زاوية ذلك الشيخ أو ضريحه، هي أمور عرفها القرن 9 هـ وما بعده، ثم جاء العهد العثماني ليزيدها حماية وتعهدا، وتزداد هي بدورها في ظلله ازدهارا و تفريعا.

حياة الإمام الهواري

* المولد والنسب :

أبو عبد الله محمد بن عمر الهواري، ولد للإمام الهواري سنة 751هـ /1350م بمغراوة وتربى بهوارة، لذلك عرف بالمغراوي أو الهواري إلا أن الثانية هي الأكثر .

أما عن نسبه، ففي الوقت الذي اكتفى فيه صاحب البستان وصاحب تعريف الخلف، وصاحب شجرة النور الزكية بذكر اسمه واسم والده، ونسبته وكنيته نجد صاحب دليل الحيران وأنيس السهران محمد بن يوسف الزياتي، ونقلًا عن صاحب جواهر الأسرار في معرفة آل النبي المختار، يورد للإمام الهواري نسبا مطولا انتهى به إلى الإمام علي رضي الله عنه، وفي ذلك يقول :

عالم وهران وعاملها الشريف الحسيني بغير شقاق سيدي محمد بن عمر بن عثمان بن عياشة ابن عكاشة بن سيد الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار ابن أبي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن موسى بن عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إن النسب العلوي الذي أورده صاحب دليل الحيران للإمام الهواري قضية تحتاج إلى دراسة وتمحيص أي أنها أمر مهم بالنسبة للهواري، فكيف سكت عنها جميع من ترجم له خاصة التنبكتي صاحب نيل الابتهاج وابن مريم صاحب البستان، والمتتبع للقائمة المذكورة يجد أن الحسن بن علي قد ولد محمدًا ومن عقب هذا الأخير موسى، غير أن الدارس لكتاب جمهرة العرب لابن حزم الأندلسي يجد غير ذلك، فهو يورد قائمة لأبناء الحسن بن علي ومنهم الحسن

وفيه العدد والبيت كما يقول، وزيد بن الحسن وله عقب كثير، وعمرو وكان له ولد انقرض عقبه، أما الحسين والقاسم وأبو بكر وطلحة وعبد الرحمن وعبد الله وجعفر وحمزة ومحمد (الذي ينسب إليه صاحب دليل الخيران ابنا اسمه موسى) فلا عقب لواحد من هؤلاء حسب ابن حزم (ص39).

إن قضية النسب العلوي واحدة من أعقد القضايا التي اختلف حولها المؤرخون والنسابون كنسب الفاطميين مثلاً والمهدي بن تومرت وغيرها، فمن غير المستبعد إذن ان يكون هذا النسب موضوعاً بالنسبة للإمام الهواري حتى تكتمل مكانته العلمية وشهرته الصوفية بشرف النسب.

شيوخه وتلاميذه :

أخذ الإمام الهواري عن أقطاب عصره وتلقى علومه في كبريات المدارس آنذاك، وكانت مدرسة بجاية أول محطة في رحلته العلمية حيث أخذ عن إمامها وكبير علمائها في وقته العلامة الزاهد أحمد بن إدريس البجائي المتوفي عام 760هـ/1359م وتلميذه من بعده الفقيه الصالح عبد الرحمن الوغليسي عالم بجاية ومفتيها المتوفي سنة 786هـ/1384م وكانت هذه المدرسة إلى جانب دورها العلمي والثقافي مدرسة صوفية من أهم وأشهر مدارس الجزائر الصوفية.

ثم سافر إلى فاس وأخذ عن الفقيه المالكي مفتي فاس موسى بن محمد بن معطي العبدوسي المتوفى عام 776 هـ / 1374م، وأخذ عن الإمام الفقيه أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي المعروف بالقباب أحد صدور أهل فاس وصاحب الفتيا بها له، نوازل مشهورة توفي عام 779 هـ - 1377م .

إننا لا نملك تاريخاً محدداً لدخول الإمام الهواري مدينة فاس ولا لخروجه منها غير أن تاريخ وفاة كل من العبدوسي والقباب يجعلنا نقدر تلك الفترة بالعقد

الثالث من عمر الإمام أي بين العشرين والثلاثين وهي الفترة التي سافر فيها من فاس متجها الى المشرق لأداء فريضة الحج، حيث مر في طريقه بمصر وأخذ عن شيوخها وعلى رأسهم الشيخ ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم الحافظ العراقي شيخ المحدثين المتوفى سنة 826 هـ.

وجاور مدة بالحرم الشريف بين مكة والمدينة ثم سافر للقدس لرؤية بيت المقدس والصلاة بها وجال في بلاد الشام حيث كان يأوي في جامع بني أمية. وبعد هذه الرحلة الطويلة التي قادته من بجاية الى فاس ثم القاهرة فالحرم الشريف مرورا بالقدس والإقامة في بلاد الشام، رجع الإمام الهواري إلى وهران التي استقر بها نهائيا إلى أن وافاه الأجل بها سنة 843 هـ. حيث أقام بها مثابرا على العلم والعمل والصدق في الأحوال، وانتفع به من اجتمع به من طلبة العلم وعلى رأسهم تلميذه الوفي الإمام إبراهيم التازي (موضوع مداخلة أخرى).

آثار الهواري:

كان إنتاج الجزائريين خلال القرن 9 هـ / 15 م في ميدان التاريخ والشعر والأدب الصرف قليلا بينما كان إنتاجهم الروحي أغزر مادة وأقوى تعبيراً. حيث امتد تيار المدرسة الوغليسية ببجاية ومدرسة حسن بن باديس بقسنطينة ليشمل القطر الجزائري كله فكان في مدينة وهران محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي، وفي مدينة الجزائر عبد الرحمن الثعالبي وتلميذه أحمد الجزائري، وفي تلمسان محمد السنوسي، وفي ندرومة يوسف الندرومي، وفي بسكرة عيسى بن سلامة البسكري.

غير أن آثار الإمام الهواري تعد ضئيلة في ميدان الانتاج الصوفي والعقائدي

مقارنة بأقطاب عصره من المتصوفة أمثال عبد الرحمن الثعالبي ومحمد السنوسي وغيرهما من مشاهير الصوفية، فقد ألف التسهيل، وتبصرة السائل والتبيان. أما المؤلف الذي نال شهرة في الأوساط الصوفية واعتنى به أتباعه وتلاميذه وتداولوه بالدرس هو كتاب السهو والتنبيه وهو عبارة عن منظومة غير معربة ولا قائمة الأوزان، لأن الفقيه أبا زيد عبد الرحمن المغراوي المقلashi أخذ كتاب السهو قبل أن يضيف إليه الهواري التنبيه وحاول أن يصلحه بوزن أشياء وإعراب أخرى وجاء به بعد أن أصلحه إلى الإمام الهواري وقال له قد أصلحت سهوك يا سيدي فأجابه الهواري قائلاً : هذا سهو المقلashi أما سهوي فهو سهو الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعني ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري؟ بل سهوي يبقى على ما هو عليه.

ولعل الإمام الهواري سار في ذلك سيرة بعض النساك وشيوخ الصوفية الذين قال أحدهم : لحنا بلساننا وأعربنا بجناننا ليس حقيقة الرفع والنصب والخفض والجزم أن ترفع الكلمة و تنصبها وتخفضها وتجزمها وإنما حقيقة الرفع أن ترفع لربك جميع الأعمال الصالحات وحقيقة النصب أن تنصب بين عينك ميزان القصاص ... إلى آخر ما قاله ابن الجوزي في بحر الدموع، ثم إن الإمام الهواري قد راعى ما كان سائدا في القرن 9 هـ .

فالشعر قد طغت عليه روح التصوف وأصبح نظما لا وحي فيه ولا خيال وكانت المنظومة تتناول موضوعا دينيا أو صوفيا أو رثاء متصوف أو زاهد وما شاكل ذلك.

وكان الشيخ أبو الحسن التالوتي كثير المطالعة لكتاب السهو والتنبيه وكان إبراهيم التازي تلميذ الهواري يختم كتاب السهو كل يوم تبركا.

الإمام الهواري و التصوف :

إن أهم ما ميز فترة القرن 9هـ/14م هو ازدهار التصوف وذيوعه في سائر الأنحاء، فالحركة الصوفية قد قطعت أشواطاً بعيدة منذ عهد الموحدين وأحرزت تقدماً ملحوظاً، ولكن الأوساط العلمية كانت في أغلب الأحيان لا تزال متمسكة بموقف معتدل في الصراع الحاد القائم منذ قرون بين أنصار العقلانية من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم وبين أعدائهم من الصوفية بصفة خاصة، وكان العلماء المعتدلين ينتمون غالباً إلى فريق السلفية المناهض للبدع.

وفي القرن 9 هـ تغير الوضع بصفة ملحوظة إذ تمكن التصوف من التوغل في جميع الأوساط وحتى بين العلماء والفقهاء وانتشر الرقص والسماع مما جعل التصوف المعتدل الذي غذته مؤلفات الغزالي وخاصة كتاب الإحياء يتحول إلى نشاط اجتماعي تنظمه عدة طرق أشهرها الطريقة الشاذلية وما تفرع عنها من فرق في سائر أنحاء المغرب، وإلى انفعالات وأعمال جماعية يلعب فيها شيخ الطريقة دوراً أساسياً. وقد أعلن العلماء من فريق السلفية استنكارهم للبدع التي أدخلت على حركة التصوف كابن مرزوق الحفيد وابن زكري حيث قام صراع عقائدي ومناظرات بين فريق السلفية وخصمه فريق المتصوفة.

واشتهر في ق 9 كثير من الأولياء الزهاد والصلحاء المتبتلين أمثال إبراهيم المصمودي ومحمد بن عمر الهواري وإبراهيم التازي وأحمد بن الحسن الغماري، والحسن أبران وأحمد البرنسي وغيرهم، ولكن الذي يهمنا من هؤلاء هو الإمام محمد بن عمر الهواري موضوع هذه المداخلة.

إن زهد وصوفية الإمام الهواري أجمع عليها كل الذين ترجموا حياته كابن سعد التلمساني والتنبكتي وابن مريم والزياني والحفناوي ومحمد مخلوف، فقد وصفوه بالشيخ الصالح الولي الكامل العارف بالله القطب الواصل العالم العامل

الكثير الكرامات . والحقيقة أن الإمام الهواري لم يكن سوى انتاج العصر الذي عاش فيه . فأول مدرسة تلقى فيها علومه الاولى هي مدرسة بجاية لقربها وشهرة علمائها في الدين والتصوف وخاصة مدرسة عبد الرحمن الوغليسي أي أن الإمام الهواري قد رضع ألبان الصوفية واحتك برجال التصوف وأخذ عنهم منذ نشأته مما حدد مساره العلمي والصوفي منذ البداية.

وقصد بعد ذلك فاس حاضرة المرينيين وحاضرة علماء جامع القرويين أمثال العبدوسي والقباب للتزود بالفقه المالكي ثم زار مصر والحجاز والقدس والشام، كما هي عادة الحجاج العلماء في وقته ليستقر في آخر المطاف بوهان كعالم زاهد وصوفي قطب حيث اشتهرت به واشتهر بها.

أما الطريقة الصوفية التي اتبعها الإمام الهواري فهي الطريقة الشاذلية نسبة الى ابي الحسن الشاذلي 656 هـ ، الذي تأثر بتعاليم عبد السلام بن مشيش 626 هـ ، تلميذ أبي مدين شعيب دفين تلمسان . وقد كان لتعاليم أبي الحسن الشاذلي أثر كبير في الجزائر فمعظم الطرق الصوفية التي ظهرت بعد القرن 8 هـ تتصل بطريقة أو بأخرى بتعاليم الشاذلية، وقد أحصى بعضهم عدد الطرق الصوفية في المغرب العربي أواخر القرن 13 هـ، فوجد 13 طريقة من مجموع 16 شاذلية الأصل . لذلك فالجزائر من الناحية الصوفية في القرن 9 هـ كانت تحت نفوذ الطريقتين الشاذلية والقادرية، وكذلك يمكننا اعتبار الإمام الهواري وغيره من أقطاب الصوفية كواضح بن عاصم المكناسي وإبراهيم التازي ومحمد السنوسي والثعالبي وأحمد الملياني من أتباع الطريقة الشاذلية وجميعهم قد أثروا على معاصريهم وتركوا تلاميذ وأتباعا وأسس بعضهم زوايا ظلت الى اليوم.

ويمكن تقسيم علماء الصوفية في هذه الفترة إلى ثلاث طبقات، فمنهم العلماء العاملون ومنهم المتوسطون في العلم ومنهم الخاملون الذين لا تعرف إلا أسمائهم .

ومن القسم الأول عبد الرحمن الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي، نظرا لكتبهما الغزيرة الفائدة واطلاعهما الواسع على أحوال العصر وتصدرهما للتدريس، هذا فضلا عن كونهما أقرب إلى الفقهاء منهم إلى المتصوفة.

ويأتي في القسم الثاني الإمام محمد الهواري وأحمد الملياني وإبراهيم التازي، فقد نظم الهواري عددا من المسائل الفقهية وغيرها، وكان واسع الإطلاع أخذ العلم في بجاية وفاس ومصر والحرمين والقدس ودمشق، وعاد لنشره في بلاده، حيث اتخذ زاويته بوهران مقرا لذلك . وكان تلميذه إبراهيم التازي شاعرا أيضا وهو الذي ورث عن شيخه العلم وإدارة الزاوية.

أما القسم الثالث فيشمل الخاملين الذين اشتهروا بالاسم فقط أمثال محمد واضح دفين الشلف ومحمد التواتي دفين بجاية وغيرهما من المرابطين المغمورين الذين ذكرهم الأدب الشعبي ونسج حولهم بعض الأساطير.

إذا كان هذا التقسيم قد روعي فيه المستوى العلمي فثمة تصنيف آخر يتعلق بسلوك رجال التصوف، فهناك صنفان:

أ - صنف العلماء الذين غلب عليهم التصوف وهم في الغالب لا يميلون إلى الوظيفة وإلى التقرب من السلطة إلا إذ أجبروا على ذلك بوجه من الوجوه.
ب - صنف يضم المتصوفة الذين يدعون العلم أو المنتسبين إلى التصوف والولاية لغرض من الأغراض والذين ساعدتهم الظروف السياسية والاقتصادية على الظهور واستغلال العامة.

إن كل التعاريف المقبولة والمعقولة ترى أن التصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط أساسية في مقدمتها معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة والعمل بهما والجمع بين العلم والعمل والسعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق

التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته إضافة إلى التقى والورع والتجرد عن هوى النفس وحب الدنيا، والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة وعدم التعاون مع الظلمة والمتجبرين. وهي شروط ليس من السهل توفرها في خلق الله، غير أن الشواهد كثيرة على وجود من توفرت فيه أو كادت، وهم الصنف الأول من رجال التصوف المشار إليهم، ولعل سيرة الإمام الهواري وعبد الرحمن الثعالبي ومحمد السنوسي وعبد الرحمن الاخضري وعمر الوزان وأمثالهم خير شاهد على ذلك، فقد أضافوا الى العلم الزهد والتصوف والتجرد عن الهوى.

أما الصنف الثاني فيضم دجاجة الدين ومن انتسبوا إلى التصوف ظلما وعدوانا لانحرافهم عن الطريق الحقيقي للتصوف والتحول من العلم الى إخرافة ومن الولاية الى الشعوذة وتبنيهم دعوات ضالة مضرّة بالمصلحة العامة، مما تولد عن ذلك انتشار الفوضى الدينية وكثرة الخرافات وحلول السحر محل العلم. وإن كان هذا الصنف محدود العدد والتأثير خلال القرن 9 هـ إلا أنه في القرون التالية قد انتشرت عناصره بشكل كبير مستغلة الأوضاع السياسية والاقتصادية في ظل الوجود العثماني الذي بالغ في تشجيع التصوف وأخذت تتسرب إلى حياة أقطاب التصوف الحقيقيين كالإمام الهواري والثعالبي والسنوسي وغيرهم بعض الكرامات والخوارق التي نسبها إليهم الأتباع وهي ليست من الحقيقة في شيء، واعتقدوا فيهم المعتقدات غير الصحيحة التي كانوا لا يقرونها لو كانوا أحياء.

وقد نسبت إلى الإمام الهواري كرامات في منتهى الغرابة، ومن ذلك ما رواه صاحب دليل الحيران أن أهل وهران قتلوا أحمد الهائج ابن الإمام الهواري ظلما فكان رد فعله كما يقول صاحب دليل الحيران أنه سلم وهران للنصارى لأنه سلطان مصيرها ومتول أمرها، وكان من الذين لو أقسموا على الله لبر الله قسمهم ونص

دعائه «روحي يا وهران الفاسقة، يا كثرة الجور والبغي والطارقة يا ذات الأهل
الباغية السارقة إني بعثك بيعة موافقة لنصارى مالقة وجالقة إلى يوم البعث
والتألقة مهما ترجعي فأنت طالقة». فقال له أحد الحضور يا سيدي والفرج
لاحقة فقال الشيخ والفرج لاحقة، ثم اعلم أن النصارى دخلوها بعد وفاته بـ
72 سنة . (ص : 41) .

دعاء غريب ينسب إلى الإمام الهواري وما هو إلا أسطورة من الأساطير تظهر
فيها الصنعة بوضوح وجلاء، والهدف منها هو تحقيق غرض واحد ألا وهو تبرير
الاحتلال الاستعماري وتقديمه للناس على أنه بلاء من الله وعقوبة حلت
بالمسلمين بسبب عصيانهم للأولياء، وما هي إلا أباطيل ودعاوى كاذبة لا أساس
لها، لأن الأولياء والعلماء قد عرفوا بمواقفهم العدائية للحكام المسلمين أنفسهم
وعدم التقرب منهم، فكيف بالإمام الهواري يسلم وهران التي قضى فيها نصف
عمره داعيا ومعلما ومرييا لكفار ونصارى إسبانيا، بل أن هؤلاء الأولياء ورجال
التصوف هم الذين تولوا أمر الدفاع عن الإسلام والشعور الإسلامية عندما
تعرضت للاحتلال الأجنبي وعجزت السلطة السياسية عن أداء واجبها وانهمكت
في مشاكلها الداخلية وحروبها الهامشية.

كما وردت بعض الكرامات والخوارق للإمام الهواري في كتاب البستان لابن
مريم مبالغ فيها، ومن ذلك أن الشيخ سليمان بن عيسى كتب إلى الإمام
الهواري كتابا فيه نحو 70 سطرا يشكو فيه أمورا ويسأل عن أخرى وبعثه مع
رسول له من قلعة هواره ولما انطلق الرسول بدا لسليمان بن عيسى ان يلحق
به خشية ان لا يضبط جواب الإمام الهواري فوصلا في نفس الوقت إلى الإمام
الهواري الذي شرع في جواب ما في الكتاب سطرا سطرا على الترتيب حتى
أتى على آخره وكل ما حدث به خاطر سليمان بن عيسى كل ذلك فعله الإمام

الهواري والكتاب مطروحا بين يديه دون أن يرفعه ولم يفك عنوانه ولم يفتحه ولم يسأل صاحبه عما فيه.

ويبدو من هذه الخارقة أنها تتعارض مع مقتضيات العقيدة، فكيف للإمام الهواري أن يعلم ما يجول بخاطر الناس ويعلم الأسرار وهي أمور منافية لحقيقة الدين، فمنطق الأشياء يقتضي أن الإمام الهواري فتح الكتاب وقرأ ما فيه وأجاب عليه سطرًا سطرًا.

ويبدو أن صاحب البستان قد أعجب ببعض العلماء ونظر إليهم نظرة القداسة لأنه لم يصل إلى مستواهم العلمي فأكثر من وصف العلماء بالكرامات والخوارق والخلط بين العلماء والصلحاء، سيما وأن ناحية التصوف تمثل ابن مريم في كتاب البستان أكثر مما تمثله ناحية الفقه والعلوم العملية، فهو نفسه يعتقد في ولاية الأولياء وكراماتهم لذلك حشا كتابه بأخبار هذه الكرامات والخوارق . ولكن بالرغم من بعض الخوارق المنسوبة للإمام الهواري فإن حياته لم تخل من كرامات حقيقية بلغت التواتر المعنوي واشتهرت بين العام والخاص وقد أجمع كما يقول ابن مريم على تعظيمه وتسليم التقديم له في الولاية كل من عاصره من بلاد المغرب من الأولياء، ومن هؤلاء الشيخ الحسن أبركان الذي سافر من تلمسان حافيا راجلا إلى أن بلغ الإمام الهواري تأدبا معه ويعتبر الحسن أبركان أحد الأربعة الذين خصهم ابن سعد التلمساني بكتاب سماه «روضة النسرین في ساقب الأربعة الصالحين» وهم الإمام الهواري وتلميذه إبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد بن الحسن المغراوي.

وما يدل على مكانة الإمام الهواري أيضا مشاورة السلطان الزياني أحمد العاقل : (834 - 866هـ)، (1431 - 1462م) له، ذلك أن هذه السلطان كما يقول التنسي في «نظم الدر والعقيان» كانت له عناية عظيمة بالولي الزاهد القطب الغوث شيخ

الزهاد وقدوة العباد السيد ابو علي الحسن بن مخلوف فكان يكثر من زيارته ويقتبس من إشارات ومدار أكثر أموره عليه، وبنى بزاويته المدرسة الجديدة وأوقف عليها أوقافا جلية.

والحسن بن مخلوف هذا هو أبركان المذكور ضمن الأربعة الصالحين في روضة النسرين وهو الذي سافر حافيا إلى الإمام الهواري كما ذكرنا وكان يعتمد عليه السلطان الزياني في كثير من الأمور ومنها أن السلطان الحفصي أبا فارس المتوكل (796 هـ - 838 هـ) تحرك لقتال الزيانيين بعدما رفضوا عهده سنة 837 هـ / 1433م فتوجه السلطان الزياني أحمد العاقل إلى الحسن أبركان يستشير به في أمور ثلاثة وهي :

- 1 - الذهاب لملاقاة السلطان الحفصي أو 2 - الصبر حتى يصل إلى تلمسان أو
- 3 - الذهاب إلى هنين ومنها إلى الأندلس فلم يجبه الحسن أبركان ونصحه بان يستشير في هذا الأمر الإمام الهواري وقد صادف ذلك وجود الشيخ بختي خادم الإمام الهواري بتلمسان فبعثوا معه الكتاب.

ولما وقع بين يديه قال لخادمه يا بختي لا حاجة لنا بصحبة السلطان وما الذي ساقنا إليه، وفي ذلك دليل على صدق الرجل في تصوفه وتدينه، فلو كان من صنف أشباه الصوفية لاهتبل هذه الفرصة ليتقرب من ذوي السلطان والجاه، ولكن عزوفه عنهم قد قوى مركزه ودعم مكانته بين أتباعه ومريديه . وكان جواب الإمام الهواري أن قال لخادمه قل له إن السلطان أبا فارس لا تراه ولا يراك أبدا . وتروي المصادر التاريخية أن السلطان الحفصي لما تحرك سنة 837 هـ لقتال السلطان الزياني أحمد العاقل احتل جبل وانشرس قهرا وانضم أهله إليه ثم ما كاد يتصل بتلمسان حتى وافاه أجله فتوفى بطريقه إليها وعاد أصحابه من حيث أتوا.

وهكذا فإن القرن 9 هـ وهو القرن الذي عاش فيه الإمام الهواري قد تزايد فيه

الاهتمام بالعلوم الدينية والتصوف وتناقضت العناية بالعلوم الدنيوية من اجتماعية وطبيعية أي أن القرن 9 هـ قد شهد في المغرب الأوسط وكذلك في الأقطار الإسلامية المجاورة خللا في التوازن بين العقلانية والروحانية حيث أصبحت هذه الأخيرة تسيطر على الفكر، وأخذ اهتمام الناس بالتاريخ والفلسفة والطب وغير ذلك يقل شيئا فشيئا ويقنع من يدرس هذه العلوم بالمختصرات والأراجيز ، وإذا كان هذا الاتجاه في بدايته في هذه الفترة فإن عهد الانحطاط والجمود تلا هذه المرحلة مباشرة .

ولا غرابة أن يعرف القرن 9 هـ نخبة صالحة من العلماء المشهورين غير أن العلوم التي نبغوا فيها ونبه فيها ذكرهم هي العلوم الدينية بصفة خاصة من تفسير وقرآيات وحديث وفقه وكلام وتصوف ولم يجد مثلا علم التاريخ خلفا لابن خلدون في هذا العصر، ولا الفلسفة والطب خلفا لابن رشد يواصل المسيرة في هذه العلوم ويسمو إلى مستوى أعلى.

تلك هي أهم ميزة للحياة الفكرية أثناء القرن 9 هـ ؛ وهي تعكس لا محالة الأوضاع السياسية التي كانت تحمل طابع الضعف والاضطرابات وعدم الاستقرار.

المراجع

- نيل الابتهاج : أحمد بابا التنبكتي
- البستان : ابن مريم
- تعريف الخلف : الحفناوي
- الضوء اللامع : السخاوي
- الأعلام : الزركلي
- درة الحجال : ابن القاضي
- شجرة النور : محمد مخلوف
- دليل الحيران : الزياتي

الانتساب إلى السلف لمنهجهم أم التزام بنتائج تجربتهم؟

أ. عبد الوهاب بوخلخال

من أكثر المقولات حضوراً في الخطاب السلفي: أن السلفي متبع لمنهج السلف في الفهم والسلوك.. ومن أكثر الكلمات تردداً على ألسنة دعاة السلفية كلمة (المنهج) وقد يستعملون كمرادف لها كلمات أخرى مثل (الأصول)، (القواعد).

فهم يصرون على أنهم يقتفون منهج السلف في الفهم والسلوك، بل إن المسلم عندهم لا يكون مسلماً إلا إذا أعلن تبعيته لمنهج السلف... وقد يشتط منهم البعض وتأخذهم الحماسة الحزبية فلا يرضون من المسلم مجرد الإعلان عن إسلامه إذا أعلن (أنا مسلم على كتاب والسنة ومنهج السلف الصالح) وهي التركيبة المختصرة لعبارة (أنا سلفي) !!

ولكننا رأينا أن عبارة (اتباع منهج السلف) ليست مُسَلِّمةً ولا واضحة كما يتوهم دعاة السلفية، وإنما تنطوي على سؤال مهم تشكل الإجابة عنه حداً فاصلاً بين مسألتين أهمل الخطاب السلفي التعرض إليهما، بل ويصر - بوعي أو بغير وعي - على إدامة الخلط بينهما.

أما السؤال فهو (هل اتباع منهج السلف يعني سلوك الطريق التي سلكوها للوصول إلى الحق، أم أن اتباعهم عني الالتزام بنتائج بحثهم التي توصلوا إليها من خلال استعمالهم لذلك المنهج؟).

وأما المسألتان اللتان تشكل الإجابة تمييزا بينهما فهما: المنهج باعتباره الطريقة التي تضمن للباحث الوصول إلى الحق الذي يبتغيه من ناحية، والنتائج المتمخضة عن تطبيق هذا المنهج في الواقع، من ناحية أخرى.

* السلف ومنهج الفهم:

هل كان للسلف - رضوان الله عليهم - منهج خاص في فهم الكتاب والسنة، ومن ثمة يكون كل من خالفهم فيه خارجا عن أتباعهم؟

إن هذه من المسائل التي يشعر بها من يطالع ما يكتبه دعاة السلفية أو يستمع لأحاديثهم، فهم لا يكفون عن الحديث عن (منهج السلف) في مقابل (منهج الخلف)، وهما منهجان - بحسب ما تروج له تلك الكتابات والأحاديث - منفصلان إن لم نقل متضادين!!

فكأن العقل المسلم - وفقا للتصور السلفي - مر بمرحلتين زمنييتين، مرحلة (السلف) المتميزة بمنهجها الخاص، ثم تلتها مرحلة (الخلف) المتميزة بمنهجها الخاص أيضا.

وهو وإن كان هذا التحقيق الزمني، في الحالة العامة يصعب التسليم به، ذلك أن الفواصل بين المراحل الزمنية إنما هي في الحقيقة فواصل وهمية، أشبه ما تكون بالفواصل أو الحدود التي تفصل بين المياه الإقليمية، فنظريا يمكننا أن نميز على الخرائط تلك الحدود، لكن عمليا لا يمكن أن نمنع التداخل بين البحار والمحيطات مهما حاولنا ذلك!

وفي التاريخ يمكننا أن نسمي ونقسم - نظريا - المراحل والحقب، لكننا - عمليا وواقعا - لا يمكن أن نحدث القطيعة التامة بين مرحلة تاريخية وأخرى.

إن كان الأمر بهذه الصورة في الأشكال العامة، فهو في المجال الثقافي والمعرفي

أكثر تعقيدا، لأن المسألة هنا تتخذ شكل بنية دقيقة التركيب، تتداخل مكوناتها وتتشابك بطريقة يصعب الفصل فيها بين العوامل الزمانية أو المكانية، وبين العناصر الذاتية والموضوعية.

ففي المجال المعرفي والثقافي بشكل عام ليس من السهل أن نضع حدودا فاصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، كما يصعب فصل الداخل عن الخارج فصلا كالذي ترسمه أقلامنا على الخرائط، كما أنه ليس من اليسير التمييز بوضوح تام بين المواهب الشخصية والإرث الاجتماعي... إنها بنية يتداخل فيها الكل.

فإن كان الأمر كذلك فهل يصح أن نقسم تاريخنا الثقافي إلى (مرحلة المنهج السلفي ومرحلة المنهج الخلفي)؟

وهل يصح أن نحدث قطيعة معرفية بين مرحلتين زمانيتين في تاريخنا الثقافي، بحيث نجعل الأولى مقياسا للحق والصواب ونحاكم الثانية بناء على ذلك المقياس؟ لاشك أن هذه الإشكالات ستجد أجوبتها وحلولها إن نحن فحصنا السؤال الذي انطلقنا منه أولا وهو (هل للسلف منهج خاص بهم امتازوا به عن غيرهم ممن جاء بعدهم؟)

وكلمة (سلف) - كما سبق وأن رأينا - تمتد معناها ليشمل مرحلة زمنية تغطي ثلاثة قرون من تاريخ السلمين، وهي مرحلة التأسيس التاريخي والثقافي والحضاري للأمة الإسلامية، فكل ما تلا هذه المرحلة إنما يشكل إضافة وتوصلا واستكمالا لتلك البدايات المؤسسة.

وهذه المرحلة التأسيسية - ذات القرون الثلاثة - مرت هي أيضا بمراحل، شكل فيها الأوائل مرحلة التأسيس ثم استكمل اللاحقون البناء، ولنتذكر ما أشرنا إليه فيما سبق، عندما قلنا بأن كلمة (سلف) إنما تصدق حقيقة على صاحب الأولوية

المطلقة وهم الصحابة - رضي الله عنهم - فهم كانوا أول هذا الأمر تاريخيا وثقافيا وحضاريا.

وهذه الملاحظة تمهد لما نريد أن نتحدث عنه بخصوص (المنهج؛ الذي عرفه السلف - رضوان الله عليهم - خلال تلك المرحلة الزمانية المحددة بالقرون الثلاثة الأولى).

فالصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا هم الجيل الأول الذي وجد نفسه في مواجهة نصوص الكتاب والسنة على مستوى الفهم ثم التطبيق العملي . وكان عليهم - رضي الله عنهم - أن يواجهوا ما استجد من مشكلات سياسية واجتماعية، لم يكن لهم بها عهد في الدور التشريعي الأول، يوم كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرائهم والوحي يتنزل مجيبا عن امشكلات الطارئة ومبنيا لأحكامها.

ولهذا عُدَّ عهد الصحابة لدى مؤرخي التشريع الإسلامي (الدور التشريعي الثاني) * من أدوار التشريع⁽¹⁾، وفيه بدأت تبرز مسألة النصوص المتناهية في مقابل الحوادث غير المتناهية، إذ بموت النبي - ﷺ - انقطع الوحي وانتهت بذلك النصوص، بينما استمر الواقع ينتج أوضاعا جديدة يتطلب البعض منها أحكاما تشريعية، قد لا تكون النصوص دالة عليها بشكل مباشر... فكان على العقل المسلم في هذا الدور أن يتحرك ليدشن حركة الاجتهاد بحثا عن تلك الأحكام⁽²⁾.

* قسم الشيخ الخضري مرحلة الصحابة إلى دورين - بعد أن اعتبر المرحلة النبوية الدور الأول - فكان في عهد الصحابة: - الدور الثاني (وتكلم فيه عن كبار الصحابة)، والدور الثالث (وتكلم فيه عن صغار الصحابة ومن تلقى منهم من التابعين). وسيكون تركيزنا على القسم الأول (الدور الثاني) باعتباره هو الأساس لما سيأتي بعده دون أن نهمل الإشارة إلى التطور الذي حصل في القسم الثاني وما تلاه من أدوار تاريخية للتشريع الإسلامي.

1 - الشيخ محمد الخضري بك : تاريخ التشريع الإسلامي، دار أشرىفة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د. ب، د. ط، ص 103 وما بعدها.

2 - طبعا لا ننسى الجهد الأول الذي انصرف في هذا الدور الجول جمع القرآن الكريم، فهو أساس الجهود التشريعية التي تلت من بعد.

كان عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - هو البداية في مسيرة الاجتهاد التي صنعت المدونة التشريعية التي يفتخر بها المسلمون اليوم، ومن شأن البدايات أن تكون بسيطة، تقترب من التلقائية بقدر ما تبتعد عن التعقيد والتبويب والتفريع، ولكنها في بساطتها تلك تضع البذور التي تتحول مع مرور المراحل شجرة باسقة وارفة الظلال طيبة الثمار.

وقد لخص الشيخ الخضري - رحمه الله - هذا الدور من التشريع تلخيصا يجلي الصورة أمام الباحثين، ويمكنهم من الرؤية السليمة لتاريخ المسلمين التشريعي، بعيداً عن الصور المتوهمة التي تهدر الواقع وتقفز فوق الأحداث، فتصل في النهاية إلى نتائج لا يمكن للعاقل أن يسلم بصحتها أو يقتنع بصوابها.

يقول - رحمه الله -: «كان الاستنباط في ذلك العصر قاصراً على فتاوى يفتيها من سئل في حادثة ولم يكونوا يتوسعون في تقرير المسائل والإجابة عنها، بل كانوا يكرهون ذلك ولا يبدون رأياً في شيء حتى يحدث، فإن حدث اجتهدوا في استنباط حكمه، ولذلك كان ما ينقل عن كبار الصحابة من الفتوى قليلاً، وكانوا يعتمدون في فتواهم على :

1 - القرآن الكريم لأنه أساس الدين وعمدة الملة وكانوا يفهمونه واضحاً جلياً لأنه بلسانهم نزل، مع ما امتازوا به من معرفة أسباب نزوله، ولم يكن دخل فيهم إذ ذاك أحد من غير العرب.

2 - سنة رسول الله - ﷺ -، وقد اتفقوا على اتباعها متى ظفروا بها ووثقوا من صدق روايتها، فكان أبو بكر إذا وردت عليه حادثة نظر في كتاب الله، فإن وجد به حكمها قضى به وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله - ﷺ - فإن وجد عنده ما يقضي به قضى، فإن أعياه سأل الناس هل علمتم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا.

وكان عمر يفعل ذلك، فإن أعياء أن يجد ذلك في الكتاب والسنة سأل هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء، فإن كان لأبي بكر قضاء قضى به إن لم يبين له خلافه، وكذلك كان عثمان وعلي - رضي الله عنهم جميعاً - مع ما قدمنا من الاحتياط في القبول.

وكانت ترد على الصحابة أقضية لا يرون فيها نصاً من كتاب أو سنة، وإذا ذاك كانوا يلجأون إلى القياس، وكانوا يعبرون عنه بالرأي، كذلك كان يفعل أبو بكر - رضي الله عنه - إذا لم يجد في كتاب الله نصاً ولا عند الناس سنة، فإنه كان يجمع الناس ويستشيرهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به، وكذلك كان عمر يفعل، ولما ولي شريحاً قضاء الكوفة قال له: أنظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول الله - صلي الله عليه وسلم - وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك.

وكتب الله إلى أبي موسى الأشعري يقول: القضاء فريضة محكمة أو سنة متبعة، ثم قال الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، أعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك» (3).

ما يهمنا في هذا النص التاريخي الهام، تلك الإشارات إلى الطريقة التي كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتعاملون من خلالها مع مصادر التشريع، وهي إشارات تشكل صورة (المنهج) في المرحلة التأسيسية، وهذا ما يسمح لنا بتسجيل الملاحظات التالية:

1 - عناية الصحابة بالجانب العملي وعزوفهم عن البحث النظري التجريدي (اقتصارهم على الفتوى - عدم الإفتاء فيما لم يقع بعد).

3 - تاريخ التشريع الإسلامي ص 114 - 116.

2 - رجوعهم إلى الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين للأحكام الشرعية.

3 - الاجتهاد بالرأي (القياس) فيما لا نص فيه.

ضمن هذه الخطوط العامة كان يتحرك الصحابة - رضي الله عنهم - في عملية التشريع، بيد أننا نريد أن نقرب أكثر لنتبين كيف كانوا يفهمون القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى كيف كانوا ينتقلون من (النص) إلى (الحكم)؟

أشار الشيخ الخضري إلى بعض من ذلك بقوله عن القرآن (وكانوا يفهمونه واضحاً جلياً لأنه بلسانهم نزل، مع ما امتازوا به من معرفة أسباب نزوله، ولم يكن دخل فيهم إذ ذاك أحد من غير العرب).

- وبالنسبة للسنة (اتفقوا على اتباعها متى ظفروا بها ووثقوا من صدق روايتها).

- ومقولة عمر - رضي الله عنه - لقاضيه (الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك بما

ليس في كتاب ولا سنة، أعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك).

إذن كان للصحابة منهج في فهم النصوص يقوم أساساً على معرفته باللغة العربية لأنها هي وعاء الوحي، والاعتداد بأسباب النزول، والإستيثاق من المرويات في السنة، واحترام ما أجمع عليه غيرهم من الصحابة، فإن أعجزهم وجود الحكم في النصوص أو لم يجدوا في المسألة إجماعاً التفتوا إلى أعمال الرأي من النظر في الأشباه والنظائر والأمثال.

واستمر الأمر - في عمومه - على هذا النحو في الدور الثالث والدور الرابع، وهما الدوران اللذان يغطيان مع ما سبق المرحلة الزمنية التي يصدق عليها وصف (السلف).

إذ يمثل الدور الثالث (عصر صغار الصحابة ومن أخذ عنهم من التابعين) ويمثل الدور الرابع (الحقبة الممتدة من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع).

ففي الدور الثالث إزدادت المشكلات السياسية تعقداً، كما طرأت على

التركيبة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي عدة تغيرات كان لها الدور الفعال في تطوير حركة التشريع.

ويمكن رسم صورة عامة لهذا الدور - بحسب ما أورده الشيخ الخضري - من خلال المعالم التالية:

1 - تفرق المسلمين سياسيا بين خوارج ناقلين على علي - رضي الله عنه - وعلى من شيعه، وشيعة متشيعين له ولبنيه.

2 - تفرق علماء الصحابة في الأمصار، فقد انتقل العديد منهم من المدينة واستقروا خارجها والتف حولهم التلاميذ الذين شكلوا طبقة التابعين.

3 - شيوع رواية الحديث وازدياد الاهتمام بالسنة.

4 - ظهور الكذب في الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكان لهذه الظاهرة أسباب عددها القاضي عياض فيما نقله عنه النووي في شرحه لصحيح مسلم، فقال : «الكاذبون ضربان : أحدهما ضرب عرفوا بالكذب في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهم أنواع، منهم من يضع عليه ما لم يقله أصلا إما ترفعا واستخفافا كالزنادقة وأشباههم ممن لم يرج لله وقارا، وإما حسبة يزعمهم وتديننا كجهل المتعبدین الذين وضعوا الأحاديث في الفضائل والرغائب، وإما إغرابا وسمعة كفسقة المحدثين، وإما تعصبا واحتجاجا كدعاة المبتدعة ومتعصبي المذاهب، وإما اتباعاً لهوى أهل الدنيا فيما أرادوه وطلب لهم العذر فيما أتوه».

5 - ظهور عدد كبير من متعلمي الموالي، وهم مسلمون من غير العرب من أبناء الفرس والروم وأهل مصر، فبرز عكرمة مولى ابن عباس، ونافع مولى ابن عمر، ومحمد بن سيرين مولى أنس بن مالك، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج مولى أبي هريرة... فوجد العرب أنفسهم - على الرغم من عصبيتهم - في موضع التلمذ على

أولئك الموالي وهو ما يشكل نقلة غير بسيطة على مستوى الوعي الاجتماعي كان لها بالغ الأثر في تاريخ المسلمين بعد ذلك.

6 - بدء النزاع بين مدرستي الرأي والحديث، وظهور أنصار لكل منهما، فكان أهل الحديث يقفون عند ظواهر النصوص بدون بحث في عللها، وقلما يفتنون برأي، وكان أهل الرأي يبحثون عن علل الأحكام وربط المسائل بعضها ببعض ولا يجحمون عن الرأي إذا لم يكن عندهم أثر.

وكان أكثر أهل الحجاز أهل حديث وأكثر أهل العراق أهل رأي.

تلكم هي المعالم البارزة التي ميزت هذه الحلقة الثانية من تاريخ التشريع الإسلامي، فهي بشكل أو بآخر استمرار وتطوير لما عُرف في المرحلة الأولى (عصر كبار الصحابة)، خصوصاً فيما يتعلق بمصدري التشريع، فقد زادت العناية بالقرآن الكريم حفظاً وكتابة وإقراء كما ازدادت رواية السنة وتلقي التابعين لها من أفواه الصحابة الذين تفرقوا في الأمصار، إلا أنها لم تأخذ حظها من التدوين - الرسمي - إلا بمجيء عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - على رأس المائة الثانية من الهجرة.

أما فيما يتعلق بقواعد الفهم التي نحن بصدد تتبعها، فيمكن أن نقول بأن هذا الدور - وإن كان انقسم في عمومته إلى مدرستي الحديث والرأي - فلأن الأمر لم يختلف كثيراً على ما عُرف في الدور السابق، يقول الشيخ الخضري - رحمه الله - :
« وعلى الجملة فقد امتاز هذا العصر بانقسام المفتين من حزب الجمهور فيه إلى أهل حديث وأهل رأي، إلا أنه لم تكن هناك قواعد معلومة واضحة للمجتهدين لأن الفقه كان إلى ذلك الوقت لم يأخذ الدرجة اللائقة به من التدوين والترتيب»⁽⁴⁾

- فإذا انتقلنا إلى الدور الرابع من أدوار التشريع - وهو بحسب تحقيب الحضري -
يمتد من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع الهجري، نكون قد وصلنا إلى
الحلقة الأخيرة التي تغطي فترة (السلف) والتي بصدد البحث فيها عن (منهج
السلف) الذي يزعم دعاة السلفية أن (الخلف) انحرفوا عنه بابتداع منهج جديد في
فهم النصوص، ومن ثمة أحدثوا قطيعة في تاريخنا التشريعي بوجه خاص وتاريخنا
الثقافي بوجه عام.

ففي هذا الدور نجد أنه على المستوى السياسي نجح بنو العباس في تحويل الخلافة
من أسرة بني أمية إلى أسرته، وهو ما عمق التوتر بينهم وبين بني عمومته من
أولاد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - الذين كانوا يرون أنفسهم أحق بالأمر
من أي بيت آخر.. فكانت الثورات وكان الفشل... وبعد شد وجذب استقر الأمر
لبنو العباس فدانت لحكمهم معظم الأقاليم الإسلامية... وكان من سياسات
خلفاء بني العباس اللعب على التوازن بين العصبية الموجودة في المجتمع
الإسلامي، خصوصا العربية والفارسية، فكان الخليفة إذا رآه من أحد الفريقين
شيء استعان عليه بالآخر، وبقي الأمر كذلك إلى خلافة المأمون بن الرشيد الذي
كانت تربيته فارسية محضة، وعلى أيديهم انتصر على أخيه محمد الأمين، رأى أن
يبطل العصبية العربية ويجعل عمدته على الفرقة الأخرى، ولما ولي أخوه إسحاق
المعتصم استجد لنفسه عصبية أخرى من ممالك الأتراك الذين استكثروهم،
وبذلك كان القضاء المبرم على سلطان الدولة العباسية.. وقد جر ضعف دولة بني
العباس إلى قيام دويلات وإمارات بالشرق، كالدولة السامانية والدولة الصفارية
ولم ينته هذا حتى قام بنو بويه وأسسوا لبيتهم ملكا وانتهى أمرهم بالاستيلاء على
بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فلم يبق لبني العباس إلا الاسم ولبنو بويه
وعصبتهم السلطان النافذ.

كان ذلك هو المشهد السياسي في محطاته الكبرى كما اختصره لنا الشيخ الخضري - رحمه الله، والذي يهمننا هنا هو الجانب العلمي وما تعلق منه بالمنهج على وجه الخصوص.

فقد عرفت هذه المرحلة التاريخية تطوراً حضارياً عدّ فيما بعد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، إذ شكل هذا الدور انتقال المجتمع الإسلامي من طور البداوة إلى طور الحضارة وهي نقلة ليست هينة في ميزان التغيرات الاجتماعية التي قد يعرفها مجتمع من المجتمعات الإنسانية.

فالدولة العباسية ورثت ملكاً عظيماً - أو على الأقل قاعدة لذلك الملك العظيم - من بني أمية، وكما يقول ابن خلدون: « على قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الملك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله »⁽⁵⁾.

ولما كان العلم - كما يقول ابن خلدون أيضاً⁽⁶⁾ - قرين الحضارة ، لأنه مرتبط بالتعليم الذي هو من جملة الصنائع التي يقتضيها المجتمع المتحضر، كان من الطبيعي أن تزدهر الحركة العلمية في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين . ولهذا سنجد أن الحركة العلمية قد نشطت في هذا الدور بفعل التغير الاجتماعي الذي حصل على مستوى تركيبة المجتمع العربي آنذاك، ولاسيما بعد

5 - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت، د ت، د ط، ص 192.

6 - المرجع نفسه، ص 481، يقول: « الفصل الثالث في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم: والسبب في ذلك أن تعليم العلم - كما قدمناه - من جملة الصنائع، وقد قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش، فمتى فضلت أعمال أهل العمران على معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته إلى العلم عن نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة، فلا يجد فيها العلم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو، كما قدمناه - ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة، شأن الصنائع كلها ».

اتساع الدولة ودخول الموالي وتسلم العديد منهم مراكز التوجيه والتعليم - وقد ألحنا إلى ذلك من قبل - ؛ كما كان للترجمة دور آخر في أنفتاح العقل المسلم على الثقافات والحضارات الأخرى.

أما فيما يتعلق بالجهود في المجال التشريعي على وجه الخصوص، فيمكن أن نميز مايلي:

1 - إزدياد العناية بالقرآن الكريم، حفظاً وضبطاً وأداءً، إذ في هذا الدور ظهر القراء المشهورون. (7)

2 - تدوين السنة وظهور المصنفات في ذلك، كما ظهر علم الجرح والتعديل خدمة وتوثيقاً لما دونه العلماء من الأحاديث.

3 - بروز النزاع بين الفقهاء حول بعض الأصول التشريعية، يقول الشيخ الخضري - رحمه الله - : « وجد في هذا الدور نزاع شديد بين المشرعين في الأصول التي منها تستنبط الأحكام، ونحن مستقصون ما وصل إلينا من نبأ ذلكم النزاع : (أولاً) النزاع في السنة (من حيث حجيتها أو حجية بعض أقسامها)*، (ثانياً) النزاع في القياس والاستحسان (وكان النزاع على أشده بين أهل الحديث وأهل الرأي)**، (ثالثاً) النزاع في الإجماع ... (رابعا) النزاع في دلالات الأمر والنهي... » (8)

7 - عن تطور علم القراءات وتراجم القراء المشهورين انظر :

- عبد الحليم بن محمد الهادي قابة: القراءات القرآنية، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1999م، ص 43-65.

* - وقد أطال الشيخ الخضري بيان هذه المسألة، ونقل نصوصاً مطولة عن الإمام الشافعي تصور شبهات المخالفين وتبين الردود عليهم (أنظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص 182-199).

** - أنظر تفصيل هذا النزاع وحجج كل فريق في (تاريخ التشريع الإسلامي، 199-209).

8 - تاريخ التشريع الإسلامي، ص 182 وما بعدها، وقد أثرنا أن نعرض عناوين المسائل دون التفصيلات حتى لا نخرج عما نحن بصدد، وهو مسألة تتبع (المنهج) الذي كان يعتمد السلف - رضوان الله عليهم -

لقد كان من نتيجة النزاعات التي ظهرت بفعل اتساع عملية التشريع، وازدياد نشاطها بازدياد حركية المجتمع الإسلامي، وانتقاله من طور البداوة إلى طور الحضارة، أقول كان من نتيجة ذلك أن تتجه أنظار بعض العلماء إلى محاولة ضبط (القواعد) التي يستند إليها في إنتاج تلك الفروع الفقهية، وهو ما شكل نقطة أخرى مميزة لهذا الدور والتي تمثلت في تدوين أصول الفقه.

يقول الشيخ الخضري - رحمه الله - : «كانت هذه المنازعات في مادة الأحكام سبباً لاشتغال العلماء بوضع ما يسمونه بأصول الفقه، وهي القواعد يلزم كل مجتهد أن يتبعها في استنباطه» (9)

ثم كانت خاتمة هذا الدور بنشأة المدارس الفقهية أو المذاهب التي تلقتها الأمة بالقبول، ففي هذا الطور نبغ مؤسسو تلك المذاهب، فكان أبو حنيفة النعمان (80 هـ - 150 هـ)، ومالك بن أنس (93 هـ - 971 هـ)، ومحمد بن إدريس الشافعي (150 هـ - 204 هـ)، وأحمد بن حنبل الشيباني (164 هـ - 241 هـ).

وكان لهؤلاء الأئمة الأعلام *** تلاميذ سلكوت مسالكهم وانتسبوا إليهم مشكلين بذلك مدارس يكون الانتماء إليها على أساس (المنهج) لا على أساس الاتباع غير المستبصر للأشخاص كما تروج الكتابات السلفية. والآن ما الذي قصدناه من هذه الرحلة التاريخية لمراحل وأدوار التشريع الإسلامي، كما فصلها الشيخ الخضري - رحمه الله - ؟

لاشك أننا لم نكن نقصد التاريخ، فإن ذلك كان سيغرقنا في تفاصيل كثيرة، وكان حتماً سيخرجنا عن جوهر ما تهدف إليه هذه الدراسة، وإنما الذي عيناه أن

9 - المرجع نفسه، ص 220.

*** مما تجدر الإشارة إليه أن هناك أئمة آخرين ظهوروا في تلك المرحلة وكانوا على قدر كبير من الفقه والإبداع والنبوغ، بيد أن الظروف التي أحاطت بهم لم تمكنهم من الاستمرار والبروز، كما تجدر الإشارة إلى ظهور فقهاء لدى الشيعة يختلفون عنهم.

نتابع مع القارئ دعوى الانقطاع المنهجي والمعرفي التي يروج لها دعاة السلفية، عندما يُصَرَّوْنَ على رمي الخلف بالتحريف لأنهم خالفوا منهج السلف.

فها نحن أولاء قد استنطقنا تاريخ التشريع، وتتبعنا مراحلها، فلم نجد تلك القطيعة المزعومة وإنما الذي وجدناه، انتقالا سلسا بين مراحل تاريخية متداخلة، لا تكاد تتمايز إلا بمقدار ما أدخل عليها من تطورات هي إلى التفصيل أقرب منها إلى الإنشاء، اقتضتها التطورات التي لحقت الحياة ذاتها... وهل الإنسان إلا أحد مكونات تلك الحياة يتحرك فيها، مؤثرا فيها ومتأثرا بها!

فلم نسمع أن السلف - وهم أهل القرون الثلاثة - كانوا على صورة واحدة من التفكير والنظر في النصوص وإسقاطاتها على الوقائع المتجددة.

وإنما كانت اجتهاداتهم - التي بدأت قليلة في عصر الصحابة بحكم بساطة الحياة التي عايشوها - وفق منهج اقتضته طبيعة النصوص التي صيغت بلسان عربي مبين، ثم ما فتىء هذا المنهج يطور ليصاغ - بمرور الأجيال وتعقد الحياة وتغير الأحوال - ضمن قواعد علمية دقيقة... فقد رأينا أن تركيبة المجتمع العربي توسعت لتدخل ضمن مكوناتها أعراق أخرى غير عربية، وهذا كان له أثره على اللسان العربي لدى الأجيال اللاحقة، كما رأينا أيضا أن رقعة الدولة اتسعت لتدخل في نطاقها أقاليم جديدة عرفت حضارات وثقافات وعادات مختلفة عما اعتاده الصحابة - وهم الجيل المؤسس - في البيئة التي نشؤوا فيها.

فما كان للأمر أن يبقى على ما هو عليه مع هذه التغيرات التي تكاد تكون في بعض المجالات جذرية.

وما كان لطريقة الفهم أن تبقى على بساطتها وهي تتناول النصوص ذاتها التي تناولها الصحابة والجيل القريب منهم، ولكن هذه المرة ضمن تحديات واقعية مختلفة ومعقدة.

ويمكن أن نقول ما كان للمنهج أن يبقى على تلك الحالة البسيطة وقد تشعبت مادة الفهم وتعددت جزئياتها، وأصبح الكثير من فروعها محل نزاع بين الفقهاء. إذن فالتطور الذي حصل كان أمراً طبيعياً، حتمته طبيعة الإسلام المرنة وطبيعة الفكر وطبيعة الواقع، وهو تطور شكّل استمراراً وإضافة ولم يكن قطعة فصلت بين مرحلتين فصلاً حقيقياً، لأن هذه المراحل الزمانية - كما أشرنا من قبل؟ أشبه بالمياه الإقليمية التي لا تكون حدودها إلاً حدوداً افتراضية، لا يمكن أن تحدث فصلاً تاماً أو تمنع الاختلاط حقيقة!

فمن أين إذن تسرب الوهم إلى الفكر السلفي حتى تصوّر رعاته تلك القطيعة وبنوا عليها أحكاماً خطيرة في الواقع، جعلت خطابهم يُكرّس الإقصاء عبر مقولات التكفير والتبديع والتفسيق، بدعوى انحراف الخلف عن منهج السلف؟ أن هذا الوهم في تصوري نشأ من أمرين:

(الأول) عدم وضوح مفهوم المنهج من حيث كونه أمراً يكتشف أم يُخترع.
(الثاني) ما سبق أن ألمحنا إليه من قبل وهو الخلط بين الدعوة لاتباع المنهج الذي سار عليه السلف وبين اتباع نتائج تطبيق أولئك السلف للمنهج. وهذان أمران سنقف معهما بشيء من التفصيل فيما يأتي.

المنهج بين الاكتشاف والاختراع :

إذن كان المنهج هو الطريق التي تضمن للباحث أن يصل إلى الحق الذي يبتغيه ولا يضل في السعي إليه بين السبل المتشعبة، ولا يلتبس الباطل عليه بالحق، فيركن إليه ظاناً أنه الحق الذي يبحث عنه أو يسعى إليه. (10)

10 - د/ محمد سعيد رمضان البوطي: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، ص 60.

إذا كان هذا هو تعريف المنهج عند الباحثين، فلنا أن نسأل: هل هذا المنهج أمر يكتشفه الباحث اكتشافاً أثناء ممارسته لعملية البحث، أم أنه شيء يبدعه هذا الباحث أولاً، ثم يُسلّطه بعد ذلك على موضوع البحث؟

إنّ لهذا السؤال أهميته من حيث أن الإجابة عنه تشكل حجر الأساس في التعامل السليم مع التراث عموماً، ومع الجانب التشريعي منه على وجه الخصوص. يقول الدكتور البوطي: «إن من طبيعة المنهج، أيا كان، أن يُكتشف اكتشافاً ولا يبدعه الباحثون والعلماء إبداعاً... أي أنه حقيقة ثابتة تركز إليها العقول وتتعامل معها الفطرة الإنسانية، دونما حاجة إلى إخضاع العقول للركون إليها، ودون أي حاجة إلى تربية النفوس على الاستئناس أو الأخذ بها كل ما في الأمر أن كثيراً من الحقائق التي تتفاعل معها العقول وتركن إليها النفوس، تكون خفية عن ساحة المشاعر الإنسانية البارزة، بل ربما تكون مختبئة في أغوار الفطرة وكوامن الطبيعة، على الرغم من تعامل الإنسان معها على السجية وبسائق من الفطرة، كلما اقتضت الظروف ذلك، ومن شأن ذلك أن يفتح السبيل إلى عوامل اللبس والخداع لصد الإنسان عن التعامل السليم معها، بل عن الاهتداء إليها والأخذ بها في كثير من الأحيان» (11)

إن هذه الملاحظة الدقيقة حول هذا الجانب من حقيقة المنهج، أشار إليها الإمام الرازي وهو يحدثنا عن الإمام الشافعي - رحمه الله - ويقارن عمله بعمل (أرسطو) وعمل (الخليل بن أحمد). فالإمام الشافعي - وهو يدون قواعد أصول الفقه - لم يخترع جديداً، ولم يأت بشيء من عدم وإنما رصد عمل الفقهاء من قبله ثم كشف الأصول التي استندوا إليها ثم صاغ وقّعده، مثله في ذلك مثل أرسطو الذي صاغ

10 - المرجع السابق، ص 61.60.

وقعد (قواعد التفكير / المنطق) فقد كان الناس قبله يفكرون ويربطون المقدمات بنتائجها، ومثله في ذلك أيضا الخليل بن أحمد، فقد كان الشعراء قبل اكتشافه للعروض وتدوينه وتلقيه له، ينظمون القصائد دون إخلال بالأوزان.

يقول الإمام الرازي : « واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسططاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض، وذلك أن الناس قبل أرسططاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة، فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما أفلح فلما رأى أرسططاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج لهم علم المنطق، ووضع للخلق بسببه قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة الحدود والبراهين.

وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخرج الخليل علم العروض، وكان قانوناً كلياً في مصالح الشعر ومفاسده.

فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن مالهم قانون كلي يرجعون إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها وترجيحها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع » (12).

إن الغفلة عن هذه المسألة ولدت لنا في الواقع الإسلامي اليوم خطابين يبدوان في الظاهر متناقضين - وهما كذلك - من حيث المنطلقات والوسائل والغايات - ولكنهما يلتقيان في التصور الخاطئ لمسألة المنهج الذي يعتمد في التعامل مع

12 - مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ط 3، د. ت.

الكتاب والسنة، أعني الخطابين: الخطاب الحدائي الذي يدعونا إلى (اختراع) مناهج جديدة غير التي اعتمدها السلف كي نقرأ القرآن قراءة معاصرة والخطاب السلفي الذي يدعونا إلى العودة إلى المنهج الأصيل الذي (اخترعه) السلف وأن نلقي جانباً ما ابتدعه الخلف من مناهج!

إنهما دعوتان متناقضتان، لكن عند التأمل تصدران عن التصور الخاطيء ذاته، وهو أن المنهج شيء يخترعه الباحث اختراعاً ثم يسلطه لاحقاً على موضوع البحث.

ولما كان حديثنا هنا يتناول أساسا الخطاب السلفي فإننا نضرب صفحاً عن الخطاب الحدائي الذي هو أيضاً يحتاج إلى وقفات مطولة تكشف مكان الخلل المنهجي لدى أصحابه.

وربطاً بما سبق نقول : إن دعاة السلفية توهموا أن السلف اخترعوا منهجاً سلطوه على النصوص فأنج لهم ما يجب على المسلمين الالتزام به إلى يوم الدين، ثم جاء الخلف من بعدهم فشوشوا على الأمة بما اخترعوه من مناهج متباينة جعلت النظرة السلفية الواحدة نظرات متعددة، بل جعلت الأمة الواحدة فرقاً وجماعات ومذاهب، اجتمع الناس حول رؤوسها، ففارقوا بذلك العصمة التي يدعو السلفيون إلى الاجتماع حولها... عصمة المنهج السلفي الأصيل!!

إن الإمام الرازي من خلال النص المذكور أعلاه، يبين بجلاء أن الناس قبل الإمام الشافعي كانوا يمارسون عملية التشريع لكن دون تطرق إلى تفعيد الأصول التي يعتمدونها، فمارستهم كانت أقرب إلى الفطرة أو السليقة، تماماً كان الناس قبل أرسطو يفكرون أن يكون مضطرين لتعلم المنطق، وكان الشعراء قبل الخليل ينظمون الشعر دون حاجة أو حتى دون انتباه لمسألة العروض والتغيرات التي تطرأ على الإنسان هي التي تدفعه إلى الانتقال من التعامل الفطري إلى تفعيد ذلك

المنهج المركوز في أعماق فكره وطوايا نفسه، لأن ذلك أقرب إلى السلامة من الخطأ والانحراف خصوصاً إذا تبدلت الظروف وتعددت الحياة وتباعد الزمن بين الجيل المؤسس والأجيال اللاحقة من بعد.

يقول الدكتور البوطي: « فالمنهج من خصائصه أن يكون له وجود ذاتي في طوايا الفكر الإنساني، ومعين الفطرة الإنسانية الأصلية، الشأن فيه كشأن الأصول البديهية والفطرية من المعارف الأساسية الأولى، التي تكون مغروسة في فكر الإنسان بيد الإله المنعم المتفضل، منذ نشأته الأولى، لتكون بمثابة البذور الأولى التي لا بد منها لعملية الغرس والاستنبات.

ولذلك فإنَّ ما يصح تسميته حقيقة بالمنهج، فيما نحن بصددده، ليس للفكر الإنساني في حياله إلاّ: الرصد ثم الاكتشاف ثم الصياغة والتفعيد، أما الإبداع والاختراع، فإنَّ المنهج أبعد ما يكون عن أن يأتي ثمرة لذلك، كيف ولو أمكن أن يوجد منهج المعرفة عن طريق الاختراع والإبداع، لاحتاجت عملية الاختراع بدورها إلى منهج يضبطه ويؤكد سلامته من الخطأ والوهم، وإذا اتجه الفكر إلى إبداع منهج لضبط هذا المنهج، فلسوف يضطره الأمر إلى إبداع منهج ثالث للمنهج الذي يليه، وهكذا تتسلسل الحاجة إلى المناهج الضعيفة التي يحتاج كل منها إلى منهج يضبطه ويعصمه عن الخطأ إلى ما لا نهاية، وقد علمنا أن تسلسل* العوامل والعلل الذاتية إلى ما نهاية باطل ومستحيل في ميزان القرارات العقلية البديهية» (13)

وبهذا تتلاشى المقولة التي توهم دعاة السلفية أنها هي الأساس الذي يميزهم

* التسلسل: هو ترتيب أمور غير متناهية، بحيث يتوقف وجود الأول على وجود الثاني والثاني على الثالث... وهكذا إلى ما لا نهاية وهي من الأمور التي يبطلها العقل.

أنظر: الجرحاني: كتاب التعريفات، تحقيق الأبياري، دار الكتاب العربي؛ بيروت، ط 4، 148 هـ/ 1998 م، ص 80.
13 - السلفية مرحلة زمنية مباركة، ص 61-62.

عن غيرهم من المسلمين، بل هي عندهم معيار الحق الذي يفصلهم عن باطل الآخرين، وهي مقولة المنهج الذي ابتكره السلف في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، ثم جاء الخلف ليبتكروا أو يبتدعوا منهجاً أو مناهج أخرى خالفوا بها المنهج السلفي الأصيل !

وهي مقولة أملاها التسرع في النظر إلى المسائل، والتعامل بصورة لا تاريخية مع الوقائع التي عرفها تاريخنا الثقافي والعلمي والحضاري بشكل عام.

فالمنهج الذي اكتشف أصوله السلف - رضوان الله عليهم - لم يكن سوى تلك القواعد التي ضبطها الإمام الشافعي - رحمه الله -، وهو من أعلام أئمة السلف، ثم تلقفتها من بعده الأجيال بالتهذيب والإضافة ومزيد الصقل والترتيب، شأنها في ذلك شأن كل المعارف التي تلقاها الخلف عن السلف، فلم تكن المسألة قط مسألة قطيعة أحدثها (ابتكار) جديد انفصل بالعقل المسلم عن الابتكار القديم، وإنما كانت نقلة أخرى أملتها - كما أسلفنا - عوامل موضوعية شتى، أبرزها انتقال المجتمع الإسلامي من طور البداوة إلى طور الحضارة، وتحول العلوم من التلقي الذي يعتمد (السليقة) إلى الكسب الذي يعتمد (الصناعة) ... وإنها لنقلة جبارة في ميزان التطور الثقافي لكل أمة، ولكنّها مع ذلك تبقى - بحسب ما يخبرنا التاريخ - تعبيراً عن قدرة العقل المسلم على مجابهة التغيرات والتحديات من خلال تطوير أدواته لا من خلال إحداث القطيعة التي تجعل فجوة بين السلف والخلف، كما نخبرنا القراءة السلفية لهذه المسيرة التاريخية .

وإنّ وقفة متأنية مع ما كتبه العلامة ابن خلدون، وهو يؤرخ للعلوم التي عرفتها الحضارة الإسلامية في (مقدمته)، تكشف دقة تصويره للحقيقة التاريخية، بما يجعلها منسجمة لا مع منطق الحدث / التاريخ فحسب، وإنما أيضاً مع ما تقتضيه

الموازين العقلية السليمة، وذلك عندما يتحرر العقل من قيود التعصب للخطأ أو الانبهار بالمقولات المتوارثة بفعل التقليد، والتي يرفعها المقلد إلى مرتبة المسلمات وهي ليست كذلك.

فهو - ابن خلدون - من خلال الفصل الذي عقده للحديث عن (أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات) يضع القارى أمام خط يمثل مسيرة التطور الذي عرفه هذا العلم، منذ أن كان في مرحلته (الجنينية) على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصولاً إلى لحظة الإمام الشافعي - رحمه الله - ثم المحطات الأخرى التي تلت تلك اللحظة، وكيف أن العلماء بعد ذلك تفننوا في صياغة تلك الأصول بين أخذ لطريقة الفقهاء وبين معتمد لطريقة المتكلمين... كل ذلك دون أن يخبرنا عن القطيعة المزعومة التي تروج لها الخطابات السلفية، فهو أعقل من أن يتصور المنهج بالصورة التي تجعل منه أمراً (يُخترع)، ومن ثمة يتصور أن يخترع الخلف منهجاً يُحدثون به القطيعة مع السلف وإنّا لنلمس هذا الإدراك الدقيق لمثل هذه المسائل من خلال الفقرة التي ساقها كخلاصة مركزة للحديث عن تاريخ (علم أصول الفقه)، فيقول - رحمه الله - « إعلم أن هذا الفن من الفنون المستحدثة في الملة، وكان السلف في غنية عنه بما أن استفادة المعاني من الألفاظ لا يُحتاج فيه إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية، وأما القوانين التي يحتاج إليها من استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم، فلما انقرض السلف وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة - كما قررنا من قبل - احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فناً قائماً برأسه سموه أصول الفقه، وكان أول من كتب فيه الإمام الشافعي - رضي الله تعالى عنه - أملى فيه رسالته المشهورة،

تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر * والنسخ والعلة المنصوصة من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً كذلك، إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمتن بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية، والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل على الفقه ويميلون إلى الاستدلال العقلي ما أمكن لأنه غالب فنونهم ومقتضى طريقهم » (14).

هكذا يصور لنا ابن خلدون تطور القواعد المنهجية والتي اصطلح على تسميتها أيضاً بـ (قواعد تفسير النصوص)، وهو تصوير - كما نرى - يرجح الانتقال السلس لمنهج الفقه بين حلقات وأدوار التشريع الإسلامي، على عكس ما يصوره الخطاب السلفي من قطيعة.

وليس من شأننا في هذا المقام أن نطيل الكلام عن (أصول الفقه) (15)، كعلم مثل منهجا متكاملا في التعامل مع النصوص، فإن هذا سيذهب بنا بعيداً عن الهدف المتوخى من هذه الدراسة، وإنما قصدنا من هذه الوقفة أن نبه إلى خطأ السلفيين في تصورهم للمنهج، بحيث جعلوه مما يقع تحت إمكانية الاختراع والابتكار. ويمكن أن نجمل ما ففصلناه سابقا في النقاط التالية:

* - من هذه المباحث ندرك لم كان الصحابة في غنية - كما يقول ابن خلدون - عن تقعيد أصول الفقه، إذ إدراكهم لأسرار اللغة العربية يسر لهم سبل فهم النصوص التي جاءت بلسان عربي مبين.

14 - المقدمة، ص 503-504.

15 - كما أن المقام هذا ليس للحديث عن جوانب القصور في ممارسة الأجيال اللاحقة، وعدم قدرتها - في بعض الأحيان - على تطوير تلك البذور التي كانت تنطوي عليها الممارسة السلفية في أجيالها التأسيسية، فالهدف هنا هو بيان أن المنهج الذي اعتمده الخلف إنما هو في جوهره استمرار لما ورثه عن السلف ولم يكن أمراً جديداً مبتدعاً، أما عن شروط الوفاء بتلك الوراثة والقدرة على التطوير المبدع للبذور المستبطنة في الأصول السلفية، فإن لها دراسات نقدية أخرى أوفى وأعمق، ويمكن الرجوع في ذلك إلى :

- د / عبد الحميد أحمد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم؛ دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 2، 1413هـ - 1992م، ص 95.66.

1 - أن المنهج الذي تعامل به الصحابة أساساً ثم من تلاهم من أجيال السلف، كان يعتمد على قواعد لغوية تساعد على معرفة ما تتضمنه النصوص من المعاني والدلالات، وقد كان الصحابة والأجيال القريبة منهم في غنى عن (تقعيدها) لما امتازوا به - كما قال ابن خلدون - من ملكة لسانية، وهذه الملكة عندما تطرق إليها الفساد، بمرور الأجيال واختلاط العرب بغيرهم، دعت الحاجة إلى وضع القواعد المساعدة على الفهم وكشف الدلالات والمعاني.

2 - أن قرب الصحابة - رضي الله عنهم - من عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعلهم أعرف بما يصح نسبته إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من أقوال، فلم تكن بهم حاجة لمعرفة الأسانيد والتعمق في البحث عن أحوال الرواة، بعكس ما حدث للأجيال التي تلتهم.

3 - أن الأجيال التي تلت جيل السلف - أو في الحقيقة الطبقة الأولى من جيل السلف - اضطرتها الظروف لصياغة ما كان (فطرياً) ضمن (قواعد) مكتوبة، ثم ما فتئت الأجيال بعد ذلك تضيف إليها، حتى تكامل (علم أصول الفقه)، فكان للفقهاء والمجتهدين في عملية الاستنباط، مثل المنطق للمفكرين والعروض للشعراء - كما بين الرازي في النص الذي نقلناه سلفاً -

4 - أن السلف والخلف كلاهما استعمل المنهج ذاته في عملية فهم النصوص وتفسيرها، بيد أن الواقع ألقى بظلاله على تلك الممارسة التشريعية، لا من حيث أن الفقيه طَوَّع النص لمشكلات الواقع، ولكن من حيث أن تعقد تلك المشكلات ألجأت الفقيه إلى تطوير أدواته المنهجية في فهم النص ومحاولة تنزيله تنزيلاً صحيحاً على الواقع (16).

أ. عبد الوهاب بوخلخال

16 - لبيان علاقة الواقع بالفعل الاجتهادي أنظر :

د / عبد المجيد النجار: في فقه التدين فهمًا وتنزيلًا، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، ط 1، د ت، ج 2،

**دور الطلبة الجزائريين
في الثورة التحريرية المسلحة
(1954 - 1962)**

الأستاذ : فريح لخميسي

مقدمة

إن أي حركة تغيير لا تأتي من فراغ، ولا من محض الصدقة، وإنما تحدث عندما تتضح الفكرة وتتجلى بوضوح، فيعمل بها العاملون بإخلاص، فتحقق بذلك حركة التغيير المقصودة.

وإن أول من يختمر عندهم الإيمان بحتمية التغيير هم المفكرون والعلماء، وطلبة العلم والداركون لتوقيت بلوغ هدف الفكرة المراد تحقيقها، فيتسابقون لتبنيها، ويستमितون لنصرتها والدفاع عنها حتى تصير واقعا يعيشون في كنفه.

فالرسول الكريم ﷺ أول ما فكر فيه وقرره - وهو الذي يوحى إليه - بعد وصوله إلى المدينة المنورة مهاجرا، قام ببناء مسجد يكون جامعة يخرج منها من يفتحون القلوب قبل الأمصار ويحملون حركة التغيير إلى العالم، ويبلغون رسالة ربهم إلى الناس أجمعين محتواها في ذلك « إن الدين عند الله الإسلام ».

وعندما نأخذ النماذج، ونضرب الأمثال حول دور المثقفين في حركة التغيير تبدو لنا صورة صيحات مارتن لوتر، وزونجلي، وكالفن من جامعات أوروبا في عصر النهضة ماثلة تدعو للثورة ضد فساد الكنيسة، وداعية إلى المطالبة بإصلاحها، وبتلك الصيحات التي انطلقت من أسوار الجامعات، أخرجت أوروبا من ظلمتها إلى التنوير فالثورة الصناعية، إلى حالها اليوم من تطور ورخاء.

وصيحات المثقفين الجزائريين ومنهم طلاب العلم في الكفاح الوطني. طوال فترة الحكم الاستعماري التي دامت قرناً و ثلاثين عاما لم تعرف الفتور والانقطاع

فحمدان بن عثمان خوجة وبوضربة والأمير عبد القادر، والشيخ بوزيان، والشيخ الصادق الرحماني والحاج عمر الرحماني والشيخ محمد بن عبد الله، والشيخ الحداد والشيخ عزيز الحداد، والشيخ عمر بوعرعور ومحمد بوختاش البراكتي وغيرهم، في القرن التاسع عشر.

أما في القرن العشرين فقد نما قطاع طلبة العلم والمثقفين، وكثر عددهم وتضاعف وتنوعت ثقافته وأيديولوجيته واتجاهاته تبعا لاختلاف نوع اللغة والثقافة التي تعلمها فظهرت ثلاث فئات أو كتل ثقافية هي:

1 - فئة المثقفين ثقافة عربية إسلامية محضة، محافظة وسلفية وتقليدية كذلك ومن أهم أهدافها المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للجزائر وشعبها ومقاومة الاستعمار بمختلف الوسائل.

2 - فئة المثقفين ثقافة فرنسية محضة، ومن سماتها التنكر دائما للثقافة الوطنية العربية الإسلامية واتهامها بالركود والخمول وتحميلها، ظلما وعدوانا، أسباب تخلف المجتمع الجزائري وتدهور أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية.

3 - فئة المثقفين ثقافة مزدوجة فرنسية وعربية إسلامية ومن سماتها التمسك بالأصالة الوطنية الجزائرية من جهة والاستفادة من الثقافة الغربية المتطورة من جهة أخرى ومن بين إيجابيات هذه الفئة أنها حاولت أن تقرب الشقة بين الفئتين السابقتين لها وتكون هي همزة وصل بينهما وتذيب تلك الفوارق والتناقضات بينهما وأن تزيد الثقة بين الفئتين السابقتين. ومن رواد الطلبة والمثقفين في القرن العشرين على سبيل الذكر لا الحصر باختلاف ثقافتهم واتجاهاتهم وأهدافهم وأساليبهم «الشيخ حمدان لونيسي والشيخ المولود بن الموهوب والشيخ عبد الحميد بن سماية والشيخ الطيب العقبي، الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك المليي والأمين العمودي والعربي فخار وعمر راسم وأبو القاسم الحفناوي والأمير

خالد وعبد القادر المجاوي وفرحات عباس وأحمد فرنسيس والدكتور سعدان وعمر بن قدور والدكتور تامزالي وعلي بومنجل وأحمد بومنجل والدكتور بن جلول... وغيرهم.

ورغم خرافة التفوق العرقي للعنصر الفرنسي التي عملت الإدارة الفرنسية على غرسها وتعميقها في هذه البلاد، فإن الطالب الجزائري أثبت جدارته وكفاءته وأظهر شخصيته وأبرزها، بعد الحرب العالمية الأولى وأنشأ ودادية الطلبة الجزائريين عام 1920 التي ترأسها فيما بعد الطالب والصيدلي فرحات عباس عام 1926، وتحولت فيما بعد إلى جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين وشارك بعض أعضائها في تكوين جمعية طلبة شمال إفريقيا بباريس.

وقد لعب الطلبة الجزائريين دورا بارزا في إطار جمعية شمال إفريقيا خاصة خلال مؤتمراتها الدورية والسنوية، وكانت لا تقبل الطلبة المتجنسين أعضاء فيها، ففيما بين 20 و22 أبريل 1931 عقدت هذه الجمعية مؤتمرها الأول بالمدرسة الخلدونية في تونس وشارك فيها وفد طلابي جزائري هام من سبعة أشخاص برئاسة الصيدلي فرحات عباس وفيما بين 25-29 أوت 1932 عقدت مؤتمرها الثاني بنادي الترقى في الجزائر العاصمة وترأس اللجنة التحضيرية الطالب الجزائري (قدور ساطور)، وترأس المؤتمر فرحات عباس، وخطب فيه الشيخ الطيب العقبي، وتوفيق المدني واستقبل أعضاؤه في قسنطينة من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس، وفي شهر أكتوبر 1934 انعقد المؤتمر الرابع بها في المدرسة الخلدونية بتونس برئاسة المنجي سليم، وشارك فيه عن الجزائر السعيد الزاهري، ومفدي زكرياء، وغيرهما.

وفيما بين 6 و15 سبتمبر 1935 انعقد المؤتمر الخامس بمدينة تلمسان وافتتحه الشيخ البشير الإبراهيمي، وانعقد المؤتمر السادس في تيطوان بالمغرب وذلك عام 1936. وناقشت كل هذه المؤتمرات قضايا التعليم ومشاكلها المختلفة، وقضايا التاريخ

الوطني، والتربية الوطنية والمرأة، ودافعت بصورة خاصة عن الشخصية العربية الإسلامية للجزائر التي مسخها الاستعمار الفرنسي وعمل على طمسها، وتشجيع الطلبة الجزائريين بدعم إخوانهم التونسيين والمغاربة فطالبوا بتحسين أحوال التعليم، وفرض اللغة والأدب العربية الإسلامية في المدارس بكل مراحل التعليم، وطالبوا برفع الضيم المسلط على شعبهم.

وابتداء من هذا التاريخ بدأ قطاع الطلبة الجزائريين ينمو ويتطور بكل تيارات وأيديولوجياته واتجاهاته المختلفة، والمتنوعة، سواء في المدرسة الفرنسية أو المدرسة العربية المتمثلة في المسجد والزاوية والكتاب، ولم يحل عام 1954 حتى كان هذا القطاع من الطلاب يمثل جيلا كبيرا في العدد والعدة الثقافية وشارك في الكفاح السياسي والمسلح كغيره من باقي الفئات.

1- لمحة عن وضع التعليم في الجزائر عشية اندلاع الثورة التحريرية :

كان الجزائريون يزاولون التعليم كالتالي :

1) كانوا يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم في الزوايا والمساجد والكتاتيب بالأرياف والمدن والقرى وعدد الذين كانوا يزاولون التعليم بهذه الصفة غير معروف بالتحديد وإن كان يقدره بعض المؤرخين بـ : 510 الاف طفل .

2) التعليم في المدارس الأهلية الخاصة بالجزائريين ثم في المدارس العامة بعد دمج التعليمين ابتداء من من قانون سبتمبر 1947 وعدد الذين كانوا يزاولون التعليم يصل إلى حوالي 100 تلميذ وقد ارتفع هذا العدد ليصل قبل اندلاع الثورة إلى حوالي 200 ألف . أما عدد الطلبة الثانويين ضد هذا العدد فكان حوالي 07 الاف .

3) تلميذ التعليم الحر، وهنا نجد أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي الرائدة في هذا الميدان منذ نشأتها في (05 ماي 1931) بحيث أسست أزيد من 140 مدرسة وتمدرس بها حوالي 50 ألف طالب كما كان لحزب الشعب 17 مدرسة وللميزابين 07 مدارس في وادي ميزاب و10 في المناطق الأخرى، كما كانت بالعاصمة مدرسة الشبيبة الجزائرية ومدرسة السلام وقد تعلم في كل من هذه المدارس ما يزيد عن 08 الاف تلميذ.

4) التعليم خارج الوطن: كانت قبلة الدارسين باللغة العربية هي تونس حيث يوجد بها جامع الزيتونة بالنسبة لسكان شرق البلاد غالبا وجامع القرويين بالمغرب بالنسبة لسكان غرب البلاد، كان عددهم في الأول حوالي 300 طالب وفي الثانية حوالي 100 طالب. ابتداء من العام الدراسي 1951 / 1952 بدأت جمعية العلماء المسلمين إرسال بعثات للبلاد العربية فأرسلت 25 طالبا لمصر و11 طالبا للعراق و10 طلاب لسوريا و14 طالباً إلى الكويت وتوالت البعثات لهذه البلدان، وللسعودية والأردن فيما بعد حتى بلغ عددهم عام (1955) 109 طالبا.

5) أما بالنسبة للدارسين بالفرنسية فكانت وجهتهم فرنسا بعد جامعة الجزائر حيث بلغ عددهم في العام الدراسي (1954 / 1955) 684 طالبا في جامعة الجزائر و1400 في فرنسا.

هذا هو الوضع العام بالتقريب عن الحال الذي كان عليه التعليم ببلادنا عشية اندلاع الثورة المسلحة.

2 - تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

قبل الثورة المسلحة لم يكن للطلبة الجزائريين منظمة خاصة بهم، تحمل همومهم واهتماماتهم أو على الأقل تدافع عن حقوقهم كطلبة، كون السلطات الاستعمارية

لم تسمح لهم بممارسة ذلك. بينما استطاع الطلبة الجزائريون في تونس سنة 1946 تكوين جمعية خاصة بهم كان مؤسسها هو الطالب «أحمد بورنان» وعدد من رفاقه، والتي أعيد تشكيلها سنة 1951، ولم تلبث هذه الجمعية حتى ظهر الخلاف والانقسام بين أعضائها، فانقسموا إلى قسمين قسم بقي في الجمعية الأصل وهم المنتمون إلى حزب الشعب وقسم كون جمعية «البعثة من طرف المنتمين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين».

أما في فرنسا فكانت بها «جمعية المسلمين لشمال إفريقيا» والتي مقرها بباريس، وقد أسست سنة 1939 وكانت تشمل طلبة أقطار المغرب العربي الثلاث (الجزائر، تونس، المغرب) وكان لهذه الجمعية أعضاء تابعون لها بجامعة الجزائر.

وفي هذه الفترة أخذ الطلبة الجزائريون، أو غيرهم من غير الجزائريين يؤسسون تقريبا في كل جامعة من الجامعات الفرنسية جمعية تابعة «لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا» فتعتبر فرعا لها، أو جمعيات خاصة بهم مستقلة عن الجمعية الأخيرة، وكثيرا ما كانت هذه الجمعيات الطلابية التي تؤسس بعيدا عن باريس، تتصرف في شؤونها بكل حرية وتعتمد على نفسها في حل مشاكلها، دون الرجوع إلى أي كان أو حتى للجمعية الأم.

وفي سنوات الخمسينيات من القرن الماضي سعى الطلاب المغاربة (الجزائريون، التونسيون، والمغاربة) لإيجاد الإطار الوحدوي لعملهم السياسي والاجتماعي، وذلك بتأسيس منظمة طلابية مغربية واحدة، تجمع شمل طلاب أقطار المغرب : الجزائر، تونس، المغرب ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل في سنة 1953، بسبب ابتعاد التونسيين عن المجموعة وتأسيس جمعية خاصة بهم، أطلقوا عليها اسم «الاتحاد العام للطلاب المسلمين التونسيين». ومن هنا انبثقت لدى الطلاب الجزائريين فكرة تأسيس منظماتهم الخاصة بهم، بحيث ظهرت إلى الوجود بعد سنة

واحدة من هذا التاريخ الأخير، منظمة طلابية عرفت باسم «اتحاد الطلاب الجزائريين لباريس (U.E.A.P) أو «اتحاد الطلبة الجزائريين لمدينة باريس» وقد أشرف على تأسيس هذه المنظمة وسيرها الحزب الشيوعي الفرنسي. ولكن بعد فترة قصيرة مضت على تأسيس هذه الجمعية الأخيرة اتضح للطلاب الجزائريين أنها ليست الإطار الملائم لنشاطهم السياسي والاجتماعي. زيادة على التطورات السريعة التي عرفت الثورة الجزائرية في عامها الثاني، الشيء الذي فرض على الطلاب الجزائريين تأسيس منظمة طلابية تختلف شكلا ومضمونا في اتجاهاتها ومواقفها الخاصة والعامة عن سابقتها.

أ- المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين:

ومن هذا المنطلق، ومبادرة من «جمعية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا» وأعضائها المقيمين في الجزائر، وبوحي من جبهة التحرير الوطني، التي كان من أهدافها تنظيم كل الفئات الاجتماعية وتجنيد لها للكفاح المسلح، وبعث منظمات وطنية جماهيرية تستقطب كل القوات الحية في البلاد، وتهيئها للكفاح المسلح التحريري، وتفصلها عن الهياكل التنظيمية للإدارة الفرنسية الاستعمارية التي كانت ترفض كذلك أن تعترف بشرعية الثورة المسلحة الجزائرية. عقد اجتماع تحضيرى في باريس بين الرابع والسابع من شهر أفريل سنة 1955م، للنظر في كيفية إنشاء منظمة طلابية جزائرية، وقد ضم هذا الاجتماع ممثلين جزائريين عن كل الجامعات في فرنسا، وانتهى المجتمعون إلى تأسيس منظمة نقابية مستقلة لهم سموها «الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين» والتي اشتهرت باسمها المختصر - أوجيما (UGEMA) وذلك رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها الطلبة الشيوعيون في باريس وتولوز، الذين رفضوا بالأخص أن يشمل المنظمة هذه كلمة «مسلمون»،

ولم يكن تأسيس المنظمة في حد ذاته هو الذي أقلقهم، وإنما الشيء الذي أقلقهم أكثر هو إدراج كلمة «مسلمين» في تسمية المنظمة. ولكن ذلك لم يؤثر بأي شكل من الأشكال على المنظمة الجديدة، التي أصرت على التمييز بينها وبين المنظمات الأخرى الطلابية التي كانت تعمل في الجزائر أو في فرنسا، بإدخال كلمة «مسلمين» في تسميتها، ومن جهة أخرى فهذا النعت «المسلمين» بالنسبة إليها، هو ذو دلالات عدة وبنية حضارية وثقافية وسياسية.

بعد الانتصار المؤقت الذي أحرزه أنصار حرف (M) على إخوانهم الرافضين له، شرع التنظيم الجديد في التحضير لمؤتمره التأسيسي حتى يكتسب الصبغة الشرعية، وقد تم التحضير لهذا المؤتمر من لجنة دائمة، وانعقد المؤتمر بباريس في ما بين 8 و14 جويلية من عام 1955 بقاعة التعااضدية (Mutualité) وذلك بحضور شخصيات ثقافية وسياسية مرموقة، وممثلين عن الاتحادات الطلابية بما فيها الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين (UNEF) ممثلا في شخص نائب رئيسه روبر شابوي (Rober chapuis). وفي هذه المناسبة التاريخية قدم الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (UGEMA) برنامجا في الخطاب الافتتاحي الذي تلى من طرف أحمد طالب الإبراهيمي حيث استعرض أمام الحضور الخطوط الرئيسية لبرنامج الاتحاد حاضرا ومستقبلاً، وتمت المصادقة على البرنامج من طرف المؤتمرين، كما تمت تزكية قارئى هذا البرنامج ليتولى رئاسة الاتحاد في مسيرته القادمة التي تنتظره.

وتحور البرنامج حول ثلاثة نقاط رئيسية هي :

أولاً: جمع شمل الطلاب الجزائريين، وتوحيد صفوفهم، وذلك باستيعاب أكبر عدد ممكن منهم.

ثانياً: العمل على إعطاء اللغة العربية مكانتها، ووضعها في إطارها الطبيعي،

الذي أبعدت عنه منذ سقوط البلاد في براثن الاحتلال الفرنسي، باعتبار أن هذه اللغة هي المحرك الأساسي للثقافة الجزائرية.

ثالثا: مشاركة الاتحاد في الحياة السياسية للبلاد، مشاركة فعالة « فلا يمكنه بأي حال من الأحوال التزام الحياد، أو البقاء على هامش ما يجري من أحداث في الوطن ».

وفي ما يخص هذه النقطة الأخيرة المتمثلة في المشاركة في الحياة السياسية للبلاد، يبدو أن ذلك للتمويه على الدور الحقيقي للاتحاد فقط وقد جاء في خطاب أحمد طالب، على وجه الخصوص مايلي:

- « أيها الطلبة، علينا أن نكافح في سبيل تعبئة الطلاب الجزائريين مكافحة كبيرة - لتذليل الصعوبات التي تعترض طريقنا... »

- « أيها الطلاب المسلمون، إننا نتألم من أعماق أرواحنا، ونحن نشاهد «اضطهاد الاستعمار» للغتنا واعتبارها كلغة أجنبية في بلادنا، وهي المحرك الأساسي لحضارتنا، ومن ثم لن يهدأ لنا بال إلا عندما تسترجع مكانتها اللائقة بها شرعا وقانونا ».

- « علينا نحن المحظوظون بين شبابنا أن نكافح كفاحا مستمرا لضمان التعليم لكل طفل جزائري، وصل سن الدراسة... سننتزع لأطفالنا التعليم والتربية التي هي حق من حقوقهم المشروعة ». والملاحظ من هنا أن اتحاد الطلاب الجزائريين لم يفصل بين مشاكله ومشاكل شعبه، ومن ثم لم تكن لديه « قضية خاصة » وأخرى « عامة » إنما المشكلة بالنسبة إليه كانت مشكلة الشعب الجزائري وككل، حسب ما كان يعيشها ويتخبط في تطوراتها التي لم تكن يوما في صالحه.

- وهكذا تم الإعلام الرسمي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وصار له مكاتب فرعية في كل الجامعات التي يدرس بها جزائريون، وللاتحاد مكتب إداري مكون من سبعة عشر عضوا (17) وهو السلطة العليا بعد المؤتمر ومكتب تنفيذي

مكون من خمسة أعضاء (5) ولجنة مالية مكلفة بمراقبة أموال الاتحاد. كما اختيرت باريس مقر للجان ولانعقاد المؤتمر وقتيا نظرا لقانون حالة الطوارئ السائدة آنذاك عبر التراب الوطني.

تحت ظل جبهة التحرير الوطني، عمل الاتحاد في إطار ثوري بحت، وتنسيق تام مع الجبهة، ولئن كان الاتحاد من الناحية التكتيكية، قد أعلن بواسطة لسان رئيسه الأول أحمد طالب الإبراهيمي، منذ تأسيسه أنه سيعمل على أن يكون «حلقة وصل» بين الثقافتين العربية والفرنسية، فإن التطورات السريعة التي شاهدها الحرب التحريرية الوطنية، وبأس الاتحاد من السياسة الاستعمارية الفرنسية، ومن مواقفها السلبية الثابتة من القضية الجزائرية، جعلته يحدد مواقفه من فرنسا الاستعمارية وبيتعد عنها نهائيا ليصبح «وحدة قتالية» من وحدات جيش التحرير الوطني.

وإذا كان الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، في أول أمره قد شرع في نشاطه السياسي منددا بالمظالم الفرنسية في الجزائر، موجها نداءاته العديدة إلى الرأي العام الفرنسي، فإن الفضائح والمذابح التي ارتكبتها الفرنسيون في الجزائر كرد فعل عنيف على أحداث 20 أوت 1955 بالشمال القسنطيني، الذي أخذ شكل إبادة جماعية للأبرياء، والتدمير الشامل للقرى والمداشر، جعل الطلبة الجزائريين يرفعون لائحة تنديد شديدة اللهجة للسلطات الفرنسية الرسمية محذرين إياها من مغبة التماذي في سفك دماء الأبرياء والقمع الوحشي، ولم يستفك الاتحاد العام للطلبة للمسلمين الجزائريين من هذه الصدمة حتى وجد المتابعة والاعتقالات تمس عناصره، فتم إيقاف بعض الأعضاء من طرف البوليس الفرنسي بحجة التآمر على السياسة الفرنسية والتحريض على التمرد والعصيان، والتشجيع على حمل

السلاح، فكان ضحية هذه التوقيفات مثلا الطالب الجزائري محمد رشيد عمارة، الذي أُلقت عليه الشرطة الفرنسية القبض في 07 ديسمبر 1955، بحجة أنه يوزع منشائر تحريضية تهدد بالموت الجزائريين الذين تحدثهم أنفسهم بالمشاركة في الانتخابات التشريعية، التي ستقام في الثاني من شهر جانفي 1956، بالإضافة إلى هذا التوقيف فقد تم العثور على جثة الطالب بلقاسم زدور بالقرب من الجزائر، والذي سبق أن تم إعتقاله من طرف البوليس الفرنسي بوهراڤ في 06 نوفمبر 1955. وعلى إثر هاذين الإعتقالين اللذين وقعا في وقت واحد تقريبا على الطالبين محمد رشيد عمارة في الجزائر العاصمة وبلقاسم زدور في وهران أصدر الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بتاريخ: 15 / 12 / 1955 منشورا، وقد وزع على وسائل الإعلام، وفيه يندد الاتحاد بأعمال القمع التي تمارسها السلطات الاستعمارية ويطالب المصالح الفرنسية المعنية باحترام الإجراءات القانونية الخاصة فيما يتعلق بمدة الحبس الاحتياطي الذي لا ينبغي أن تفوق ثمان وأربعين ساعة في محلات السلطات الإستعمارية ويندد بعمليات التعذيب الجسماني التي يتعرض لها السجناء الجزائريون.

وكان المنشور كافيا ليثير رد فعل الغلاة من قادة الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين وفي مقدمتهم السيد (جاك لاڤورت) الذي صرح بأن موقف الهيئة القيادية للطلبة المسلمين الجزائريين يعتبر فعلا سياسيا ومن ثمة فهو عبارة عن ممارسة غير شرعية ومبادرة من شأنها تشجيع الخارجين عن القانون والمعتدين على العدالة الفرنسية.

وبعد الانتخابات التأسيسية للاتحاد، التي جرت يوم 02 جانفي 1956، جدد هذا الأخير نداءاته لفرنسا وحكومتها من أجل إيقاف سفك الدماء في الجزائر منددا

بشدة الاعتقالات اليومية التي تعرض لها الطلاب بدون سبب، كما استنكر الاتحاد في ذاته هذا التعذيب الوحشي الذي كان يسلط على المعتقلين والمساجين الجزائريين من طرف الفرنسيين، لكن بدون جدوى.

وهو ما جعل الاتحاد في 20 جانفي من نفس السنة المذكورة أن يعلن عن نصف شهر تضامني مع الطلاب المعتقلين واقفا ضد سياسة العنف التي تنتهجها فرنسا في الجزائر، وذلك بالإضراب عن الطعام والدروس لمدة يوم واحد (20 - 01 - 1956) وهو اليوم الذي حدث فيه اصطدامات عنيفة بين الشرطة الفرنسية والطلاب الجزائريين، ليس في الجزائر فحسب، ولكن أيضا في فرنسا ذاتها. وما زاد الأوضاع خطورة في هذا البلد الأخير هو التدخل العنيف الذي قامت به منظمة الطلاب الفرنسيين «الاتحاد الوطني للطلاب الفرنسيين» ضد مظاهرات الطلاب الجزائريين. أما في الجزائر العاصمة وفي نفس اليوم المذكور سابقا فقد صادق الطلاب الجزائريون في اجتماع لهم على لائحة سياسية تضمنت على وجه الخصوص جانبين:

1 - الجانب الطلابي:

- إطلاق سراح الطلبة المعتقلين فورا، وبدون أجل.
- التحقيق بصفة جدية في وفاة الطالب الجزائري زدور، ومعاقبة مرتكبي هذه الجريمة.

2 - الجانب الوطني :

- وضع حد نهائي للتنكيل بالجزائريين واضطهادهم من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر.

- الاعتراف بالقومية الجزائرية، وبحق الشعب الجزائري في الحرية وتقرير مصيره

بيده.

- الشروع الفوري في المفاوضات - لإيجاد الحلول المناسبة للقضية الجزائرية - مع

الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري.

هذا تقريرا محتوى النداء الصارم الذي وجهه الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين للسلطات الاستعمارية، لكن رد هذه الأخيرة كان كما هو متوقع، حيث كان أعنف بل شمل حتى الطلبة المغاربة، وبالإضافة إلى انحياز الطلبة الفرنسيين إلى جانب مواقف بلدهم مما كان سببا في توسيع شقة القطيعة بين الطلبة الجزائريين والفرنسيين أي باختصار، كل انحاز إلى مواقفه الطبيعية.

لكن موقف الطلبة الفرنسيين من الاتحاد العام للطلبة الجزائريين المسلمين لم يقف عند هذا الحد، بل وصل انحيازهم إلى متابعة بعض المثقفين الفرنسيين من ذوي الرأي الحر، ونذكر على سبيل المثال الأستاذ الفرنسي مندوز (man douze) المعروف بتعاطفه مع جبهة التحرير وذلك منذ أن نشر في (maghrébines consciences) مجموعة من مقالاته التي تحتوي على تصريحات لعبان رمضان موجهة إلى بيير مانديس فرانس (Pierre mends France) ثم إقدام هذا الأستاذ على توجيه النسخة باسم المقاومة الجزائرية إلى الشعب الفرنسي علنا في 28 جانفي 1956، وذلك من فوق منصة قاعة والتعاضدية (mutualité) بباريس، وبعد شهر عاد الأستاذ المذكور لمواصلة التدريس بجامعة الجزائر لكنه فوجيء بحضور «اللجنة التنفيذية الجامعية للدفاع عن الجزائر الفرنسية» (CAU) تبليغه بقرار عزله من كل الجامعات الفرنسية وذلك بسبب تعاطفه مع القضية الجزائرية. وكان تاريخ 06 مارس 1956 يوما مشهودا في حرم جامعة الجزائر حيث عاد الأستاذ إلى مدارج التدريس. فأسفر هذا الحدث عن مشادات شرسة بين الطلبة الفرنسيين وأعضاء

الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذين تكفلوا بحماية الأستاذ الفرنسي المستهدف، وتمادى موقف الطلبة الفرنسيين إلى أن أنهى بإجلاء هذا الأستاذ ومغادرته الجزائر إلى جهة غير معلومة.

ومن جهة أخرى إزداد موقف الطلبة الفرنسيين التي أشرنا إليها سابقا (L'U.N.E.F) تصلبا إزاء الطلبة الجزائريين، واهتمت منظماتهم «بالتهديد والإكراه الذين تمارسهما على الطلاب لجلبهم إلى صفوفها» و عن هذا يجيب أحمد طالب: « وإذا كان هناك إكراه أو ضغط يمارس على الطلاب المسلمين الجزائريين ، فهو ضغط ضميرهم عليهم، الذي أبى أن يقف وقفة المتفرج على آلام شعبه، بل أملى عليهم التضامن مع آماله وأمانيه والمساهمة في كفاحه المشروع وللمرة الأخيرة ونؤكد على أمر هام وهو : إذا كانت كلمة «العصاة» أو «الخارجون عن القانون» تعني بها أناساً يطالبون بحقوقهم في الحرية، الذين يكافحون من أجل كرامتهم وحقوقهم في العيش، فالمسلمون الجزائريون بما فيهم إخوانهم الطلاب، كلهم «عصاة» أو «خارجون عن القانون».

ومن هذا نلمس المواقف الإيجابية التي اتخذها الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من الثورة الجزائرية والدور الذي أداه الطلبة في التعبئة الوطنية بصفة عامة، وبين الأوساط بصفة خاصة.

ب - انعقاد المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين:

وبعد تسعة أشهر من إنشاء وبعث الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين عقد الطلبة الجزائريون مؤتمرهم الثاني في الفترة الممتدة ما بين 24 و30 مارس 1956 في مدينة باريس بفرنسا رغم الإرهاب والملاحقات التي كانوا يتعرضون لها. فقد حضره، حسب الجريدة الفرنسية لوماندا، أكثر من 60 ممثلا عن الطلاب الجزائريين

الذين قدرت أعدادهم بأكثر من ألف طالب، أي حوالي 40 ٪ من المجموع الكلي للطلاب الجزائريين. وصادق المجتمعون على لائحة سياسية دارت محاورها الرئيسية حول ثلاث نقاط هامة جدا تضمنت المطالب التالية:

- إعلان استقلال الجزائر.

- إطلاق سراح جميع المعتقلين والمسجونين الوطنيين.

- الشروع في المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني.

وقد ترأس هذا المؤتمر وختمه السيد : « محمد خميسي » بكلمة جاء فيها على وجه الخصوص: « كيف نزاول دراستنا، ونحن في أرجلنا قيود العبودية؟ ... يطالب الطلاب المسلمون الجزائريون بحقهم في الحفاظ على شخصيتهم وأصالتهم، بدراسة وتعلم لغتهم وبالبحث عن جذورهم الثقافية، إن قضيتهم الأساسية، هي قضية الحرية والاستقلال اللذان يعتبران الركيزة الأساسية لكل ما يترتب عن ذلك».

وخلال هذا المؤتمر يتجلى بوضوح الموقف الثوري الحازم، تجاه الثورة التحريرية الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري، وطالبوا باستقلال الجزائر، ودعوا الحكومة الفرنسية إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني، رغم معارضتها لذلك، وهي حكومة اشتراكية بقيادة (قي موللي) الأمين العام للحزب الاشتراكي الفرنسي.

وقد اغتنمت السلطات الفرنسية فرصة إعلان نتائج هذا المؤتمر، ودعوته الصريحة، لاستقلال الجزائر، فقامت بإيقاف واعتقال عدد من الطلبة الجزائريين وتعذيبهم في باريس ومعظم المدن الفرنسية والجزائرية التي يوجدون فيها. وقاد (موسرون) أحداثا دموية عنصرية في مدينة مونبيلي ضد الطلبة الجزائريين، الذين

صمدوا، وصبروا، وتجلدوا، ولم يرهبهم ذلك ولم يثنهم عن نشاطهم الثوري، على حد ما جاء في جريدة المجاهد (لسان حال جبهة التحرير الوطني) العدد 74 (25 جويلية 1960 م). بل دفعهم إلى التفكير في الإقدام على خطوة أخرى أكثر جرأة ونجاعة بالنسبة للكفاح التحريري. وعزموا على إعلان الإضراب العام اللانهائي عن الدروس والامتحانات في الجامعات والمعاهد العالية الفرنسية بالجزائر وفرنسا والخروج من المجال الضيق إلى المجال الواسع في ميدان الكفاح المسلح الوطني الذي أصبح فرض عين على كل فرد، وليس فرض كفاية على جماعة معينة.

3- الإضراب العام اللانهائي عن الدروس والامتحانات 19 ماي 1956

يذكر المجاهد الطالب صالح بن القبي في مجلة الجامعة الصادرة بتاريخ 24 ماي 1986 حول شهادته عن الإضراب، وهو الذي كان عضوا في مكتب فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بجامعة الجزائر. حيث يقول: «وإذا كان هذا الإضراب العام اللانهائي قد تم الإعلان عنه من طرف طلبة جامعة الجزائر في اجتماع عام لهم فإن مبدأه كان قد تقرر منذ شهرين على الأقل من خلال مشاورات جرت بين ممثلي قيادة الثورة ومنهم عبان رمضان وبعض الطلبة ومنهم عمارة رشيد وبن يحيى ومن المؤكد أيضا أن السيد: بن خدة هو الآخر على علم بالوضع وكلف مكتب الاتحاد بمهمة اختيار موعد هذا الإضراب والأسباب المقنعة لتبريره.

أما من حيث الموعد فكان لزاما علينا أن يتم الإضراب قبل دخول الجامعيين في متاهات امتحانات آخر السنة وأما من حيث الأسباب فإن أجهزة القمع كانت توفر لنا العديد منها، وبالصدفة وقع اختيارنا على أضعفها، نبأ «اغتيال» أحد الطلبة

بمدينة جيجل من طرف الشرطة التي كانت اختطفته من العاصمة منذ ما يزيد عن شهرين..

وبمجرد ما تلقى المكتب هذا النبأ الذي جاء به والد الطالب، دعي جميع الطلبة إلى اجتماع عام تم المرة الأولى بنادي «الدكتور سعدان» مقر حزب البيان سابقا، وطرحت في الحين قضية الاضراب الشامل واللامحدود عن الدروس، بفضل تدخلات العناصر التي كانت منتمية إلى هياكل الجبهة السرية تقبلت الأغلبية الفكرة وتبنتها غير أن هذا لم يمنع وقوف أقلية في وجه المشروع تعارض بشدة كل ما معناه الانقطاع عن الدراسة. وقد برر بعضهم معارضته بتأكيد أنه واجب الطالب المقدس إزاء الثورة ومستقبل الأمة يكمن في التفرغ للعلوم قصد توفير إطارات الغد. بينما رأى البعض الآخر أن اتخاذ مثل هذا القرار الخطير خارجا. «قانونيا عن صلاحيات فرع الجزائر بل أنه لايمن أن يصدر إلا عن قيادة الثورة ويفقد عبر الهيئات العليا للاتحاد العام للطلبة، وزاد الوضع تأزما والمناقشة تعقيدا إثر تدخل شخصيات غير طلابية تحذر من عواقب الإضراب وتنصح بالتأني والحكمة، ولم تسفر مداولات الجلسة الأولى عن أي نتيجة وتقرر عقد الاجتماع الثاني في اليوم التالي بدار الطلبة المسلمين «لاروبر تسو» رغم معارضة إدارتها الفرنسية، وهناك وفي جو زاده حماسا وجود العديد من تلاميذ الثانويات تم الإجماع على الإضراب».

كما يذهب الدكتور عمار هلال في كتابه نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954 أن الإضراب جاء بدافع من قادة الجبهة.. ففي 17 ماي 1956 أجمعت تقريبا كل الصحف الأوروبية بما في ذلك الفرنسية على أن تحركا مريبا قد ساد الأوساط الطلابية، ليس فحسب في الجزائر، لكن أيضا في تونس وغيرها من البلدان الأخرى الأجنبية التي يدرس بها الطلبة الجزائريون وأكدت بصورة خاصة

على أن بعض قادة الجبهة قد اتصلوا بالطلبة الجزائريين في تونس ووضع الطلاب الزيتونيون أنفسهم تحت تصرف الثورة الجزائرية وابدؤوا استعدادهم التام لتنفيذ كل ما تأمرهم به، وفي 18 ماي اجتمع الطلاب الجزائريون وصوتوا بالإجماع على النداء التاريخي للطلاب، الذي توجه إليهم، بمغادرة كراسي الجامعة والالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني.

وفي ليلة 19 ماي 1956 تسرب الطلاب عبر الحي الجامعي وأشعروا زملاءهم بالقرار التاريخي الذي اتخذته جمعيتهم، وفي الصباح الباكر افترق أعضاء مكتب الفرع الطلابي لمدينة الجزائر، والتحقوا بإخوانهم في الميدان، ولم يكن هذا الفريق من الطلاب، هو الأول الذي التحق بصفوف جيش التحرير الوطني، بل هناك عدة فرق أخرى من الطلاب التي سبقتها إلى الميدان، وهو ما يثبت أن كل شيء كان مخططا ومدروسا ويؤكد ذلك ضعف السبب الذي اختير لإعلان هذا الإضراب وهو موت غير مؤكد حسب عبارات النداء ذبحا «من طرف شرطة جيجل بمساعدة الميليشية المحلية» لم يكن إلا وليد الاستعجال والافتقار إلى المبررات حيث أن هذا الأخير لازال والحمد لله حيا يرزق.

وهذا نص النداء التاريخي للدعوة للإضراب:

نص نداء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين إلى الإضراب العام عن الدروس والامتحانات؛

«أيها الطلبة الجزائريون :

بعد اغتيال أخينا زدور بن القاسم من طرف الشرطة الفرنسية، وبعد الفتك بأخينا الكبير الطيب ابن زرجب، وبعد المأساة التي أصابت أخانا الشاب

الابراهيمى التلميذ بالمعهد الثانوي ببجاية حيث أكلته النار حيا في قريته التي أحرقتها الجيش الفرنسي أثناء عطلة عيد الفصح، وبعد تنفيذ الإعدام بدون تحقيق، ولا استنطاق، ولا محاكمة، على الأديب الجليل رضا حوحو الكاتب بمعهد ابن باديس بقسنطينة الذي كان في جماعة ممن أخذهم العدو كرهائن وبعد التعذيب البغيض والتنكيل الشنيع الذي قاساه الطبيب هدام بقسنطينة، والطيبان بابا أحمد، وطبال، بتلمسان، وبعد إلقاء القبض على رفقاءنا عمارة. ولونيس، والصابر، والتواتي، الذين انتزعوا وانقذوا اليوم من سجون الإدارة الفرنسية، وبعد إلقاء القبض كذلك على الرفيقين زروقي، وماجي، ونفي رفيقنا. ميهي، وبعد الحملات الرامية إلى ادخال الرعب في قلوب أعضاء الاتحاد العام للطلبة الجزائريين المسلمين، وبعد كل هذا فها نحن نرى الشرطة تختطف من بين أيدينا وساعة الفجر أخانا فرحات حجاج الطالب في القسم التحضيري للدراسات الجامعية، والمرشد بالقسم الداخلي للمدرسة الثانوية بابن عكنون بالعاصمة الجزائرية، وقد عذبتة وحبسته عشرة أيام (بمشاركة السلطة القضائية والإدارة العليا بالجزائر اللتين كانتا على علم بقضيته) إلى أن بلغنا، وأحشاؤنا تلتهب من الأسى، أن شرطة مدينة جيجل ذبحته ذبحا بمساعدة الحراسة المحلية المسلحة.

ولنا أن نتساءل بعد تلك المناكر هل ذهبت أدراج الرياح، تلك الانذارات الصادرة من إضرابنا الرائع يوم 20 يناير 1956.

وحقيقة الأمر أن المزيد من الشهادات الدراسية لا يؤدي إلى تحسين الحالة الراهنة المتمثلة في جثث ذويتنا المفتوك بهم فتكا ذريعا.

ولماذا يا ترى تصلح تلك الشهادات التي مازالت تعرض علينا بينما يناضل شعبنا نضال الابطال وتنتهك حرمت أمهاتنا وأزواجنا، وإخواننا، ويتساقط أولادنا، وشيوخنا، تحت رصاص الرشاشات، ونيران القنابل، والكبريت المحرق.

ونحن «اطارات الغد» فماذا، ومن يعرض علينا لنسيره؟.. لاشك الخرائب،
وأكواما من الأجساد الهامدة المقطعة إربا إربا، كالتى بمدن قسنطينة، وتبسة،
وسكيكدة، وتلمسان، وغيرها، من المراكز الأهلية التى صارت أسماؤها مسجلة فى
تاريخ البطولة ببلادنا.

وإننا لنشعر بأن وقوفنا موقف القاعد المتفرج أمام الحرب، التى تجري معاركها
تحت أعيننا يجعلنا شركاء فى المفترقات البذيئة الصادرة من الأفاكين الآثمين ضد
جيشنا الوطنى الباسل، كما نشعر كذلك بأن الهناء الزائف الذى ركنا إليه لم يعد
يرضى ضمائرنا.

ولذا فإن الواجب ينادينا إلى القيام بمهمات تفرضها الظروف علينا فرضا وتتسم
بسمة السمو والمجد.

فالواجب ينادينا إلى تحمل الآلام ليلا ونهارا بجانب من يكاحون ويموتون أحرارا
تجاه العدو.

وعليه فإننا نقوم من الآن بالاضراب عن الدروس والامتحانات لأجل غير
محدد.

فلنهجر مقاعد الجامعات ولنتوجه إلى الجبال والأوعار.
ولنلتحق كافة بجيش التحرير الوطنى وبمنظمتة السياسية جبهة التحرير
الوطنى.

أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون، أنرتد على أعقابنا والحال أن العالم ينظر إلينا
والوطن ينادينا، والبلاد تدعونا إلى حياة العز، والبطولة والمجد.

الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

في ختام النداء التاريخي، ينهي الاتحاد للطلبة العام المسلمين الجزائريين إلى جميع الطلاب أنه تقرر من الان مايلي: « وعليه فإننا نقوم من الآن بالإضراب عن الدروس والامتحانات لأجل غير محدود... فلنهجّر مقاعد الجامعات ولنتوجه إلى الجبال والأوعار... ولنلتحق كافة بجيش التحرير الوطني وبمنظّمته السياسية جبهة التحرير الوطني...».

ولأجل هذا أرسل فرع الجزائر وفدا لإقناع الطلبة الجزائريين بفرنسا كي يوافقوا على الإضراب فوافق طلبة جامعة باريس ومونبيلي وعارض الإضراب طلبة جامعة تولوز. كما أرسل الاتحاد رسائل أخرى لكل ما له علاقة بالإدارة الفرنسية يطالبهم فيها بتأييد كفاح الجزائر العادل.

وجاء انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956 ليؤكد على دور الطلبة الجزائريين في ثورة 1954. وبين المهام التي أنيطت بالطالب الجزائري في هذا المؤتمر ولتنفيذ قرارات هذا الأخير جعل الاتحاد من قضية تجنيد الطلاب في صفوف جيش التحرير الوطني محورا لنشاطاته وعمل على الاتصال بهم جماعات وفرادى مؤكدا لهم على واجبهم الوطني وما تنتظر منهم الثورة وكان الاتحاد قد انتهز في صيف سنة 1956 الفرصة في للوقوف ضد مرامى «الفروع الإدارية الخاصة» - لصاص (SAS) - التي كانت تجبر الطلاب الجزائريين على التطوع في صفوفها لبث دعايتها المسمومة بين الأوساط الشعبية في اضطهاد الشعب الجزائري والابتعاد عنها كلية. وقد جاء في هذا النداء مايلي:

«إن الاستجابة إلى هذا الأمر بالدخول في خدمة المستعمر لامعنى له سوى أنه نكران لذاتك. ولا معنى له سوى أنك (أخي الطالب) وافقت على قتال زملائك الطلاب والطالبات، الذين يدفعون ضريبة الدم كل يوم دفاعا عن وطنهم وذلك منذ ثلاثة شهور خلت، وبناء عليه فالمطلوب منك، أن تعمل على إفشال هذ المحاولة

الاستعمارية العمياء، التي تريد منك أن تشترك في جرائمها، ومن ثم عليك أخي الطالب؛ أن تعزل عزلا نهائيا الإدارة الاستعمارية، وأن تلتحق قبل فوات الأوان بصفوف جيش التحرير الوطني، وجبهة التحرير الوطني أين ينتظرك واجب مقدس».

ومن واجبها أخذت الثورة بعين الاعتبار كل ظروف المنخرطين في صفوفها من طلاب الثانويات، والجامعات، والأطباء والشباب، وغيرهم من المثقفين ذوي الاختصاصات المختلفة، واعتبرتهم من المتعاونين الأساسيين معها، وقدرت كفاءتهم العلمية والثقافية حق تقديرها وأبعدتهم في أول الأمر عن الميادين الخطيرة والإطار الذي يعمل فيه عادة المقاتلون، وحاولت أن توفر لهم قدر الإمكان شيئا من الراحة والإطمئنان النفسي، لذلك نجد الجبهة تعين الطلاب المثقفين الذين التحقوا بصفوفها في ميادين عمل، هي من صميم اختصاصاتهم، فالطبيب مثلا يباشر عمله في هذا الاختصاص، يساعده الطلاب المتقدمون فيه الذي سبق لهم أن درسوا سنتين أو ثلاثاً في هذا الاختصاص كمساعدين أو كمرضين، ولكن ظروف الحرب كثيرا ما أدت إلى عدم هذا التحديد، فنجد الطبيب في كثير من الأحيان يضطر إلى حمل السلاح لرد العدو عن أعقابها، شأنه شأن الإداري أو المكلف بالشؤون الاقتصادية أو الثقافية أو القضائية.

وكذلك في ميدان الإعلام تتضح مساهمة الطلاب والمثقفين الجزائريين بقسط وافر في إنشاء الصحف المحلية وتمرير المناشير وتوزيعها. ومن الصحائف التي كانوا يساهمون في تحريرها وتوزيعها نذكر «الثورة» «صوت الجبل» «الحرب» دون أن ننسى لسان حال جبهة التحرير «المجاهد» كما زودت الثورة هذا القطاع في مطلع 1958 بتجهيزات حديثة كالكاميرات والمسجلات وغيرها من الآلات الحديثة من شأنها أن تنقل أحداث الثورة.

كما لم تتردد جبهة التحرير الوطني في وضع ثقتها التامة في الطلاب الجزائريين، والمثقفين وذلك بتكليفهم بمسؤوليات عالية تتماشى وتكوينهم العلمي والثقافي. فكلفت جبهة التحرير الوطني أحمد طالب بكتابة رسالتين إلى الرأي العام الفرنسي. أولهما «رسالة إلى الفرنسيين» وثانيهما «رسالة إلى صديق فرنسي» وقد نشرت الرسالتان في صحيفة «لاكسيون»، في عدديها الصادرين في 11 و17 جوان 1956.

وفي شهر جانفي سنة 1957 تتأكد مرة أخرى مدى الثقة التي وضعتها الثورة في الطلاب والمثقفين الجزائريين، وذلك بإسنادها لهؤلاء مسؤوليات هامة، عند تجديد المكتب الدائم لمنظمة الجبهة في فرنسا، الذي تشكل من محمد لبجاوي رئيسا له، ومحمد حربي ورضا مالك وغيرهم. لكن هذه للتشكيلة الجديدة لمكتب منظمة الجبهة في فرنسا لم تعمر طويلا.

إذا ما لبثت السلطات الاستعمارية الفرنسية أن انتبعت إليها واعتقلت تقريرا أعضاء المكتب، منهم لبجاوي، لونيشي وأحمد طالب، وسجنتهم، وذلك في نهاية شهر فيفري سنة 1957 أي بعد أقل من شهرين من تجديد المكتب ثم عينت له في ما بعد مؤقتا الطيب بولحروف.

دور تلاميذ الثانويات :

كل الطلبة الذين كانوا بجامعة الجزائر سنة الإضراب مجمعون على أن مازاد حركتهم حيوية وحماسا وصلابة هو مساهمة العديد من تلاميذ الثانويات في كل اجتماعاتهم وتظاهراتهم وقراراتهم، هذا بالإضافة إلى أنشطتهم الخاصة بهم والتي تميزت طيلة سنة 1956 بالعديد من المظاهرات والإضرابات وأعمال الشغب داخل المؤسسات العلمية وبالمقالات والتصريحات المؤيدة للثورة المسلحة والمناوئة للاستعمار تنشرها جرائد يصدرونها.

وكانوا منظمين في إطار جمعيات للتلاميذ المسلمين الجزائريين التي برزت للوجود في مختلف أنحاء الوطن، وبالنسبة لبعضها قبل تأسيس الاتحاد العام للطلبة، غير أن هذه الجمعيات كانت للظروف العويصة السائدة تفتقر إلى جهاز تنفيذي مشترك على المستوى الوطني ولهذا كانوا تعويضا لهذا النقص كثيرا ما ينسقون أعمالهم عبر فرع اتحاد الطلبة للعاصمة، ولا ننسى أن من بين الأسباب التي حثت مسؤولي الثورة للطلبة على التعجيل بالإضراب ذلك الغليان وحركات التمرد على الدروس التي أخذت تعم الثانويات في العاصمة والبلدية ومدن أخرى ولا ننسى أيضا أن ما رجع نهائيا الكفة لصالح المطالبين بالتخلي النهائي عن الدروس على مستوى الطلبة مساهمة العديد من تلاميذ الثانويات في التصويت.

وما أعلن فرع جامعة الجزائر قرار الإضراب حتى لبت نداء جماهير التلاميذ وكان التحاقهم بالكفاح - المسلح بأعداد أوفر مما رفع نسبة الشهداء في صفوفهم. ولقي النداء نفس القبول والحماس عند التلاميذ الجزائريين المسجلين في الثانويات الفرنسية سواء كانت على التراب الفرنسي أو في تونس أو المغرب.

ردود فعل الاستعمار على الإضراب:

رد الاستعمار الفرنسي على الإضراب ردا عنيفا، حيث اعتبره حادثا مؤلما في تاريخ تواجده بالجزائر، من ذلك أنه اتخذ إجراءات قاسية، طبقت على المضربين عن الدروس في كل من الجزائر وفرنسا، مثل تعطيل المنح، وإقصاءهم من المطاعم الجامعية، والأحياء الطلابية أين كانوا يسكنون عادة.

لم تقلق نشاطات اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين السلطات الاستعمارية الفرنسية فحسب، بل أيضا أقلق الأنظمة الموالية لها، التي تقاسمها المصالح

والامتيازات في الجزائر، وذلك مثل الهيئات الطلابية الرئيسية خاصة منها المنظميتين الهامتين « الجمعية العامة للطلبة الجزائريين » (LACEA) وهي منظمة طلابية فرنسية يمينية الاتجاه، ذات نزعة (ادماجية) ومن دعاة (الجزائر الفرنسية)، و«الاتحاد الوطني للطلاب الفرنسيين» (LUNGF)، الذي وقف موقفا سلبيا من الحرب التحريرية الوطنية الشيء الذي جعل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، يندد بمواقفه السلبية هذه ويقطع علاقه معه في 10 ديسمبر 1956.

وفي 12 نوفمبر 1957 سجن فرنسا «محمد خميسي» في مونييلي وقادة الاتحاد بعده. ثم قامت بحل الاتحاد في جانفي 1958 بحجة إخلاله بالأمن العام واعتقلت قيادته وحاكمتهم يوم 25 جويلية 1959. كما استندت في حل الاتحاد إلى قانون 1956 الذي يمنع تأسيس الفرق القتالية.

نشاط الطلبة في العالم خلال الإضراب العام:

وقد جاء قرار الإضراب العام اللانهائي للطلاب، وتلاميذ الثانويات ليؤكد شعبية الثورة التي أصر المستعمرون على أنها من عمل عصابات وقطاع طرق، وأناس يتلقون أوامرهم من الخارج، وكان ضرورة حتمية لتصفية هذه الادعاءات الاستعمارية الطائشة، فالتحق حشد كبير منهم بالجبال، وحملوا الأسلحة مع رفاقهم المجاهدين وتوزع عدد كبير منهم في معظم بلدان العالم وشاركوا في عدة ندوات لشرح قضية شعبهم، والدفاع عن مصالح الثورة وأهدافها.

ومنها الندوة العالمية السادسة للطلاب في كولومبو بجزيرة سيلان التي قبلت الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين عضوا منتدبا فيها، وهي منظمة غربية تدعى (الكوسيك) وذلك رغم المعارضة الشديدة لعدد كبير من المنظمات

تدعى (الكوسيك) وذلك رغم المعارضة الشديدة لعدد كبير من المنظمات الطلابية الغربية كما قبلت المنظمة العالمية للطلاب "الشرقية التي تدعى (بوبي) عضويته فيها، كعضو مشارك كذلك وقد سمحت له عضويته في الاتحادين الطلابيين العالميين المتعارضين من حيث الايديولوجية ليؤدي دوره الجاد، وليحتل مكانته الحيادية بينهما، على أساس مبدأين إثنين :

أولا: محاربة الاستعمار والأمبريالية بصفة عامة بكل الوسائل والسبل .

ثانيا : الالتزام بالحياد، وتجنب الميول والأفكار السياسية التي تؤدي تقسيم العالم الطلابي، والعمل على تحقيق جبهة طلابية عالمية قوية تقف إلى جانب القضايا العادلة ومنها الثورة الجزائرية .

لقد كثف الطلاب الجزائريون جهودهم لدى كل الاتحادات الطلابية العالمية في كل من ألمانيا وسويسرا، وبلجيكا، وهولندا وأنجلترا، وإيطاليا، وروسيا، والهند والصين وأمريكا، ومصر، وسوريا، والعراق والسودان وتونس والمغرب الأقصى، وإسبانيا وبولونيا ورومانيا، وتشيكوسلوفاكيا وتركيا وغيرها وبهروا بقرارهم الرائع كل الأوساط الثقافية والنقابية في العالم وبرهنوا على تضامنهم الصادق وتلاحمهم مع شعبهم الذي يعاني ويقاسي الأهوال والمشاق الكبار كالقتل والتشريد والتعذيب الجهنمي بدون حدود، ولا مقاييس كأطباء وممرضين ومفوضين سياسيين ، وصناع للقتال والأسلحة والذخيرة ومنسقين للعمل والدعاية .

وبهذا الموقف البطولي تعددت مظاهرات التضامن مع القضية الجزائرية في كل من إفريقيا وأمريكا وأسيا وأوروبا الشرقية والغربية، وتطورت حركة مساندة واسعة للحرب التحريرية وقد عبرت وفود اتحاد القارات عن تعريفها بكفاح وتضحيات وتطلعات الشعب الجزائري .

انعقاد المؤتمر الثالث للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين:

أثناء دورته الأولى المنعقدة بالقاهرة درس المجلس الوطني للثورة الجزائرية مسألة الإضراب اللامحدود و لما أجمع الأعضاء على أنه أدى المهمة المنتظرة منه فإنهم قرروا أمر اللجنة المديرة للاتحاد بأن تضع له حدا بمناسبة افتتاح السنة الدراسية 1957 / 1958 وقد تم بالفعل على إثر الاجتماع الذي عقد بباريس في اليوم 14 أكتوبر 1957.

ثم جاءت الخطوة الحاسمة في نهاية هذه السنة إذ عقد الاتحاد مؤتمره الثالث بضواحي باريس في الفترة ما بين 23-28 من شهر ديسمبر 1957، صادق بالإجماع على لائحة السياسة العامة التي لفت فيها انتباه الرأي العام الفرنسي والعالمي لضرورة الضغط على الحكومة الفرنسية كي تحترم مبدأ الحق الطبيعي للشعوب في الجزائر، بالإضافة إلى ذلك أكد فيه ما جاء في مقررات المؤتمر الثاني المشار إليها سابقا.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن المؤتمر نجح نجاحا باهرا إذ حضر الجلسة الختامية مندوبو الاتحادات الطلابية إلى جانب ممثلي الاتحاد العام للطلبة والاتحاد العام للطلبة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تدخل هذان الأخيران بكلمتين قويتين كلفتهما الاستنطاق والطرده من التراب الفرنسي، وبعد شهر واحد من انتهاء أشغال المؤتمر وفشل نتائجها، أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً يحمل تاريخ 28 من شهر جانفي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف ويقضى بحل الاتحاد بحجة انتمائه لجبهة التحرير الوطني، ولذلك دخل التنظيم الطلابي الجزائري مرحلة السرية إلى جانب باقي المنظمات الجماهيرية العاملة في صفوف الثورة، يستعمل جميع الوسائل لتحسين أيديولوجيتها على أرض الواقع.

الملاحق

أبناء الأهالي الجزائريين في المدارس الابتدائية الإستعمارية

من 1880 - 1954

السنة	عدد التلاميذ	النسبة المئوية من عدد الأطفال الذين هم في سن التمدرس %
1880	1150	-
1884	1000 + 1150	01,9 %
1908	33400	04,3 %
1914	47200	05,0 %
1930	68000	08,8 %
1944	110,000	14,6 %
1953	302,000	15,4 %
1954	307,000	15,4 %

أبناء الأهالي الجزائريين من الطلبة

في معاهد التعليم العالي المفرنس

السنة	المعاهد العليا
1884	06 طلبة
1908	50 طالبا
1910	25 طالبا حاملا لشهادة جامعية

**أبناء الأهالي الجزائريين من المنتسبين للجامعات والمدارس العليا
بفرنسا من 1916 - 1955**

السنة	عدد الطلبة	الجامعات والمدارس العليا بفرنسا
1916	61	
1932	100	
1941	142	
1946	360	
1951	386	
1952	442	
1953	572	
1954	513	
1955	584	

**أبناء الأهالي الجزائريين من المنتسبين للمدارس المزدوجة أو الثانويات
بفرنسا من 1870 - 1954**

السنة	عدد الطلبة	المدارس المزدوجة أو الثانويات
1870	271	المدارس المزدوجة
1889	21	الثانويات الفرنسية بالجزائر
1893	69	=
1900	85	=
1905	125	=
1910	180	=
1914	386	=
1914	67 طالبا حاصلاً على شهادة البكالوريا	
1940	1358	الثانويات الفرنسية بالجزائر
1945	1800	=
1951	4192	=
1954	626	=
1954	350 طالبا حاصلاً على شهادة البكالوريا	

تقسيمهم حسب إختصاصاتهم :

- كلية الاداب : 243

- كلية الحقوق : 276

كلية العلوم : 195

- كلية الطب : 100

المجموع 814

السنة الجامعية 1960 - 1961

الطلبة	حقوق	آداب	علوم	طب وصيدلة	المجموع
ذكور	398	367	232	148	1145
إناث	22	83	39	28	172
					1317

أما عن أعداد الطلبة الجزائريين، عند اندلاع الثورة، في البلدان العربية فليس لدينا عنها من إحصاءات مضبوطة، وكل ما هناك أن بعض الوثائق تقدر عددهم مثلا، في جامعة الزيتونة بتونس بحوالي 400 طالب.

أما في المغرب فتقدر نفس الوثائق أعداد الطلبة الجزائريين، الذين كانوا يدرسون في جامعة القرويين بفاس ففي سنة 1940 ب : 19 طالبًا، ليقفز في سنة 1950 إلى أكثر من 186 طالبًا، فقط في هذه المؤسسة الأخيرة، من بينهم 111 طالبًا من وهران

والمناطق التابعة لها إداريا ونجد، في نفس الفترة الزمنية، أكثر من 51 طالباً جزائرياً في مكناس، يدرسون « بمركز الدراسات الإسلامية » هناك، ويشمل هذا المركز الطورين التعليميين: الابتدائي والثانوي». وما نلاحظه مرة أخرى هنا، هو أن الطلاب كلهم تقريباً قد قدموا إلى هذه المؤسسة التعليمية من غرب البلاد، عدا أربعة منهم، الذين هم أصلاً من وسط وشرق البلاد.

ويبقى أن نعرف عدد الطلبة الجزائريين في كل من مراكش وطنجة، علماً أن المدينة الأولى تحتضن مدرسة هامة، وهي مدرسة بن يوسف، أما الثانية فنجد بها مركزاً تعليمياً هاماً، وإن كان نشاطه مقتصرًا على الطور الابتدائي. أما في مرحلة متقدمة من عمر الثورة الجزائرية (1960)، فنجد الطلاب الجزائريين موزعين كالتالي عبر البلدان الأوروبية.

**جدول الطلبة الجزائريين المسجلين في الجامعات
الفرنسية في كل من الجزائر وفرنسا**

1 - ففي فرنسا

السنة الجامعية	عدد الطلبة	ملاحظات
1960 - 1959	1230	بما في ذلك الأقسام التي تهيء للدخول إلى المدارس العليا (480 طالباً) والجامعات (750 طالباً)

تقسيم الطلبة الجزائريين	حسب اختصاصهم
- أدب	95
- حقوق :	100
- علوم :	190
- طب ، صيدلة : 365 بما في ذلك طب الأسنان	
المجموع	750

2 - في جامعة الجزائر العاصمة :

السنة الجامعية	عدد الطلبة	ملاحظات
1954 - 1953	589	منهم 151 يتمتعون بمنحة
1960 - 1959	814	منهم 332 يتمتعون بمنحة

في أوروبا وأمريكا يتوزع الطلاب الجزائريون حسب الجدول الآتي على البلدان التالية:

الجموع	أطوار مختلفة	الطور الثانوي	تقنيون	هندسة	طب وصيدلة	علوم	علوم سياسية واقتصادية	آداب	إسم البلد
75	2	1	2	24	15	3	14	14	ألمانيا الفدرالية
11			4		4	2	1		بلجيكا
1				1					كندا
1		1							إنجلترا
1								1	إيطاليا
3			3						النرويج
2			1		1				السويد
135	1		2	20	69	6	26	11	سويسرا
41				17	1	7	12	3	الولايات المتحدة الأمريكية

أما في البلدان الاشتراكية الأوربية فنجد الطلاب الجزائريين يتوزعون عبرها، في بداية السنة الجامعية 1960 - 1961 على الشكل التالي :

إسم البلد	آداب	علوم سياسية واقتصادية	علوم	طب وصيدلة	هندسة	تقنيون	الطور الثانوي	أطوار مختلفة	المجموع
ألبانيا		1		1	1			1	4
بلغاريا	1	3	1	11	9				25
ألمانيا الشرقية	7	11	6	9	27	16	4	2	82
النمسا		2	2		7				11
رومانيا					9				9
تشيكوسلوفاكيا	1	5		2	24		1	2	35
روسيا		1	1	3	27				32
يوغسلافيا	1	10		7	22	2			42

ملحوظة : تقتصر هذه الجداول على الطلبة اللذين يتمتعون بمنحة في البلدان المذكورة أعلاه.

المصدر : افريك أكسيون، جويلية 1961.

المصادر والمراجع

- 1 - عمار هلال « نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954، النشر مطبعة لافوميك؛ الجزائر 1986م.
- 2 - عبد الله حمادي «الحركة الطلابية الجزائرية (1871 - 1962) مشارف ثقافية وإيديولوجية؛ منشورات المتحف الوطني للمجاهد؛ الطبعة الثانية الجزائر 1995 م.
- 3 - محمد العربي الزبيري «تاريخ الجزائر المعاصر» (1942 - 1962) الجزء الثاني؛ (محاضرات قدمت لطلبة معهد التاريخ جامعة الجزائر ببوزريعة؛ الموسم الجامعي 1996 / 1997 م.
- 4 - يحي بوعزيز «ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر»؛ الجزء الثاني (ثورات القرن العشرين)؛ منشورات المتحف الوطني للمجاهد؛ طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار؛ الطبعة الثانية الجزائر 1996.
- 5 - مجلة أول نوفمبر العدد 57 / 1982 م «سياسية تاريخية ثقافية»؛ تصدر عن المنظمة الوطنية للمجاهدين؛ (مقال الحركة الطلابية في حرب التحرير للدكتور مسعود آيت شعلال).
- 6 - مجلة أول نوفمبر العدد 152 / 1999 م (مقال الطلبة وثورة التحرير للأستاذ جودي الأخضر بالطين).

- 7 - الجامعة عدد 24 ماي 1986 (نشرة دورية لوزارة التعليم العالي، تصدر عن ديوان المطبوعات الجامعية)؛
- مقال إضراب 19 ماي وأهم الأحداث المحيطة به لعضو الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين فرع مكتب الجزائر «صالح بن القبي» .
- 8 - المجاهد عدد 74 (25 جويلية 1960)؛ اللسان المركزي لجهة التحرير الجزائري.

«في الذكرى الخمسين لثورة أول نوفمبر ثورة في الثورات»

الأستاذ محمد سعيدي

مستشار سابق برئاسة الجمهورية

ها هي الذكرى الخمسين لثورة أول نوفمبر العظيمة، وما نحن نحيتها ونحتفى بها أيما احتفاء كما نطن، وهل يكون هذا الاحتفاء في مستوى الذكرى، وفي مستوى الثورة التي نحتفل بها، وهل سألنا أنفسنا ما هي الدروس التي استخلصناها من الخمسين سنة المنصرمة وما هي نتائج استخلاص هذه الدروس. وما هي القرارات الوطنية الكبرى التي ستتخذ لتصحيح المسار، واستعادة النفس الثوري والعودة إلى الالتزام بالمبادئ الكبرى لبناء مستقبل آمن لبلادنا. وهل لنا الجرأة الكافية لطرح هذه الأسئلة وهل نحن مهيتون للإجابة عنها والأسئلة الأكثر إلحاحا والأقوى إخراجا للجميع هي ماذا كان يريد الشهداء، وماذا يقولون لنا لو عادوا؟ حقيقة أن العودة المادية مستحيلة إنهم عند ربهم يرزقون، ولكن دماءهم الطاهرة في أعناقنا، وإن أطيا فهم تلاحقنا.

هل نكتفي في إحيائنا لهذه الذكرى التاريخية العظيمة بتلك الاحتفالات التقليدية التي نحيتها سنويا بأول نوفمبر؟ نقرأ الفاتحة على قبور الشهداء نتستنفر

الموسيقيين، المغنين والمغنيات، غلاً بهم تلفرتنا التي لم يعد يعبأ بها أحد إلا محبو كرة القدم. نعتقد الندوات حول تاريخ الثورة، فنستدعي مجاهدين لتقديم شهاداتهم ونستدعي شخصيات عربية ودولية من أصدقاء الثورة والمساندين لها لنعطي لاحتفالاتنا أبهة أكثر!

هذه الإحتفالات التي أصبحت روتينية لا تثير اهتمام أحد إلا القائمين بها. إنها أصبحت مجرد طقوس، ولكن لم نستطع التخلي عنها حفاظاً على ماء الوجه وتجنباً للإحراج. ومع ذلك سنقبلها هذه السنة ويقال أنه استثناء للذكرى الخمسين فقد قررت اللجنة المكلفة بالإعداد لهذه الاحتفالات أن تمدد الحفل إلى نهاية السنة، أي أقل من سنة الجزائر في فرنسا وكما هو معلوم فإن اللجنة لجنة إدارية. وليست لجنة سياسية وطنية موسعة لكل القوى الحية للبلاد بمختلف تياراتها للمشاركة في هذه الذكرى التي تجعلنا جميعاً وجهاً لوجه أمام مسؤولياتنا تجاه ثورة أول نوفمبر العظيمة، وتستنطقنا حول انحراف مسارها والنتائج التي ترتبت عنه.

الاحتفال بالذكرى الخمسين يحتم علينا جميعاً، وعلى أجيال الثورة المباشرين والقريبين منها أن نقوم بتقويم شامل وعميق، تقويم صارم ومسؤول لمسيرتنا الوطنية، ربما ليس فقط لمسيرة ثورة أول نوفمبر وإنما لمسار كفاحنا منذ الأمير عبد القادر، اختياراتنا ومبادئنا الكبرى، أفكارنا واتجاهاتنا، أنظمتنا المختلفة لتحقيق أهدافنا، أساليبنا علاقاتنا في الميدان أين كان نجاحنا؟ وما هي إخفاقاتنا. وأين نحن على مستوى المبدأ وعلى مستوى الفعل؟ وما هي حقيقة وعينا الفعلي. وما هي اقتناعاتنا على المستوى الفردي والجماعي؟ كيف كان تسييرنا لحركتنا التاريخية؟ كيف تعاملنا مع المبادئ، كيف تعاملنا مع الثورة؟ وما هي أماكن الخلل؟ وما هي العلاقة بين مستوى التفكير السياسي والاستراتيجي ومستوى السلوك والممارسة الميدانية.

وجاءت اللجنة الوطنية المكلفة بتنظيم الاحتفالات لتجعل العنوان العام

«الذكرى الخمسين للثورة التحريرية» بتغيب شهر نوفمبر أولاً، ثم لتضعنا ثانياً أمام تلك الإشكالية الجدالية التي أثّرت مباشرة مع أزمة 1962، هل أن الثورة انتهت مهمتها بنيل الاستقلال، أم أن الثورة هي عملية مستمرة للتغيير، واستكمال المشروع التحرري الذي يعني تصفية مخلفات الاستعمار المدمرة وإخراج البلاد من التخلف، ووضعها في مستوى البلدان العصرية المتطورة بعصرنتها وتحقيق العدالة والمساواة لأفراد مجتمعتها، وكان هذا النقاش جزءاً من أزمة 1962 بل من أزمة الجزائر بقياداتها المختلفة التي تعاقبت على الحكم منذ الاستقلال، باستثناء فترة العقدين الأولين 62 - 79. بل أن هذه مشكلة الأحزاب السياسية الذي أفرزتها التعددية، والتي لم يوفق أي منها في تقديم برنامج حديث يفصل في الموضوع ويذهب بمسيرة الثورة بعيداً.

وهذه هي أزمة جبهة التحرير الخائفة التي تكلمت وتوقفت عن التفكير وابتكار الفعل السياسي المتفتح.

فالتقويم المطلوب القيام به بمناسبة الذكرى الخمسين هو تقويم سياسي استراتيجي شامل يرسي تجربتنا السياسية، أوضاعنا الثقافية والاجتماعية، علاقاتنا مع العالم، تقويم لا يكتفي بالأرقام والاحصاءات الجامدة، بل يتعلق بالتطور النوعي لنظام الحكم وتسيير شؤون البلاد، كما يتعلق بنوعية الوعي السياسي، والتقدم الثقافي، وترقية المجتمع، إنه يعني التفكير في المسار المستقبلي لثورتنا. ما هي المبادئ والأهداف الجديدة؟ ما هي تنظيماتنا السياسية؟ وسائلنا المادية والبشرية لتحقيق تلك الأهداف، ما هي نوعية مؤسساتنا المختلفة التنفيذية والتشريعية؟ ما هي كفاءة إدارتنا وقدرتها على التكيف مع متطلبات تطور البلاد وأنظمة العالم المعاصرة؟ ما هو مشروعنا التنموي المستقبلي؟ ما هو مسارنا الاستراتيجي المستقبلي؟ إلى أين نسير بالضبط؟ ما هي العناصر الاستراتيجية في

هذه المسيرة التي ينبغي أن تكون محل إجماع وطني، ما موقعنا في العالم المعاصر؛ العالم الحالي؟ ما قدرتنا على إدارة الصراع؟ ومدى تحملنا لامتنصاص ضرباته، هل نعيش في العصر الأمريكي بعقلية بشوات النظام التركي في عصر انحطاطه؟ وبالعقلية العشائرية والفئوية والجهوية بعقلية العصب، هذا النوع من التقويم لا يمكن أن يكون بيروقراطية، ولا محصورا في السلطة ولا في أجهزة الأحزاب المغلقة، تقوم به كل القوى الوطنية وفي كنف الحرية والشفافية بعيدا عن المزيادات وتصفية الحسابات والنزاعات الثأرية، تشارك فيه الجامعات وأجهزة الإعلام والمثقفون، يشارك فيه طلاب الجامعات والثانويات والشباب في الأرياف، وغير محدود بزمان الاحتفالات المحدد رسميا.

التقويم يعني إعادة الاعتبار للثورة الجزائرية كثورة ليست محدودة في الزمن ولا في جيل. إنها القوة الملهمة للأمة، مقاومة ثقافة التشكيك والإحباط وثقافة النسيان، يعني التصدي للردة الخطيرة، للتقهقر الرهيب لمسيرة وطنية تاريخية حاسمة التي أدت إلى روح اللامبالاة وعدم الاهتمام بالشأن العام، وتدهور الحس المدني يعني تصحيح المسار وإعادة القطار إلى السكة.

لقد كانت الثورة الجزائرية ثورة عملاقة لها امتداداتها في تاريخ الجزائر ومستقبلها ثورة عملاقة في تاريخ حركة التحرر العالمية. كان لها دور حاسم في هدم المنظومة الاستعمارية العالمية، إذ ألحقت هزيمة بقوى استعمارية استيطانية عاتية.

فالذين يريدون محاصرة الثورة في خانة حركة التحرر المحدودة هم أنفسهم الذين ينادون بوضع جبهة التحرير في المتحف، لأنهم يريدون من وراء ذلك وضع الثورة برمتها في المتحف لتبرير مخطط الانحراف والتراجع، وتغطية علة العجز عن اتخاذ المبادرة، وعن الفعل السياسي الموجه لحركة التاريخ.

ومنذ ما يقرب من ربع قرن والضربات توجه لثورة نوفمبر من قوات خفية ومعلنة

متعددة الأطراف والمصالح لتنال من قيمتها كفعل تاريخي متميز، ومن إنجازاتها الكبرى. مما جعل نوعاً من العدمية المطلقة تكاد تسود أجيالاً بأكملها وأصبح التمايز بين الوطنية واللاوطنية، بين البطولة والخيانة يكاد يندم. والحظ الوطني الذي كان العمود الفقري للحركة الوطنية قبل الثورة وأثناء الثورة وبعد الثورة، هذا الخط الذي تميزت به الجزائر تشنت بسبب عمليات التآمر والإقصاء، وبسبب تخاذل رموزه، وسقوط البعض الآخر في الطمع، وبانهيار هذا الخط الصلب المبني على المبادئ وعلى الالتزام والتفاني في خدمة البلد ونكران الذات، أصبحت الجزائر بدون هوية سياسية واضحة، وبدون مرجعية تتخبط في أزمة طاحنة جعلتنا نزرع الشك حتى في هويتنا التي ترسخت عبر الأجيال والقرون.

ورغم السهام التي وجهت لهذه الثورة، وما يزال رأسها مطلوباً إلا أن إنجازاتها العظيمة ما تزال شامخة فكثورة أحدثت انقلاباً جذرياً في حياة المجتمع بعد أن حققت الاستقلال الكامل والغير مشروط للبلد، كما حققت وحدة الأمة ووحدة التراب الوطني، وما تزال الوحدة الوطنية، ووحدة التراب، والسيادة الوطنية، هي الأعمدة الرئيسية التي تبنى عليها الجزائر المستقلة، وأنها أساس مناعتها في عصر يتميز بالقوة والعدوان واحتقار الشعوب، وإثارة النعرات العرقية والدينية والطائفية، وتشتت أية قوة وطنية أو إقليمية تحاول مقاومة الطغیان والعدوان.

تتمتع الجزائر اليوم بفضل هذه الثورة، بطاقات مادية وبشرية هائلة تؤهلها، بجدارة لاستئناف المشروع النهضوي التحديثي الثوري الوطني فعندنا هياكل قاعدية لا يستهان بها تتمثل في اتساع المنظومة التربوية الوطنية، ونمو جامعاتنا عبر التراب الوطني وفي منظومتنا الصحية، في شبكة المواصلات، شبكة الطرقات التي تربط أطراف الوطن، يضاف إليها المطارات الدولية الموجودة في أغلب الولايات وأخرى في طريقها إلى الإنجاز، مع تعميم الكهرباء في الأرياف، زيادة

على انتشار المنظومة السلوكية واللاسلكية، لنا طاقات بشرية مؤهلة هائلة أعدتها منظومة التكوين الوطنية في التعليم المهني إلى الأطارات الجامعية الكفأة، وتنتشر كفاءاتنا العلمية الناشئة عبر عواصم الغرب المتقدمة تفرض جدراتها العلمية والمهنية والسلوكية بامتياز، لنا نظام ديمقراطي ناشئ، بدون شك رغم الشوائب التي ما تزال لاصقة به مع إعلام مستقل، يعاني سلبيات النشأة ولكنه يفرض وجوده واحترامه تدريجيا. مجتمع ديناميكي يتطور بسرعة، ينتشر فيه التعليم وترقى المهنة. لقد نشأت أجيال جديدة أكثر طموحا وأكثر تقبلا لمتطلبات العصر.

أمام الجزائر، وهي في ذكرى ثورتها الخمسين، فرصة تاريخية حاسمة، إذا عرفنا كيف نستثمرها، ولا نهدرها عبثا كما فعلنا بفرص كثيرة، فالجزائر تتوفر على إطارات كفأة عالية، إذا نحن استطعنا أن نفرزها من الرداءة السائدة، ولنا هياكل قاعدية في مختلف المجالات تهينونا للقيام بوثبة وطنية حقيقية مع سعة مالية معتبرة، لتحقيق الحرية، وحل المشاكل العالقة بنظامنا وفي مقدمتها مشاكل الحكم، وترسيخ النظام الديمقراطي. القيام بثورة تربوية عصرية فعالة، وليس مجرد رتوش هنا وهناك، لا تغني مثقال ذرة فيما يعانيه نظامنا التربوي، إصلاحات عميقة في المنظومة الجامعية، ولا سيما ما يتعلق بالتأطير المستحق وتحديث البرامج، وتطوير منظومة البحث الجامعية وإنشاء نظام وطني للبحث العلمي، بكل ما تتطلبه شروط البحث العلمي، من توفير الكفاءات العلمية العالية الاختصاص والأموال الضرورية، وفي نفس السياق ينبغي إصلاح المنظومة الصحية بشكل جذري فهذه المنظومة الحيوية بالنسبة للمجتمع لا تؤدي وظائفها على الشكل المطلوب فهي تعرف فوضى في التسيير وسوء الخدمات العمومية.

والثورة الداخلية التي ينبغي أن تمس القطاعات الحيوية تحتاج إلى إعادة النظر

في تنظيم إدارتنا وتحسين أدائها لتستجيب للمتطلبات الجديدة التي يفرضها التطور.

ما تزال أمام الثورة الجزائرية أشواط ومهام كثيرة لاستكمال مشروع التحرر الوطني وعلى الأجيال الشابة أن تعي ذلك وأن تقوم بقراءتها الخاصة للثورة، فالثورة عمل بشري تحمل الصحة والخطأ، وهي بمبادئها وأهدافها الكبرى، لا تقتصر على جيل، ولا تحدد بزمان بل أن تعاقب الأجيال، والامتداد في الزمن يجعلها أكثر ثراء، وأكثر قابلية وانفتاحا على التطور.

فالثورة الجزائرية بانفتاحها على المستقبل، وبفضل الإصلاحات الكثيرة في مسيرتنا والتقويم العقلاني الرشيد على المستوى الداخلي يجعل اهتمامنا بامتداداتها الجهوية والقومية والانسانية أكثر حيوية فقد اكتسبت الثورة الجزائرية مكانتها من هذه الإمتدادات.

وقد كانت الثورة الجزائرية بهذه الإمتدادات مغاربية متأصلة ومتجذرة. فالجزائر التي هي قلب المغرب العربي، كانت دائما في مركز الأحداث التاريخية الكبرى. وكثيرا ما كانت هذه الأحداث تحسم على أرضها وبفعل أبنائها، فالاستعمار الروماني للمنطقة اندحر هنا.

وكان اعتناق الجزائر للإسلام حاسما في اجتيازه للمغرب والأندلس، وانتشاره في القارة الإفريقية وكانت معارك الجزائر ضد الصليبيين عاملا قويا في تقهقر الصليبيين والحيلولة دونهم ودون الاستيلاء على الرقعة الإسلامية الواسعة كانت الجزائر الهدف الأول للاستعمار وكانت معركتها من أجل الاستقلال وانتصارها الكبير في هذه المعركة عاملا قويا في أندحار الإستعمار ليس في القارة الإفريقية فحسب بل وفي العالم.

لقد وعى الأمير عبد القادر وهو يواجه الغزو الاستعماري أهمية الرقعة المغاربية

واتساعها، مما يجعل ابتلاعها من طرف الاستعمار من الأمور المستحيلة، ولكن وعي المنطقة بلا وعي حكامها كان دون الوعي العميق الذي كان يبصر الأمير.

وكان حمدان خوجة السياسي اللامع قوي الإدراك بهذه الحقيقة، فبذل جهداً مضنياً لإقناع حكام المنطقة بأهمية تلاحم المنطقة.

بل إن سعة أفقه دفعته إلى محاولة إقناع الخلافة العثمانية بالنتائج الخطيرة على الخلافة وعلى الإسلام إذا تم احتلال الجزائر.

وكان نجم شمال إفريقيا، وهو أول تنظيم في المنطقة من أجل الاستقلال، وكان نشيده المنتشر «حيوا إفريقيا، حيوا هذا الشمال»، وكانت الأحزاب المغاربية امتداداً لهذا التنظيم فتفرعت عنه الحركات السياسية الكبرى، حزب الشعب الجزائري في الجزائر، وحزب الاستقلال في المغرب، والحزب الدستوري التونسي، وقد أعطت حركة الأمير عبد الكريم الخطابي بعداً تضامنياً وعملياً واسعاً، سواء أثناء المعركة حيث كان ابن الأمير عبد القادر عبد المالك يحارب بجانبه، وكان بجانبه في الرأي والعمل السياسي على الخصوص.

هذا الرجل الفريد الذي كان أمة واحدة وكان يحمل الجزائر على كاهليه، مدافعاً عنها أينما كان في ترحاله الواسع إلى أن استشهد وهو ضمن وفد مغاربي كان قاصداً المؤتمر الإسلامي في باكستان.

وفي معركة الاستقلال التحمت شعوب المغرب العربي في هذه المعركة فكان المقاومون المغاربة والتونسيون على صلة بالمناضلين الجزائريين في المنظمة الخاصة، وعندما كان المساجين من البلدين الشقيقين يزوج بهما في سجون الجزائر كان الشعب الجزائري يستقبلهم كأبطال يقدم لهم المساعدة ويتضامن معهم، وعندما نفى الملك محمد الخامس العظيم، توقف الجزائريون عن الإحتفال بعيد الأضحى وإقامة الأعراس حتى استقلال الجزائر وكان من أسباب أحداث عشرين أوت

1955 هو التضامن من الملك محمد الخامس، ورمز لشمولية المعركة، وكانت ليبيا شعباً وحكومة وأرضاً منطقة محررة للمجاهدين الجزائريين، كما كان جزائريون في جيش عمر المختار وكان منهم من المقربين إليه.

ومنذ الاستقلال والجزائر وإلى الآن وهي تسعى وعلى اقتناع كامل للقيام بنظام مغاربي مندمج تحت أي صيغة من الصيغ تكون مقبولة من الجميع. ولكن المغرب الشقيق وللأسف الشديد ومنذ 1975 وهو يضع العصا في عجلة بناء المغرب العربي، وقد ضيع علينا 30 سنة هدراً، وهي مدة ليست بالقصيرة، كان يمكن فيها إنجاز أشياء تاريخية عظيمة.

فمنذ احتلاله للصحراء الغربية في ظروف استثنائية، كانت إسبانيا المستعمرة تجتاز فيها أزمة نهاية «الجنرال فرانكو» ومنذ ذلك الوقت وهو يدعي بأن الصحراء الغربية هي «أرض مغربية»، وأن الجزائر تنازعه هذا «الحق» وتحول دونه ودون تحقيق وحدته الترابية، وأنه لا يمكن القيام أي بناء مغاربي ما لم يعترف له بهذا «الحق». ورغم أن الجزائر ردت دائما على هذا الإدعاء بأن قضية الصحراء الغربية قضية تصفية استعمار، وأن الأمر يتعلق بمسؤولية الأمم المتحدة، وبحق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره. وللأسف فإن المغرب الشقيق لم يشف من هوس التوسع الترابي تحت أوهام تاريخية لم تعترف له بها هيئة دولية سياسية أم قانونية، فقد شن الحرب على الجزائر في سنة 1963 وهي لم تضمد جراحها بعد وأنكر استقلال موريتانيا ولم يعترف بهذا الاستقلال إلا باعتراف دول العالم به. وكان للجزائر الفضل في تحسين العلاقة بين البلدين.

يتشبث المغرب «بحقه» في الصحراء الغربية وهو يعلم جيدا بأن الشعب الصحراوي كان مستعمراً من طرف إسبانيا، كما كانت المغرب والجزائر وتونس وليبيا مستعمرات فرنسية وإيطالية وأن شعوب هذه البلدان قد نالت كلها

استقلالها بطرق مختلفة، والشعب الصحراوي ليس استثناء من هذا. وتسهيلاً لحل المشكلة وإنهاء الإحتلال قدم الشعب الصحراوي عن طريق ممثليه تنازلات هامة عندما اعترف بأنه مستعد للانضمام إلى المغرب إذا تم ذلك عن طريق إستفتاء حر تحت إشراف الأمم المتحدة، ومنظمات دولية مستقلة.

فقوة المغرب الشقيق في هذا التلهف غير المشروع وراء أراضي وحقوق لا يملكها إنما قوته في بناء مغاربي قوي، وأن الصحراء الغربية المستقلة لا يمكن أن تكون إلا في هذا البناء وبالتأكيد أن المغرب بما يملكه من طاقات بشرية هائلة، وإمكانات مادية من تراث حضاري وثقافي غني يكون قطباً مهماً في هذا البناء، فكما هو معلوم فإن الأمم في عصرنا لا تقوى بالمساحات التي تملكها ولا بمالها من ماض عريق، وإنما بعقولها وأفكارها ومساهماتها في التقدم الإنساني. ونحن في المغرب العربي لا يمكن أن نقوى، ونحصن مكائنا في المجموعة البشرية المتقدمة إلا بجمع عقولنا المشتتة عبر العالم، واستغلال ثرواتنا المادية والبشرية بعقل جماعي وفق استراتيجية مستقبلية. فالغرب اليوم سيما أوروبا المجاورة، وأمريكا التي تسعى للسيطرة على العالم أصبح يقلقها عجزنا عن إقامة نظام مغاربي متحد ومنسجم، وهو يطالبنا في كل مناسبة بالتعجيل بإقامة هذا النظام وإذا لم نقم به وإرادتنا، ووفق مصالح شعوبنا، فسيرغمنا على بنائه كما يريد وحسب مصالحه.

الثورة الجزائرية كانت ثورة عربية لحماً ودماً وعظماً وروحاً، جغرافياً وتاريخياً وجدانا ومشاركة، وتأثيراً قوياً في حركة التحرر العربي المعاصرة، هذا التأثير يمتد إلى ثورة الأمير عبد القادر، وإلى هجرته إلى الشام وإسهامه وأبناء وطنه في حركة النهضة العربية: «شمس محمد طلعت من المشرق، وأن شمس الثورة الجزائرية طلعت من المغرب» هكذا عبر المناضل الكبير والمجاهد في صفوف الثورة، الطبيب السوري الذي تطوع مع فوج من الأطباء السوريين المتخرجين للالتحاق بالثورة. ويعيش

الآن بيننا بعدما أدى واجبه بمساهمته في بناء منظومتنا الصحية في الاستقلال كواحد من الأطباء الجزائريين، وما يزال من أكثر الناس الغيورين على مصير ثورتنا، يفرح لفرحها ويتألم لآلمها أنه المناضل الدكتور إبراهيم ما خوس أطل الله عمره وجزاه عن أمته خيرا.

هذه الكلمة القصيرة مع الفارق في المقارنة بين المشبه والمشبه به، ولم نكن نحن الذين أردنا أن تكون ثورتنا عربية، نحن فجرناها في أول نوفمبر في جبال ووهاد وسهول وصحاري الجزائر ولكن الجغرافية وأحداث التاريخ الكبرى في المحيط العربي الإسلامي الواسع والهوية الثقافية والدينية واللغوية والمشاركة الوجدانية والمادية هي التي جعلتها كذلك.

كانت الثورة المصرية ثورة يوليو 1952 أول دوي هائل في المحيط العربي الراكد، هذا المحيط الذي كانت تتقاسه الأباطوريان الإستعماريان شرقاً وغرباً، بريطانية في المشرق ومنافستها فرنسا في المغرب لقد نقلت هذه الثورة العالم العربي من المجهول إلى المعلوم، وبينما كانت الثورة المصرية، وهي وحيدة في العالم العربية، تحدد خطواتها الأولى، متوجسة من ردود الفعل المعادية ولا سيما أن القواعد البريطانية ما تزال في القناة، تندلع الثورة الجزائرية لتكون حدثاً تاريخياً آخر في منطقة المغرب العربي، ثورة لم تكن تنتظرها القيادة المصرية، بالشكل الذي ظهرت به، ولكنها سرعان ما أدركت مغزي هذا الحدث، ومدى تأثيراته وتفاعلاته مع الثورة المصرية وفي العالم العربي، فوضعت قدراتها المتاحة في مساندة الثورة الجزائرية. وتمدها بالسلاح، وتوفر لها الدعم السياسي من باندوغ إلى الهند ويوغسلافيا والأمم المتحدة، وبسرعة أصبح عمالقة عدم الانحياز «نهر، سوكارنو، تيتو، عبد الناصر» في صف ثورتنا التي تحولت فيما بعد إلى قوة رئيسية فاعلة في الثورة وسبقت قيام الثورة في مصر، وفي الجزائر أهم أحداث العالم العربي في النصف الثاني من القرن

العشرين، الثورتان اللتان وضعتا العالم العربي في قلب الأحداث العالمية، وجعلت من قوة التحرر العربية قوة فاعلة في تصفية الاستعمار، والدفاع عن مصالح الشعوب المستقلة، الأمر الذي أعطى لهذه الحركة مكانة خاصة جعلها في موقع القيادة وكان يمكن لهذه الحركة، لو استمرت، ولولا عوامل الردة والخيانة التي أعقبت حرب 1967، وما تبعها من تراجعات خطيرة لولا هذا لكان العالم العربي اليوم في قلب الأحداث محاوراً وفاعلاً، وليس مجرد لقمة سائغة في فم إسرائيل والولايات المتحدة ومطمعاً للمغامرين والطامعين. عاجزاً عن الدفاع حتى عن أبسط الأمور التي تحفظ الكرامة القوية، فالشعب الفلسطيني يباد أمام أعيننا من طرف إسرائيل، والولايات المتحدة تكرر استعمال الفيتو لتجنب إسرائيل الجهة المعتدية العنصرية أية إدانة من طرف المجموعة الدولية، وهو احتقار لجميع العرب بشعوبهم وأنظمتهم المختلفة من غير أن يرفع هؤلاء حتى رؤوسهم باللوم. والعراق تاريخ مجد العرب يحتل ويمزق وتسيل دماؤه أنهاراً في صمت عربي رهيب، بل هناك من يتشفى ومن يشارك خفية وأحياناً علانية في الجريمة البشعة التي تقترب في حق شعب العراق، المحطمة دولته، المنتهبة ثرواته، المنتهكة أعراضه، إن الزمن نفسه يخجل مما نحن فيه من تقهقر وإذلال واحتقار.

لقد دفعت الجزائر ثمناً باهضاً لثورتها المنتصرة مليون ونصف مليون من الشهداء ما عدا الكوارث الاقتصادية والاجتماعية التي أحدثها النظام الاستعماري طيلة قرن واثنين وثلاثين سنة، ودفعت ثمن الإرهاب الهمجى الذي سلط عليها انتقاماً من مواقفها الوطنية واستقلال رأيها السياسي، ودفاعها عن الشعوب المقهورة سواء بسبب الاستعمار المباشر، أو بسبب الأطماع في ثرواتها الوطنية، كما دفعت الثورة المصرية ثمناً باهضاً «حرب قناة السويس» «حرب اليمن» «حرب 1967» الضغوط والمساومات الاقتصادية دفعت الثمن لأنها أرادت أن لا يكون الوطن العربي جثة

هامدة وصيدا للأطماع الأجنبية، وأن يكون العرب قوة متماسكة متضامنة متطورة قادرة على الدفاع عن ذاتها ومصالحها. ولأن مصر أرادت أن تكون قوة عصرية في مواجهة الغطرسة الاستعمارية. وها أننا اليوم أمام وضع في غاية الشذوذ نتيجة الردة، يراد لبلدان المغرب العربي أن تتوحد لا من أجل استقلالها وازدهارها، وجعلها قوة مكافئة لأوروبا على مستوى الند، وإنما لتكون جدارا يحميها ويحمي أمتها ومصالحها من هجرة «الهمج» القادمين من الجنوب، حتى ولو في جماعة انتحارية في سفن اللصوص والمغامرين، وأن تكون بلدان المشرق جدراناً محصنة لحماية إسرائيل وأن تكون الأموال العربية فدية تقدم لها مكافأة على إبادتها للشعب الفلسطيني الأعزل.

لقد أحدثت الثورة الجزائرية دويماً ليس في منطقة المغرب العربي وحدها بل في العالم العربي الإسلامي على سعة رقعته، وهزت القارة الإفريقية من الجذور، وكان لها صداها العميق في كامل قارات العالم. ففي المشرق كان الشارع العربي مهرجاناً تضامنياً دائماً مع الثورة الجزائرية، المظاهرات الصاخبة، الأناشيد، الأشعار المقالات الضافية الأسابيع الجزائرية. ففي سوريا الشقيقة أسقطت حكومة لأنها عقدت صفقة قمح مع فرنسا، تجمهر الشعب السوري في الشارع إلى أن سقطت الحكومة في أسبوع تضامني مع الجزائر جاء «أكرم الحوراني» الزعيم السوري، وكان وقتها نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة، جاء مع زوجته في سيارة جديدة فترك السيارة وتركت زوجته ما كانت تحمل من مصوغات وعادا راجلين إلى منزلهما تلك العروس اللبية التي كانت تحمل جهازها الجديد فوجدت تجمعا للتضامن مع الثورة الجزائرية، فأعطت جهازها كاملاً للتجمع رافضة أن تأخذ معها ولو قطعة للذكرى وذلك المناضل الليبي الذي هرب الأسلحة من قاعدة «ولز» إلى الثورة عبر قنوات المجاري.

كان العراق عرسا للثورة الجزائرية، كان الشارع يغلي بالمظاهرات والأناشيد والأشعار، وكانت القضية الجزائرية قضية الشعب العراقي الأولى، يروى أن البرلمان العراقي وجد ثغرة مالية لدى الحكومة وكان «نوري السعيد» رئيسا لها وعندما أخرج طلب جلسة مغلقة وحلف النواب على المصحف، وعندما تم ذلك أخبرهم بأن الثغرة المالية هي قيمة دفعت للثورة الجزائرية وأن هيمنة بريطانية على العراق وعلى المشرق وهي حليفة فرنسا لا تقبل ذلك.

وفي العراق كان عبد الكريم قاسم قائد الثورة العراقية ورئيس الجمهورية فاتحا أبوابه كلها للثورة الجزائرية. وحسب رواية المناضل المرحوم محمد القصورى، وكان ممثلا للثورة الجزائرية يدخل عليه في كل وقت، مدى الأربع والعشرين ساعة، وكان يقدم كل ما تطلبه الثورة من مال وعتاد، معذرا عن التقصير وإن كان المطلوب غير موجود يطلب مهلة لتحضيره، وعلى الجزائر الوفية أن تكرم هذا الرجل وتوفيه حقه وأن هذا التكريم لا دخل له في العلاقات العراقية - العراقية، ولا في مشاكله الداخلية.

ولم يكن الأردن ولا لبنان مقصرا في دعم الثورة الجزائرية، ولم تبخل بلدان الخليج بما كان متاحا لها في ذلك الوقت، وفلسطين التي كانت ما تزال جروح النكبة تذرّف، كان تعاطفها مع الجزائر لا حد له، كان شعراؤها يبكون الدمعة الفلسطينية ويشدون على أزر الثورة الجزائرية، وكان أحمد الشقيري رحمه الله الصوت الأكثر دويّا في الأمم المتحدة دفاعا عن القضية الجزائرية وكان حينها ممثلا للمملكة العربية السعودية.

ونحن نتحدث عن تجذير الثورة الجزائرية في العالم العربي لا يمكن إلا أن نتحدث عن امتداداتها إلى العالم الإسلامي في آسيا. فقد كانت أندونيسيا أول سند للجزائر في قضيتها عندما استقبلت وفد الجبهة في مؤتمر باندونغ، ثم في المحافل

الدولية بعد ذلك، كما فتحت مقرأً للجبهة في جاكارتا، وكان من الممثلين في هذه البعثة، المرحوم الصديق بن يحيى والأخضر الإبراهيمي الذي ما تزال تربطه علاقات واسعة بهذا البلد الإسلامي الكبير، ويروى أن محمد الصديق بن يحيى لم يطل في مكتب الجبهة وطالب في رسالة من قيادة الجبهة أن تغلق المكتب لأن أندونيسيا معنا بصفة مطلقة ولا تحتاج إلى بعثة ومن الأفضل أن تنقل مكتب الجبهة إلى بلد نحتاج إلى تأييدها وكانت باكستان لا تقل دعماً للثورة من أندونيسيا، وكان ظفر الله خان مندوبها في الأمم المتحدة من أقوى الأصوات دفاعاً عن القضية الجزائرية، وفي إيران وتركيا رغم أن الأولى كانت ترزح تحت نظام الشاه المتحالف مع الغرب، وتركيا كانت عضواً في الحلف الأطلسي فإن شعوب هذين البلدين كانتا مع الثورة الجزائرية ويروى «عن الإمام الخميني» حسب المرحوم مولود قاسم أن الثورة الإيرانية تعلمت من الثورة الجزائرية، وعند قطع العلاقات مع أمريكا لن تجد إيران غير الجزائر محل ثقة لتمثيل بعثتها الدبلوماسية في واشنطن، وكانت الجزائر هي التي حلت أزمة الرهائن الأمريكية، ولو أن الأزمة لم تحل لكانت الحرب الأمريكية على إيران قد شنت قبل عقدين من الحرب على العراق.

ولقد كانت الثورة الجزائرية ثورة إفريقية بامتياز وبكل المقاييس السياسية والمادية، فبالإضافة إلى أن اندلاع ثورتنا قد عجل باستقلال الشقيقتين المغرب وتونس فإن الجزائر كانت حاضرة في معظم استقلاليات البلدان الإفريقية، فمن ناحية: أن الثورة الجزائرية كانت سبباً مباشراً في إنهاء الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية في إفريقيا وأن من المشاكل العالقة في العلاقات الجزائرية - الفرنسية يرجع في جزء منه إلى هذا السبب فقد كانت فرنسا تخشى دائماً، من نفوذ الجزائر المستقلة في مستعمراتها الإفريقية، بل إن موقفها من قضية الصحراء الغربية يعود

إلى نفس السبب تقريبا، وإن كثيرا من الانقلابات التي وقعت في البلدان التي كانت تحت الاستعمار الفرنسي كانت محاصرة النفوذ الجزائري.

وكانت الثورة الجزائرية حاضرة بقوة في استقلال المستعمرات البرتغالية، ومعظم المفاوضات التي جرت بين البرتغال والمستعمرات التابعة له جرت في الجزائر وبحضور الجزائريين، كما كان موقف الجزائريين من قضايا جنوب إفريقيا وناميبيا والموزمبيق حاسماً، كما كان موقف الجزائر الحازم المدعم ماديا، وبقوة لمنع تفكيك نيجيريا في الحرب التي شنت عليها في «بيافر». وقبل ذلك كانت نيجيريا المستقلة قد قطعت علاقاتها مع فرنسا عند تفجير قبلتها الذرية في صحراء الجزائر.

وفي الحديث عن إفريقية الثورة الجزائرية يجدر التذكير برجال عظماء كانوا سندا قويا لثورتنا منهم الرؤساء الكبار، «أحمد سيكتوري، موديب كيتا، كوامي نكرومة، ونسجل هنا الدعم الكبير الذي قدمته الجزائر لحركات التحرير الإفريقية، ودعمها بالمال والسلاح وإيواء مناضليها في أراضيها مما جعل مناضلا إفريقيا كبيرا هو المناضل «كابرال» يقول كلمته التاريخية الصادقة «إن الجزائر هي كعبة الأحرار».

وقد قدمت الجزائر المستقلة الدعم الكامل للبلدان الإفريقية الناشئة فكونت عشرات الآلاف من الكوادر الإفريقية المؤهلة في جامعاتها وفي كل التخصصات، وما تزال إلى اليوم وفيه لخطها الإفريقي، تكافح عن إفريقيا في كل المحافل السياسية والاقتصادية والتجارية، وأن المحور الجزائري - النيجيري - الجنوب الإفريقي، وهو يشكل أهم ثلاث بلدان إفريقية، يقوم بدور هام في وقف التدهور الإفريقي الناجم عن تكرار الأزمات، والتدخلات الأجنبية فقد أصبح المحور مدافعا قويا عن المصالح الإفريقية الحيوية، بل أصبح محاورا معتبرا باسم إفريقيا في المحافل الدولية، وأمام الدول الصناعية الكبرى، ورأيه مسموعا ومحترما في القضايا الإفريقية الحاسمة.

وإذا كانت هذه الامتدادات المغاربية العربية الإسلامية الإفريقية جغرافية

تاريخية ثقافية حضارية مباشرة، فإن امتدادات الثورة الجزائرية تجاوزت ذلك إلى محيط جغرافي وإنساني أوسع. ففي آسيا كانت الصين القوة الرئيسية في دعم الثورة، وكانت من الدول الأولى التي اعترفت بالحكومة المؤقتة، معتبرة ثورتنا ثورة شعبية أصيلة لها شخصيتها وخصوصيتها مثل الثورة الصينية لا تخضع لأيّة إيديولوجية مفروضة كما كانت الثورة الجزائرية في تفاعل تاريخي متميز منذ العلاقة بين «هو شي منه»، «والحاج مصالي» في مطلع القرن العشرين في فرنسا، وقد فر الكثير من المجندين الجزائريين من الجيش الفرنسي في الفيتنام لينضموا للثورة الجزائرية بل منهم من انضم إلى المقاومة التونسية وبعد الاستقلال كانت الجزائر سنداً قويا للفيتنام في ثورته البطولية التي هزمت ثلاث امبراطوريات متتالية وهي: الثورة التي تشبه ثورتنا فيما قدمته من تضحيات، وإصرارها الحفاظ على خصوصيتها، رغم أنها كانت في قلب عمالقة الصراع في الحرب الباردة.

وقد كانت الثورة الجزائرية حاضرة بقوة في أمريكا اللاتينية التي كانت تترشح تحت الدكتاتوريات التي نصبته المخابرات الأمريكية، وجعلت ستاراً حديدياً على شعوب جنوب القارة الأمريكية، ف وراء هذا الستار كان الطلاب في أمريكا اللاتينية وأحزاب المعارضة بجانب الثورة، بل أن ثورتنا كانت قوة أمل وإلهام لنضال تلك الشعوب. وفي الجزائر المستقلة وجد السياسيون والمناضلون والإطارات المطاردون من الأنظمة الدكتاتورية القمعية، والمخابرات الأمريكية، ملجأً آمناً توفرت فيه الحماية الكرامة وما تزال الجزائر في وجدان النخبة السياسية والثقافية الأمريكية اللاتينية بل كان هناك تشابه كبير بين تطلعات شعبنا التي أيقظتها ثورة نوفمبر وتلك التطلعات التي تكونت لدى شعوب جنوب القارة الأمريكية.

وقد امتد وجود ثورتنا إلى أوروبا بقسميها الشرقي والغربي الذي كان محدداً أثناء الحرب الباردة فكان اليسار كله بامتداداته الطلابية والشبانية، وبمثقفيه وسياسيه

مع الثورة الجزائرية باستثناء الحزب الاشتراكي، والحزب الشيوعي في الفترات الأولى للثورة والذي لم يغير موقفه إلا قبيل الاستقلال، وكانت شخصيات أوروبية لامعة: أولف بالم، ويلي برانت، جان بول سارتر، والقائمة طويلة هذا في أوروبا الغربية، أما أوروبا الشرقية فقد كانت دولها في معظمها تصوت لجانب لقضية الجزائرية في الأمم المتحدة.

وفي هذا المقام ينبغي التنويه بموقف يوغوسلافيا وما قدمته لثورتنا من دعم مادي وإنساني وعلى الساحة الدولية بما كان لها من تأثير.

وهناك شخصيات يجب التنويه بها، وأن تجد مكانتها في ساحاتنا وشوارعنا: جمال عبد الناصر، نهرو، شوان لاي، بروز تينو، أحمد سوكراتو كقادة بارزين ومؤسسين لحركة عدم الإنحياز، محمود فوزي وزير خارجية مصر، ظفر الله الدخان، أحمد الشقيري، شارل مالك اللبناني، فقد كانت هذه الأصوات عالية جدا في الدفاع عن القضية الجزائرية في أورقة الأمم المتحدة.

إن الإمتداد الواسع للثورة الجزائرية، سواء كان هذا الإمتداد قريبا، حضارياً دينياً جغرافياً أم امتداداً إنسانياً كان نتيجة القيم الوطنية والإنسانية التي مثلتها ثورتنا بل هي القيم الأصيلة لشعبنا التي صقلتها أحداث التاريخ الكبرى، وهي القيم ذاتها التي تشكل هويتنا في معناها الواسع، وقد تفتن لهذه الهوية ومكوناتها الإمام عبد الحميد بن باديس «قبل اندلاع الثورة بعقود في مقاله الشهير: لمن أعيش» والذي جاء فيه: أعيش للجزائر ثم لهذا الشمال (المغرب العربي)، ثم للأمة العربية، ثم للأمة الإسلامية ثم للإنسانية ولكن لا أستطيع أن أخدم أي جهة من هذه الجهات إذا لم أخدم الجزائر.

ومعلوم أن هذا المحيط الواسع، والذي فتحته الثورة الجزائرية كان من ثمرات مشاركة شعبنا في الأحداث التاريخية الكبرى، ونتيجة لشجاعته وإصراره في

التشبث بالحرية، والدفاع عن حقه في الحياة وفي السيادة، ولم يكن امتداد الثورة الجزائرية في محيطها القريب والبعيد، محاولة لتوسيع النفوذ والتأثير. وإنما توسع اكتساب للإمكانات الهائلة التي تتوفر عليها الانسانية. وقد لخص هذه الحقيقة الأستاذ محمد الصديق بن يحيى في جملة مختصرة عن طريق سؤال واحد عندما كان يشرف على عملية الإصلاح الكبير، إصلاح التعليم العالي والبحث العلمي، كان النقاش يجري حول تعليم اللغات الأجنبية، وعندما كان الحوار مستغرقاً حول المناهج والاختبارات في البرامج، طرح بن يحيى السؤال التالي، ماذا نريد؟ هل نفتح العالم أمام الجزائر، أم الجزائر أمام العالم؟ وبالنسبة للسذج وقصيري النظر فإنه لا يوجد تعارض بين انفتاح الجزائر للعالم وانفتاح العالم أمامها، أما بالنسبة لطارج السؤال فإن الفارق كبير يحدد مسيرة الجزائر ومسيرة ثورتها: فانفتاح العالم أمام الجزائر يعني قدرة الجزائر على التأقلم والاستفادة من مكتسبات العالم الواسع بتجاربه المختلفة العلمية والتكنولوجية والثقافية والمادية بإرادتها الحرة، ورؤيتها الخاصة وحسب حاجاتها، أما فتح الجزائر أمام العالم، بدون تحديد استراتيجيتها في العالم الذي تنفتح عليه ستكون مجرد ساحة تتصارع فيها مصالح الدول الكبرى، رغم إرادة الجزائريين.

إننا ونحن نحتفل بالذكرى الخمسين للثورة الجزائرية لا بد أن نعيد النظر في مسيرتنا الوطنية في ضوء المكاسب العظيمة التي حققها ثورتنا، والإمكانات الواسعة التي فتحتها أمامنا، بل علينا أن نعيد المواقع التي فقدناها في سنوات الردة والتراجع، وقصور الهمة، إنه عمل جبار ينتظرنا. وإن العبء الأكبر يقع على دبلوماسيتنا التي ينبغي أن نعيد لها الحيوية والفعالية والمصدقية التي عرفت بها، رغم نشأتها وأن نعمل على استثمار علاقاتنا الدولية المتميزة للإسراع باستيعاب الإنجازات الهائلة التي حققها الأمم المتقدمة عن طريق تعاون واسع ومفتوح خاضع لاستراتيجية براغماتية محكمة.

إن الإحتفال بالذكرى الخمسين ينبغي أن يكون قطيعة مع تلك الإنحرافات والتراهاات التي اعترضتنا في طريقنا، والتي أصبحت تهددنا بالضياغ، أن نعيد للدولة أعتبارها، والمؤسسات فعاليتها وأستقلاليتها ولاسيما المؤسسات التشريعية والقضائية، فلا يمكن أن نتحدث عن الدولة العصرية التي هي في الأساس دولة القانون ولا نظام ديمقراطي بدون تعددية صحيحة تضمن التمثيل الشعبي.

كما أن الذكرى ينبغي أن تكون نقلة نوعية لثورة أول نوفمبر العظيمة بالمزيد من الحرية العقلية أولا وقبل كل شيء، ومن ثم الحرية السياسية والحريات الأساسية للمواطن بما يضمن العدل والمساواة وإتاحة الفرص، بما يضمن الكرامة الإنسانية في أوسع معانيها وإصلاحات عميقة تنتظرنا في هذه النقلة النوعية. إننا تحدثنا كثيرا ومنذ أكثر من عقدين عن الإصلاحات، وما نزال ندور حول أنفسنا لأننا أردنا أن تكون إصلاحات بيروقراطية من دون إستراتيجية لتسيير الدولة وشؤون البلاد، وبدون رؤية فلسفية إجتماعية أخلاقية لتطوير المجتمع، بدون رؤية ثقافية تعيد صياغة الأمة في إطار ما نطمح إليه من تقدم وإزدهار، أي أن يكون لنا مشروع وطني واضح تتعبأ حوله الأمة، مشروع مجتمع كامل نحقق به الوثبة الحضارية، وهذا يعني إخراج الرداءة من الدولة ومن الحياة السياسية والفكرية، بإبعاد الهواة والطماعين، وأصحاب النفوس والسلوكات المنحطة.

إن الجزائر تتوفر على كامل الشروط لهذه النقلة النوعية وأن إدارة البلاد اليوم لا تعني تصريف الشؤون اليومية، الشؤون العادية، إنما يعني إدارة الإمكانيات البشرية والمادية الضخمة، بحكمة وعقلانية، بعيدا عن البيروقراطية والابتذال السياسي والاستخفاف بمهام الدولة وتجاهل المجتمع والقوة الحية فيه أي أن نقوم بالثورة في الثورة.

“أهم تحديات الأسرة الجزائرية و الرهانات المطروحة أمامها”.

الأستاذ : بوتخيل معطي

جامعة سعد دحلب - البليدة -

لقد اعتنى الإسلام أيما عناية بمؤسسة الأسرة بحيث إنه لا وجود لأمر اجتماعي حظي في القرآن الكريم كما حظيت به الأسرة من تنزيل لنصوص قرآنية التي غالبا ما تقرر الكليات و القواعد العامة لتترك التفصيل في المواضيع للسنة المطهرة . إلا أنه في مجال الأسرة نجد القرآن الكريم قد تولى أدق التفاصيل وبالخصوص تلك المتعلقة بإقامة العلاقة الزوجية ، الطلاق و المواريث فكيف تتعامل الأسر الجزائرية مع الضوابط الإسلامية المتعلقة : بإنشائها ، بالمعاملات بين الزوجين و بقية الأهل ، بفض النزاعات القائمة بين الزوجين و كذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين العائلتين المتصاهرتين بعد حدوث الطلاق ؟

الإجابة على هاته الأسئلة يمكن أن تمدنا بمعرفة الأسر الجزائرية و آليات العيش من الداخل ، لكن الأسر تعيش إكراهات خارجية متعددة الإكراهات التي تفرض عليها تحديات متنوعة و معقدة في مجالات : إقتصادية ، قانونية ، ثقافية و سياسية.

إن الحياة الأسرية إن كانت متوازنة فسوف تؤدي لا محالة إلى توازن بقية المؤسسات الثقافية الاجتماعية والإقتصادية ، ذلك أن المخزون البشري المكون في المؤسسة القاعدية “ الأسرة ” الأساس هو الذي يحتل أدوارا في بقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى سواء أكانت إقتصادية سياسية او ثقافية. ولما لهذا التأثير المؤسساتي المتبادل من أهمية قصوى فإننا نركز على أهم التحديات التي على الأسر الجزائرية رفعها .

المؤكد أن المجتمع الجزائري يتحرك بسرعة مذهلة قد لا يكون هذا التغيير في اتجاه واحد بل قد يصل إلى أقصى درجة. 180 ° مثل ما هو الأمر فيما يخص التحول من السير وفق النظام الإشتراكي. إلى محاولة تجسيد نظام آخر نقيض له تماما - النظام الرأسمالي - . إضافة إلى ذلك المحيط الدولي الذي صار بإمكانه إلحاق إكراهات أكيدة بكل المجتمعات. و ذلك بعد بروز عالم الإتصالات والمعلوماتية المرتبطة بالشبكات الخارجية و الداخلية ، يصعب معها العيش في انزواء و انغلاق على الفروقات الثقافية و إن تعلق الأمر بأخص الجوانب خصوصية و هو الأسرة . و من ثم صار ما يحدث في العالم هو المحرك للشعوب المستضعفة العديمة الحصانة الداخلية و خاصة من حيث المطالبة بنفس الحقوق و الإمتيازات ، ذلك أنه يصعب على الدول الضعيفة مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي ، فتحاول مواكبة ما يمكن مواكبته. أو هكذا تتصور من خلال تقمصها لبعض القوانين والمفاهيم المتداولة في العالم المتقدم. و التي ينتجها بغرض خدمة مصالحه أولا و أخيرا.

فالبناء الأسري صار نادرا ، مع تبني أنماط المخادنة. و العائلة الأحادية الجنس، بيد أن الحاجيات الجنسية صارت مقضية حسبما توصل إليه الغرب من مفاهيم : الحرية و الفردانية.

أهم التحديات :

اننا ندعو إلى تعزيز بناء الأسرة لا تفكيكها . و من هنا يظهر أول تحدٍّ للأسرة الجزائرية. ألا وهو العولمة أو الشمولية الثقافية. التي تفرض نفسها من طرف بعض القنوات الرسمية كالقوانين الدولية. و بالخصوص تلك التي لها علاقة بالأفراد و الأسر. نذكر منها على وجه الخصوص بنود " حقوق الانسان " . أما ثاني تحدي هو أن تصل الأسرة الجزائرية إلى أن تعي واقعها المعقد المتمسم بالتأزم و الحركية السريعة .

ثالث تحدُّ أن تتجنب القطبية في السلوك المتمسك بالتقاليد و الجمود. أو تقليد الغرب و التفسخ و الإنسلاخ من كل ماهو خصوصي. وأن نتفقه في الدين قصد اتباعه عن علم و تبصر. ذلك أن الدين هو سر تماسك أُسْرنا و مجتمعنا. و لا يمكن تطبيقه إلا بالعلم .

و العلم نحن الآن أبعد ما نكون عنه. فلا منهجية صارمة متبعة. و لا تفكير في شؤوننا بما يمليه علينا ديننا. و صار الإنسان المسلم مزدوج الشخصية :

قد يتعبد و ينضبط في تعبده بالتعاليم الإسلامية . ولكنه في مجال المعاملات الإجتماعية و إن نزل فيها نص صريح لا لبس أو غموض فيه إلا أنه لا يطبق أو يتبع ما جاء فيها . مع أن نظام المعاملات في الإسلام جزء من منهاج الله تعالى لعباده. و هاته الإزدواجية تعرفها القوانين الجزائية بحيث إن قانون الأسرة هو الوحيد المستمد من الشريعة الإسلامية . أما باقي القوانين فهي قوانين وضعية. فيها ما يتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية. كالقوانين المسيرة للبنوك. التي تعتمد النظام الربوي المحرم من طرف الإسلام.

رابع تحدي هو اعتمادنا الشبه الكلي على المفاهيم المنتجة في الغرب و تبنيها بصفة كلية. دون أيما تمحيص أو دراسة أو نقد. و لا نغير لها بالا إن تناقضت مع بعض المبادئ الإسلامية. و بالخصوص تلك المتعلقة بالأخلاق، ذلك أن الإسلام حرص على الخلق الكريم ~ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ~ مفتوحة بأداة حصر كما قال الرسول صلى الله عليه و سلم.

1- العولمة أو الشمولية الثقافية : إن صراع الحضارات قائم. و يعد

له الغرب عدته. و قد وضعوا الإسلام و المسلمين موضع الخصم. و يعملون كل ما في وسعهم لإضعافهم و إبقائهم في درجة التبعية. ليست الإقتصادية والتكنولوجية و العلمية. لأنه حاصل ومعروف مدرك بالضرورة. و لكن الهدف الحقيقي هو التبعية الثقافية ، الفكرية ، العقائدية و ما ينبثق منها من قوانين. حتى

و إن تعلق الأمر بأخص الخصائص التي تتعلق بالأحوال الشخصية أو تسيير الأسرة ؟

مشكلتنا كامنة في التخلف الحضاري الذي صرنا نمثله ، بحيث إن الغالب هو الذي ينشر مبادئه ، واعتقاداته و ثقافته على حساب المغلوب.و لو كانت ثقافته مجحفة يخدم بها مصالحه الخاصة دون ما مراعاة لأحقية مبادئك صوابها وصالحها للبشرية جمعاء.

و من ثم فإن الغالب ينتج وينحت ويستخدم مصطلحات تخدم أهدافه. فيروج لها و يسوقها فتصبح مفاهيمه هي المهيمنة و المسيطرة و لا يمكن إلا الانصياع و الإذعان لها.

مثال عن ذلك وصف القضية الفلسطينية **"بالإرهاب"**. و وصف العراق، كوريا الشمالية و إيران **"بمحور الشر"**. لأنها تريد امتلاك أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها أمريكا و إسرائيل و دول أخرى. و أن يبقى هذا التقدم التكنولوجي العسكري حكرا عليهم. كما أن مصطلح **"حقوق الإنسان"** يضيف الشرعية على كل التجاوزات و الإكراهات التي يمكن فرضها و ممارستها على الآخرين. بما في ذلك من **"حقوق المساواة بين الرجل و المرأة"** حسب المنظور الغربي. «بيت القصيد».

لا يجب أن نغفل عن تقدم أمريكا في مجال تكنولوجيا الإتصال، التي تسمح باستغلال كل الطاقات و الكفاءات البشرية المتوفرة لديها و كيف ما كانت. فتتمكن من تنظيم العلاقات و التبادلات الإجتماعية وفق معايير وقيم وأهداف تضعها هاته النظم. فتزيد من السيطرة على المفاهيم المتداولة في العالم. و من ثم لا تكون تكنولوجيا الإتصال مجرد توصيل المعلومات من الطرف الآخر ، ذلك أن التدفق إنما يتم من البلدان المتقدمة في اتجاه البلدان المتخلفة. فالإتصال هو محقق الهيمنة الثقافية حتى و إن تعلق الأمر بالأسرة. و مواجهة تيار العولمة الثقافية و الإجتماعية لا يمكن أن تكون ناجعة إلا إذا تمكنا من صياغة فكر متميز.

بين ما هو من التقاليد و ذلك الراجح إلى التقليد من ناحية و ذلك الثابت في كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

و نحاول التمسك بكل ما هو ثابت. و ذلك كوننا مسلمين و مؤمنين. و لا يمكن أن نرتد عن ديننا. و نعتمد الإجتهد في كل ما ترك للناس من تدبير شؤون حياتهم و ما أكثره. و لنؤقلمه مع احتياجاتنا الحالية و المستقبلية بدون الخروج على ما ثبت من نصوص القرآن و السنة الصحيحة. هذا الوعي الداخلي للمؤمنين هو الذي يكسبهم حصانة داخلية و يمكن من استمرار الإسلام إلى يوم الدين.

و لا يمكن الوصول لهاته الغاية إلا إذا قيضنا علماء ربانين يتمكنون من إيجاد الإنسجام الضروري بين المعتقد و ما يعترضهم من قضايا معيشية. و ملء الفراغ العقائدي. و الإنسجام بين الحياة المعاشة و مبادئ الإسلام. هذا الإنسجام الذي أضحى سمة من سمات شخصية الجزائري بالقطرة .

أول تحد هو الوعي الذي يجب أن تبلغه الأسرة بواقعها المعاش. و التغير الذي حدث في محيطها المباشر. هذا التغير الذي يؤثر عليها أيما تأثير بما فيه من تخلف اجتماعي. التخلف الذي انجرت عنه ظاهرة الفقر و ما صاحبها من صعوبات في الحياة الكريمة لغالبية الأسر من ناحية. و مكسب ارتفاع المستوى التعليمي لشرائح واسعة من أفراد الأسرة بما فيهم النساء. و ما ينجر عنه من تطلعات إلى مستويات معيشية أحسن من ناحية أخرى.

ظاهرة الفقر التي تسببت فيها الخيارات الإقتصادية الجديدة. من فك للمؤسسات الإقتصادية العمومية دون إنشاء مؤسسات خاصة ، الأمر الذي أدى إلى تفشي ظاهرة البطالة. التي مست بعض العمال المسرحين. مع صعوبة تشغيل الشباب العاطل. مما انجر عنه انخفاض المستوى المعاشي لغالبية الأسر. والدخل الذي لم يعد يؤمن لهم متطلبات الحياة المستدامة. بما في ذلك الغذاء الملائم و السكن المناسب و تأمين الحياة الصحية الضرورية.

ذلك أن الثروات تتجمع لدى أقليات محدودة جدا. بحيث إن نصف 1/2 السكان لا يحصل إلا على 1/4 الإستهلاك. بينما 10/1 السكان يحصل على 3/1 الإستهلاك سنة 1998 . [أنظر : د.و.إ. في مؤشرات الإستهلاك سنة 1998] و الأوضاع ما زالت تتفاقم.

انجر عن ظاهرة الفقر : صعوبة الحصول على سكن - الشرط الأساسي لبناء أسرة - و صعوبة إنشاء بيت الزوجية أدى إلى عزوبية متأخرة و عنوسة بالنسبة للذكور و الإناث على حد سواء.

أعقد مشكلة تواجه الأسرة الجزائرية حاليا هي مشكلة العنوسة . فإذا كان الذكر على وجه الخصوص ، من الناحية العرفية له تسهيلات في قضاء مآربه دون قيود أو شروط سواء من طرف الأهل أو المحيط .

فإن الإناث تخضع لرقابة خارجية و إكراهات عديدة ، إضافة إلى التحصينات الثقافية الداخلية للفتاة في الجزائر ، و التي تقف مانعا دون قضاء حاجتها إلا إذا كانت في الإطار الشرعي القانوني. هذا لا ينفي الإستثناءات من اللاتي يقبلن على البغاء و ما يترتب عنه من رضع مقتولين أو مسيبيين . و الاحصاءات مهما كانت دقيقة لا يمكنها الوقوف على الرقم الحقيقي لظاهرة البغاء لما يكتنفها من سرية و تكتم في الثقافة الجزائرية على وجه الخصوص و الاسلامية بصفة عامة. التكتم هذا يعتبر مؤشرا هاما للدلالة الضمنية على ان الفعل مشين باعتراف الفاعلين انفسهم . ولكنهم يقبلون عليه. فإن تعذر احصاء الأبناء غير الشرعيين . فكيف يمكن احصاء اللاتي يقعن في الزنى؟

و من المعروف من الدين بالضرورة أن الزنى محرم في الدين الإسلامي وبشكل قطعي على الرجال و النساء دون أدنى تمييز ، ذلك أن الحدود المطبقة شرعا متشابهة تماما. لا وجود فيها لأي تمييز بين الذكر و الأنثى. مصداقا لقوله تعالى . (الزانية و الزاني فاجدلا كل واحد منهما مائة جلدة و لا تاخذكم بهما

رافة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (« النور:2» .

و اعجب للذين يريدون منع تعدد الزوجات .التعدد الذي ان اقبل عليه المترفون المؤمنون لمساعد في ايجاد مخرج لكثير من النساء اللواتي لم تتزوجن بعد .عوض ان يقبل هؤلاء المترفون على اتخاذ الاخذان دون حساب لا لعددهن ولا لشرفهن و لا لمنتوجهن .

عدد الاطفال المجهولي الاصل يصعب الإلمام به .و لا يمكن انكار وجود الظاهرة .بالرغم من وجود وسائل منع الحمل دون أي قيود وفي متناول الجميع . و هنا يمكن التساؤل عن ممارسي الزنى اكرمكم الله من النساء و الرجال الذين يستعملون وسائل منع الحمل ؟.

و التعدد محدود جدا و يكاد يقتصر على الهضاب العليا و الصحراء .و هو يشهد تحاملا اعلاميا عوض ان يكون مخرجا لبعض مشاكلنا نحاول تحريره . افنحرم ما احل الله (التعدد) و نحل ما حرم الله (الزنى) ؟ .ثم نتساءل عن امكانية توسع انتشار ظاهرة ما يسمى (بآلام العازبة) .و نذكر بظاهرة العزوف عن الزواج من طرف الشباب . حتى و ان لم يكن في بلادنا اراديا بقدر ما هو قسريا نظرا للظروف المعاشية الدنيئة التي نعيشها .كما انه و بالنظر للتحصيل العلمي العالي للفتيات من المحتمل ان ترتفع نسب تشغيل النساء .خصوصا اذا ما تم تحرير الاقتصاد بصفة كلية . ووجود مستثمرين اجانب .فمع امتلاك المرأة وسائل نقل (سيارة خاصة) و الهاتف النقال الذي يسهل الاتصالات .بالاضافة الى امكانية الحصول على سكن .و تكتمل بذلك الشروط و الظروف المماثلة مع الغرب . و التي انتجت النفور الداخلي من تاسيس اسر سواء عند الرجال او النساء على حد سواء .

فتداخل الاسباب الاجتماعية من تاخير سن الزواج . وعدم الحصول على سكن. وانتشار و تفاقم البطالة. كلها مؤشرات تدل على امكانية تفاقم ظاهرة المعاشرة (المخادنة) و الانجاب اللاشعري. فهل من مخرج موافق للشرع ؟ .

2- اجتناب قطبية السلوك الاسري: اجتناب قطبية السلوك الاسري

بحيث أن الاسر إما تنغمس في التقاليد و تبقى حبيسة المواريث الثقافية المكتسبة. و اما انها تنغمس في التقليد لكل ما هو وافد من الغرب . و انها في الموقف الاول تعزز من التحجر و الجمود المناهض لاي تغير ايجابي .مجبرة اعضاءها على الفشل لانهم لا يتمكنون من التأقلم مع مستجدات الحياة .اما في الموقف الثاني فانها تتميع و تساير كل ما هو وارد من الخارج دون أي تمييز. بحجة مسaire العصر والتطور . و تفقد بذلك كل المعالم التي تميزها عن غيرها من الاسر . كما انها ترفض هي الاخرى من قبل الاسر التقليدية .

يجب ان نخرج اسرنا الاسلامية من هاته القطبية التي طغت على اسرنا. فننتقل من الدين الممارس بالتقاليد. الى الدين الذي يجب ممارسته عن علم ودراية من ناحية. مع الوعي الكامل لما يجري من تحولات داخل المجتمع وخارجه من ناحية اخرى . ثم الوصول الى الوعي بالانتماء الحضاري. ومواجهة صراع الحضارات القائم. مع العلم اننا في موقع الضعفاء . وعلينا التحصن بالدين الاسلامي الحقيقي و التشبث به . و بغية تحقيق ذلك:

1 - لا بد من دراسة الشريعة الاسلامية دراسة ضافية. و استنباط مبادئها الروحية. و التمييز بينها و بين الممارسات الاجتماعية التي مردها الى التقليد. ولو اتصفت بالضغط و الاكراه و اضعاف قداسة قد لا تتميز و تنفصل عن قداسة الدين في الاعتقاد الشعبي . و على راسها ذهنية الذكورية .

2- يجب مراعاة ما هو قطعي في النصوص المتعلقة بالشرع. و تبيان الحدود المنصوص عليها بنص قطعي لا يمكن تجاوزه او التمرد عليه و حتى اعادة قراءته

قراءة جديدة .ذلك ان الخروج عن هذا المقدس يعتبر كفرا بما انزل الله .و هذا من شأنه استحداث ظاهرة أخرى .بحيث إنه لا يمكن إيجاد أي ضابط اقوى من الخوف من الله . و التمرد على من هو دونه يكون بسهولة اكبر .بالخصوص اننا لم نتمكن حتى الآن من بناء أسس الدولة . او ما يسمى بدولة القانون .

3- ان الأخذ بما وصلت إليه خلاصة الحضارة العالمية .لا يجب أن يدفعنا إلى تقليد آخر للأجنبي تعويضا لتقليد المحلي .ذلك أن الحضارة الغربية قد وصلت الى حريات قد لا تتفق مع مبادئنا الخلقية .

الدين الإسلامي ، دين فطرة .يسهل نشره في البلد الآمن ، المتطور إقتصاديا ثقافيا علميا و اجتماعيا . ذلك أن الأزمة التي يعيشها المجتمع الجزائري من ضيق المسكن و عدم توفره وعدم وجود دخل ، فكيف للزوج أن ينفق على زوجته وأولاده مادام لم يتمكن من الإنفاق على نفسه؟ أو أن يوفر سكنا لطليقته وهو لا يملك المسكن الذي يوجد فيه أصلا؟

ثم إن هذا التطور الإقتصادي يصاحبه حتما تطور ثقافي و اجتماعي . كما أن التفقه في الدين يؤدي إلى حصول التقوى . التي إن استعملت في العلاقة بين الزوجين و داخل الأسرة من شأن ذلك أن يؤدي إلى المودة و الرحمة بين المكونات البشرية للأسرة ، لا أن تؤسس العلاقة على الصراع و الصدام والمغالبة . إذ لا بد من الخروج من بوتقة التقاليد و التقليد . إلى التفكير الواعي المنسجم مع عقيدتنا . و حل المعضلات التي نواجهها في حياتنا اليومية .

لا أن نرجع إلى حلول جاهزة مررنا بها في عصور غابرة .أو القفز إلى الأمام ومحاكات الحلول الجاهزة الموجودة عند الغرب .

ندعو العلماء إلى التفكير من الداخل لما يواجهنا . دون التنكر للمبادئ الثابتة في الإسلام . التي لا تحتاج إلى اجتهد مجتهد ، بحيث أن الشارع الحكيم قد بت فيها بصفة نهائية كتلك المتعلقة بالمواريث مثلا في حقل الأسرة .

واقعنا يؤكد أننا نأخذ بالفكر الغربي عموماً. بما فيه نظرتهم إلى الإنسان والحياة الاجتماعية و القيم الأخلاقية. حتى وإن كانت تستهين بالمكارم الخلقية والأعراض. ولأن الجمود يؤدي إلى الجحود كما أكد على ذلك أسلافنا. فإنه لابد من العمل على الخروج من التواجد بين شقي الرحى: التقاليد الجافة المجففة، والتقليد الأعمى لكل ما يأتيه الغرب. لأنه الآن في أوج قوته التكنولوجية العلمية و الإقتصادية . فعلياً إذا بالتوعية: (التفكير المتجدد الواعي لكل الرهانات والتحديات).

4 - هيمنة المفاهيم الغربية : المجتمع الجزائري مصاب باضطراب في هندسة التفاعلات الاجتماعية . و بالخصوص بين ما هو وافد من الحضارة الغربية و ما تمليه عليه روحه الباطنية المستمدة من تعلقه بالدين الإسلامي. فالواقع الذي نعيشه واقع متأزم ، اختلطت فيه المفاهيم و الأوضاع والسلوكات. كأنها قطع من الظلمات لا نكاد نتبين الصحيح من الخاطئ و الغث من السمين ، بالخصوص الإعلام المضاد للإسلام. الذي وجد مادة دسمة في انحرافنا عن تعاليم الدين. وراح يشوه الإسلام و المنتمين له و أراهم على ضلالة و تأخر و جهالة.

لقد اقتحمت المفاهيم الغربية مجالات حساسة بالنسبة لحياة المسلم. من أخطرها مجال القوانين أو التشريع. الذي يعرف هيمنة القوانين الوضعية بصفة تكاد تكون مطلقة. إذا ما استثنينا الأحوال الشخصية أو ما يسمى بقانون الأسرة. الذي يعتبره البعض إنتاج سنة 1984. وواقع الأمر أن القانون الوضعي الذي حاولت فرنسا بسطه على الجزائر أثناء حقبة تواجدها لم تجد سوى ميدان العلاقات الشخصية الذي استعصى عليها إدماجه ضمن التنظيم العام للقوانين الوضعية الفرنسية. نتيجة مقاومة الجزائريين الشديدة لتطبيق النظام الوضعي فيما يخص الأحوال الشخصية. الأحوال الشخصية التي كان يشرف عليها قاض

مسلم او متمكن من الشريعة الاسلامية والمذهب المالكي على وجه الخصوص.
لأكثر تفاصيل أنظر:

LUCIE PRUVOST : Femme d'Algérie , CASBAH édition, Alger 2002

و لأن الدول الإسلامية برمتها تطبق قوانين وضعية لا صلة لها بالشريعة. ما عدا تلك المتعلقة بالأسرة. وإن وجد الإستثناء : « تركيا/ تونس » الدولتان اللتان لا تطبقان احكام الشريعة حتى ما تعلق بالأحوال الشخصية.

و من ثم تعاني القوانين التناقض الفاضح. ذلك أنها لا تنطلق من نفس المبادئ ، الأمر الذي يفسر تخلف الفقه الإسلامي لأنه لم يساير المستجدات وعمل الاجتهاد. ومنه نلاحظ اجترار بعض الأحكام التي لا تمت بصلة إلى واقعنا المعاش. نشير هنا إلى الخوف القائم لدى بعض الشباب الذي يريد القيام بمشاريع استثمارية و الحصول على الدعم المقدم من طرف صناديق الشباب. ولكن هذا النوع من الإستثمار لا بد أن يحصل صاحبه على قرض من البنك ، و قد عزف هؤلاء عن هاته العملية بالرغم من الدعم المقدم. و ذلك خوفا من الدخول في محاربة الله ، للتعامل بالربا. فلا الصندوق أعانهم على تجاوز هذا الإشكال. و لا علماء الدين أفتوا لهم بالكيفية التي يمكن التعامل بها. و لا الدولة أعارت للقضية بالأ.

وما تجدر الإشارة إليه أنه حتى في مجال الأحوال الشخصية فإن هناك تدخل لقوانين وضعية. و ما مصادقة الدول و من بينها الجزائر على اتفاقيات دولية كتلك المتعلقة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة. التي اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر ديسمبر 1979 و لو بتحفظ. إلا دليل على حجم التحدي ، ذلك أن القانون المستمد من الشريعة هو في تقلص. و الوضعي في ازدياد. و نشير الى ان هذا التحفظ قد رفع من طرف رئيس الجمهورية سنة 2004.

ناهيك عن بعض المتفقيقات و المتفقيقين الذين يدعون صراحة إلى إلغاء هذا القانون. لا لشيء إلا لأنه مستمد من مبادئ الشريعة الإسلامية.

مجال ثاني خطير و هو مجال التغير الاجتماعي ، بحيث إن الغرب يعتمد على التغير الاجتماعي الذي ليس له حدود أو ضوابط. و من ثم فإنه يعتمد على مفهوم الحرية و يربطها بالفردانية. أي حرية الفرد في الاعتقاد و التصرف و العمل و التعامل و التعبد.

بينما الإسلام يعتمد الثبات في أمور التعبد. الإلتزام بحرفية الأداء في شتى صورها و أشكالها ، ثبات العبادات و دوام تشريعها على مر العصور. و هي دليل على توحيد الألوهية و الربوبية في التعبد بتشريع العبادة من الله. و كذلك الشأن بالنسبة للمعاملات التي ورد فيها نص صريح «ولن تجد لسنة الله تحويلاً» لذلك فإن هذا التغير الاجتماعي يجب أن يسير وفق **ثبات و معالم**. لكن هذا لا يعني جمود المجتمعات الإسلامية و بقائها في نفس الأوضاع. ثبات في المبادئ و في المعالم. ولكن تطور و حركية دائمة وفقاً للمبادئ المسطرة مصداقاً لقوله تعالى : " تلك حدود الله و من يطع الله و رسوله يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم و من يعصي الله و رسوله يتعدّ حدوده ندخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين " النساء 13 / 14 و قال : " و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم " الأحزاب: 36 .

مفهوم المواطنة: مفهوم آخر أوجده الغرب. و هو مفهوم يواكب تطور المجتمعات الغربية و يحمل من الإيجابيات ما يحمل ، ذلك أن مفهوم المواطنة يعني إيجاد علاقة متوازنة بين أبناء الوطن الواحد في إعطائهم نفس الفرص والحضوض ، فيما يسمى **بتكافؤ الفرص** دون ما تميز بين المواطنين. لا من حيث الدين العرق أو حتى الطبقة الاجتماعية، يؤدي المواطن نفس الواجبات ويتمتع بنفس الحقوق. دون أي إنقاص منها ، ويطالب بحقوقه لا يتنازل عنها ،

بينما نحن مازلنا نلهث وراء تحقيق هذا المفهوم المستعصي علينا تحقيقه . وفي ثقافتنا الإسلامية و من المفاهيم الجوهرية التي يعتمدها الإسلام مفهوم أنبل وأرقى من مفهوم المواطنة ، وهو مفهوم "الأخوة" لقوله تعالى : "إنما المؤمنون إخوة ~ «الحجرات:10» . الأخوة التي تتعدى العلاقة الدموية. لتصل إلى العلاقة بين المؤمنين. التي تعتبر هي الأخرى درجة أرقى من درجة المسلمين:" قالت الأعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ~ «الحجرات: 14 »

حيث أن الأخوة تتجاوز مستوى قيام كل فرد بواجباته و تلقي حقوقه. أي يحسب بجمود ما لك و ما عليك. لتنتقل من " لا ضرر و لا ضرار " ونصرة الأخ ظالما أو مظلوما. إلى الأخذ بيده و مساعدته من طرف المقتدرين و المتمكنين من ذلك. من أمثلة التعامل إنطلاقا من الأخوة وجود نظام ~ الوقف أو الحبوس ~ اعتمادا على الحديث الشريف الذي يشير إلى انقطاع عمل ابن آدم إذا مات الا من ثلاث. وذكر من بينهما ~ الصدقة الجارية ~.

نظام الوقف الذي كان معمولا به بصفة واسعة في منطقة المغرب العربي عموما. ووقف الأموال على الأعمال الصالحة ، النافعة والخيرة لصالح المسلمين "الإخوة" . فيفضل صاحب الوقف عدم توريث جزء من أمواله لأصحابها من ذوي الأرحام و القربى. و يتجاوز دائرة الدم إلى كافة المسلمين لينتفعوا بهاته الأموال الموقوفة أو المحبوسة عن أصحابها.

و نحن نعلم أن هذا النظام قد أدى خدمة جليلة لكافة المسلمين في جميع الميادين : العلم، الصحة، الطفولة، العجزة... الوقف او الحبوس عبارة عن نموذج تطبيقي يتجاوز الفردية و الأنانية و العصبية الدموية.

مفهوم آخر مستورد من طرف الغرب. وهو الصراع بين المرأة و الرجل: القهر و المطالبة بالحقوق. أما المفهوم الإسلامي هو أن علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة الشيء بنفسه. و ليست علاقة صراع و معاندة و مشاحنة و لا علاقة عداوة و مخاصمة و مغالبة. لقوله تعالى : "والمؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء

بعض يأمرهم بالمعروف و ينهون عن المنكر ~ «التوبة: 71» بل هي علاقة تعاطف و تراحم و مودة و تعاون.

نعلم أن الإسلام سوى بين الرجل و المرأة في تكاليف الإيمان العمل الصالح و الخلق. و أعطى للزوجة استقلاليتها إذ إنها بعد عقد الزواج تبقى محتفظة بنسبها إلى أبيها و يحرم شرعا أن تنسب إلى الزوج لقوله تعالى : ~ أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ~ «الأحزاب: 30» .

كما و أنه أعطى المرأة من النفقة. وألزم الزوج بها لقاء احتباسه لها عن الزواج بغيره. و الإشراف على تربية الأولاد و القيام بواجباتها في الحفاظ على الأسرة لقوله تعالى : ~ وعلى المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف ~ «البقرة: 233» والمولود له هو الزوج.

إذا لابد من الوقوف أمام انتشار المفاهيم الغربية. التي لها صلة بالعلاقات الأسرية على وجه الخصوص.

فمفهوم "الأم العازبة" مفهوم غربي استوردناه. لنقل من شأن الزنى والفجور. ذلك أننا أضفينا شرعية على العازبة بوصفها ~ أمًا ~. و نحن نعلم ما تعنيه هاته المفردة ~ الأم ~ وما لها من شحنة عاطفية تصبغ عليها الإحترام والتبجيل : ~ الجنة تحت أقدام الأمهات ~. لكن الأمهات الشرعيات لا المرأة الزانية. ظاهرة الزنى التي لم نعد نعيها أيما إهتمام ، بل و نحاول إيجاد الحلول لرعاية منتوجها «اللقطاء».

و نقيم الدنيا ولا نقعدها إذا تعلق الأمر بتعدد الزوجات، متأثرين في ذلك بالمفاهيم الغربية. التي تحلل الزنى وتستهن بالتعدد؟

فعلينا إذا غربلة هاته المفاهيم و كل المفاهيم الواردة من الغرب . و بالخصوص تلك المتعلقة بموضوع الأسرة. و نبحث لها عن بدائل يمكن أن تنسجم أكثر مع ثقافتنا الإسلامية و مع معالمنا.

اهم الرهانات:

* استبدال الضعف الذي تعاني منه غالبية الشعوب الاسلامية من بينها الجزائر. و الاخذ باسباب القوة التي تمكن للدين و تمكن من الشمولية الاسلامية.

* استبدال التجاذب القطبي بين الخضوع للعادات و التقاليد التي لا تمت بصلة للاسلام و نحسبها منه. او تقليد كلما هو وافد من طرف الحضارة الغربية. دون أي تمييز و هذا ناتج عن الانبهار بها.

* استبدال جهلنا باوضاعنا المعاشية و جهلنا بديننا و جهلنا بالمتغيرات التي تحدث في محيطنا. و ذلك بوعي ما نحن عليه . و كيف يمكننا الخروج منه دون التنصل من عقيدتنا او ملتنا.

* اهم رهان يجب كسبه هو ذلك المتعلق بالتفكير الواعي من طرف فئة من العلماء. في جميع مجالات العلم و التكنولوجيا و الانسانيات . قصد ايجاد حلول لمشاكلنا بامكانياتنا وحسب قناعاتنا الدينية. و على علماء الاسلام بصفة خاصة ايجاد مواطن الاتفاق الكلي بين المذاهب. لتحقيق شمولية الاسلام على العالمين - اسلام واحد لا متعدد - في مواجهة الشمولية العالمية.

* ايجاد المسلم المؤمن الذي يتمتع بالتقوى اولا ثم تطبيق الاحكام. و ان تولد لديه قناعة داخلية سواء كان هذا المؤمن ذكرا أو أنثى. ذلك حتى يتمكن من الدخول في علاقة من أجل بناء أسرة متزنة. الأسرة التي تساهم في رفع مستوى المؤسسات الاجتماعية الاخرى. بغرض عزة الاسلام و المسلمين.

* التمسك بالمؤسسة الاسرية و العض عليها بالنواجذ لما تحققه من تنشئة الخلف. الخلف الذي يجب أن نعلق عليه آمالا عريضة قصد رفع كل التحديات التي تواجه الأمة في الوقت الراهن . لكن الخلف لا يمكن أن يمد و يعطي دون أن يمنح و يزود بالزاد الكافي و المعالم الواضحة. التي تصير أهدافا عليه إنجازها وتحقيقها .

* الرفع من مستويات الأسرة التعليمية والفكرية المشبعة بالقناعة الدينية المعتدلة الوسطية. وكذلك الرفع من مستوياتها المعاشية .

* الإعتراف بتعدد مستويات الأسر و أوضاعها ، الاجتماعية ، الاقتصادية والسياسية و الثقافية .

* رفع الغبن عن الأسر التي هي في وضعية هشة. و إخراجها من دائرة الفقر و الحرمان و التهميش التي تعيشها .

واقع الأسر الجزائرية :

إن الدراسة الميدانية التي أعتمد عليها في إجراء المقارنة بين مبادئ الشريعة الاسلامية و أداء الفقهاء من ناحية. والممارسة الاجتماعية كما هي معاشة في الواقع ميدانيا. دراسة أجريت سنة 1990 تحت عنوان دراسة ظاهرة الطلاق : من التلاقي الى الطلاق دراسة مقارنة بين مناطق داخلية سهبية: المسيلة والمشرية. و مناطق شمالية: القبة و تيزي وزو.

يجب إذا أخذ الفترة و كذلك العينة بعين الاعتبار. ذلك إن تغيرات كثيرة قد حصلت. و هاته النتائج قد لا تعبر بالضرورة عن ما هو حاصل في مختلف أنحاء الوطن و حتى ديمومتها و استمرارها في الوقت في الاماكن المدروسة. الغرض من القيام بهاته المقارنة المتواضعة هو اخذ فكرة عن وضعية اجتماعية في مرحلة محددة و مكان محدد. ومحاولة تبين بعض تعاليم الاسلام المرتبطة بالممارسة الاجتماعية كما حدث في الواقع. حتى نتجنب الكلام من فراغ عن الازواص الاجتماعية. و كل واحد منا يحاول إسقاط وضعيته او تجاربه الخاصة بما هو حاصل فعلا في الميدان.

طبعاً لكي تكتمل الرؤية يمكن تكرار مثل هاته الدراسات عبر مناطق اخرى. وتتبعها عبر مراحل زمنية كافية حتى يمكننا ان نستجلي السلوكات الحالية والاستشراف على بعض الظواهر التي من المحتمل أن تقع مستقبلاً. واعتقادي

أن هاته المادة في غاية الأهمية بالنسبة للمفكرين الذين يريدون تغيير الواقع المعاش في اتجاه ما .

سواء باتجاه العولمة ،أو اتجاه الشريعة الاسلامية او أي منحى يتم تحديده من طرف الفاعلين الاجتماعيين و السياسيين و الاقتصاديين و العلماء. فالدراسة الميدانية ضرورة و حتمية يقتضيها أي عمل جاد و هادف.

من خلال الدراسة الميدانية تبين لنا الواقع المعاش كما يلي :

آليات البناء او الزواج:

* المستوى التعليمي لكل من الرجال و النساء يتسم بالضعف و هو لصالح الرجال. لكن الاحصائيات الجزائرية الحديثة تبين ان الفتيات قد سجلن تفوقا في النجاح على الفتيان في شهادة الباكلوريا اذ سجلن: 52.5 . في السنة الدراسية 1976- 1977 . هاته النزعة يمكن ان تغير الاوضاع في المستقبل القريب.

* الخصوبة او الانجاب: 6 ازواج من 10 لم ينجبوا او ان لهم طفلا واحدا .

* ملكية السكن هي لاهل الزوج بالدرجة الاولى تليها ملكية الازواج ببيوتهم بانفسهم.

* البيت الزوجي لا يحوي الزوج و الزوجة و الاولاد فقط. و انما بقية افراد الاهل بمعدل 14 شخصا إضافيين لكل أسرة. تختلف حسب المناطق: 6 افراد اضافيين في المشرية. 3 في المسيلة. و 4 في القبة.

* يقدم بعض الاباء على تزويج أولادهم الذكور حتى وإن كان بعضهم بطالا: 1 من 5 في المشرية. 1 من 10 في المسيلة. بينما في الشمال فلا توجد اي حالة.

* معدل سنوات العمل قبل الاقبال على الزواج : 2,5 سنة في المشرية. 3,6 سنة في المسيلة. و 4,6 سنة في القبة.

* مدة استمرار الحياة الزوجية: بمعدل 6 سنوات و 8 اشهر في المسيلة. القبة 4 سنوات. و اقصر مدة معاشرة كانت في المشرية 2 سنة و ستة أشهر.

* مشاركة الزوجة في تسيير الحياة العائلية و مشاركتها في المشتريات الخاصة بالبيت و الاولاد: يرى 1 من 3 الرجال أنهم يقومون باستشارة زوجاتهم قبل الاقبال على أي مشتريات بينما لا ترى من النساء سوى 1 من 10 من الأزواج بانهم يقومون بذلك.

* اختيار الزوج ، يعتبر الزواج قضية عائلية و ليست منحصرة في فردية الزوج. فما بالك في الزوجة ؟

ينظر الى الزواج على اساس انه التقاء بين عائلتين اكثر مما هو التقاء بين شخصين. الا انه يتم برضى الزوجين. بحيث ان امراة واحدة من بين 4 نسوة ترى ان اهلها كانوا اكثر منها اقتناعا بالزوج الخاطب.

* التعرف على الشريك و عائلته يؤكد 1 من 2 من المستجوبين و المستجوبات انه قد تم التعرف على القرين بالطرق التقليدية أي التعرف الغير مباشر. التعرف الشخصي المباشر: اكثر 1 من 2 من المستجوبين أكدوا انهم تعرفو و التقوا بخطيبهم قبل الزواج. و ذلك في كل من القبة و منطقة القبائل. بينما في الهضاب العليا فواحد من بين 10 اشخاص مارس هاته الطريقة و لمدة كافية بمعدل سنة كاملة.

* بينما التعرف على عائلة القرين : يبدو أن الرجال يولون اهمية بالغة للتعرف على عائلة المرأة قبل حدوث الزواج ذلك ان 8 أشخاص من بين 10 أكدوا على هاته الاهمية. بينما هاته النسبة عند النساء تقدر 3 نساء من بين 10 نسوة. اذ يبدو أن الزوجة تولي أهمية بالغة للزوج ذاته و لا تهمها عائلته. بينما ينزع الرجال الى إعطاء أولوية للتعرف على عائلة الزوجة من الزوجة نفسها. وكان الرجال قرييون من قوله تعالى: "ياأيهاالناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير". «الحجرات:13» . ولكن هذا الزواج يتم من نفس المنطقة كما يتبين أدناه.

* المجال الجغرافي في الزواج: الزواج من نفس العائلة . يبدو ان هناك نزعة عامة في جميع العينات الى ربط العلاقات و تعزيزها بالتزاوج من نفس العائلة. ذلك ان 1 من 3 المستجوبين رجالا و نساء تزوجوا من نفس العائلة . طبعاً هاته النسبة لا تسمح لنا بالتاكيد على استمرارية ما سمي "بالزواج العربي". أي الزواج الداخلي الذي يتم من بنت العم او بنت الخال.

* الزواج من نفس المدينة. يفوق في كل الحالات 1 من 2 من المتزوجين من كلا الجنسين.

* الزواج من نفس المنطقة . يتم الزواج من نفس المنطقة . لا يسجل سوى انفتاح نسبي في القبة.

* مساهمة الأهل في مصاريف الزواج . اذ كانت مشاركة الرجال بصفتهم عزابا في الاقتصاد المنزلي المتوسط 2,5 على السلم 4 . فانها عند العازبات ذوات الدخل أكثر من ذلك قليلا: 2,9 على نفس السلم . اما المساعدات المقدمة من طرف الأهل بمناسبة تزويج الرجال و النساء العزاب تبدو أكثر شدة . إذ تبلغ 3,5 على السلم 4 بالنسبة للنساء و 3,2 على نفس السلم بالنسبة للرجال . فالاعتماد على الأهل يكاد يكون مطلقا بالنسبة لتزويج النساء أو الرجال .

* المشاورة واتخاذ القرارات فيما يخص شؤون البيت. يصرح الأزواج بأنهم يلجؤون الى مشاورة الزوجة: 2,4 على السلم 4 أي إنهم يصنعون انفسهم معتدلين في قضايا إعلام الزوجة و مشاورتها. الا أنهم يعترفون بأنهم لا يسمحون للزوجة باتخاذ القرارات و لو كانت هاته القرارات خاصة بشؤون البيت الزوجي: 0,7 على السلم 4 . أما النساء فيشتكين من إعلامهن : 1,3 و مشاورتهن: 1,6 . وكذلك اتخاذهن للقرارات داخل البيت: 1,9 على السلم 4 و لو انهن يتجاوزن بكثير ما أدلى به الرجال .

* مدة الزواج : إن المدة التي عمر فيها الزوجان مع بعضهما وصلت الى: 4 سنوات و 3 أشهر. أقلها في المشرية: 2 سنة و 4 أشهر. وأطولها في المسيية: 6 سنوات و 10 أشهر .

* خروج المرأة من البيت الزوجي: يؤكد كل من الأزواج و الزوجات على أنه بمجرد لفظ كلمة. الطلاق تخرج المرأة من البيت الزوجي الى أهلها. ولم نسجل أي استثناء في أي منطقة من المناطق المدروسة.

* وضعية المرأة أثناء الطلاق: قلما يعير الزوج الانتباه الى وضعية زوجته أثناء تطليقها. إذ أن 4 من 10 من الرجال لا يحددون وضعية المرأة أثناء الطلاق. ونفس النسبة من رجال ترى ان النساء كن حوامل أثناء تطليقهن. و أن رجل واحد من 10 يرى زوجته كانت في اخر الولادة. ورجل واحد من بين 10 يرى بأن إمرأته كانت مريضة. أما النساء فإن 3,5 من 10 يصرحن بأنهن كن حوامل. و 3,5 من 10 كن مريضات. إضافة الى 1,3 كن في حالة وحم.

* وضعية الممتلكات : تأخذ النساء أمتعتهن الخاصة بهن و ذلك باعتراف النساء أنفسهن و كذلك الرجال. اما الأمتعة المشتركة فإن قرابة 1 من 2 الرجال يصرح بأن زوجته أخذت قسطا معتبرا من الممتلكات. بينما يميل النساء إلى التصريح بأنهن لم يأخذن من هاته الممتلكات شيئا. ما عدى إمرأة واحدة من بين 10 نساء .

* السبب المباشر الذي أدى إلى الطلاق . حسب تصريحات الازواج . السبب الأول 3.2 من 10 عناد المرأة و عدم امتثالها لأوامر و نواهي زوجها . و المطالبة بالعيش منفردة دون عائلة الزوج .. السبب الثاني: 3 من 10 عدم تفاهم الزوجة مع عائلة الزوج و الزوج نفسه .. السبب الثالث .قيام الزوجة بزيارات متكررة لأهلها . و كأنها لا يمكنها الانفصال نهائيا عن بيت والديها . . كما يلاحظ أيضا سوء عناية الزوجة بالبيت الزوجي .

أما حسب النساء : السبب الاول 4 من 10 عدم التفاهم مع عائلة الزوج .السبب الثاني 3.5 عدم وجود حب و انسجام . السبب الثالث 2 من 10 سوء معاملة و أخلاق الزوج و كذلك تزوجه بامرأة ثانية .الزواج بامرأة ثانية الذي مس بامرأة واحدة من 10 نساء . من العينات المدروسة .

* ممن كان الخطأ؟ 7 رجال من 10 يوعزون الخطأ إلى الزوجة. و لا يعترف سوى 1.4 من 10 بأنه المتسبب في الطلاق. أما النساء فكان أقل قساوة في تحميل الرجال مسؤولية الطلاق. بحيث ان 4 نساء من 10 يحملن الرجال الخطأ. بينما تعترف امرأتان 2 من 10 بأنهن ارتكبن خطأ أدى إلى الطلاق .

* طلب تدخل الأهل: إن غالبية النساء حسب كل من المستجوبين والمستجوبات لا يرضين بالطلاق الحاصل. و لذلك تسعى غالبيتهن الى طلب تدخل الأهل: 8 من 10 . و لا تخرج عن هذا النطاق سوى 1.5 من 10 حسب الرجال و 1 من 10 حسب النساء و ذلك لطلب تدخل جماعة الخير . و لما فشلت هاته الأطراف فان الهيآت القضائية قد تتدخل قصد إصلاح ذات البين . بطلب من النساء أو أهلهن .

* الطرق التي يلجأ إليها الزوج قبل الاقبال على الطلاق : لا يقدم الزوج على الطلاق إلا بعد محاولة إصلاح الاسباب التي كانت تحول دون استمرار الحياة الزوجية الطبيعية: - إنذار الزوجة نفسها 5.4 حسب الرجال و 4 من 10 حسب النساء .

- يميل الزوج الى إقحام أهل الزوجة و ذلك بإخبارهم بأن هناك صعوبات. من المفروض نهي و نصح إبنتهم : 3 من 10 حسب الرجال و 1.4 من 10 حسب النساء.

* الأطراف الكافلة للطفل : تقوم النسوة المطلقات بالحضانة. لم يفز سوى 3 حسب الرجال و 1.4 من 10 حسب النساء من الرجال بكفالة ابنائهم.

* أما فيما يخص موافقة الرجال على دفع مصاريف الكفالة فإن الرجال ينزعون الى احترام قرارات المحكمة .بل إن هناك من يدفع أكثر من المقرر: 4 من 10 حسب النساء و 3 من 10 حسب الرجال. يفضل الرجال تقديم حاجيات عينية لأبنائهم .أما من لا يدفع 4.3 من 10 حسب النساء و 3.2 من 10 حسب الرجال .

ويعود سبب عدم تسديد النفقة الى كون الزوج دون دخل أو أن أهل الزوجة ميسورين أو أن الطليقة تشتغل .

* علاقة المطلق بأهل مطلقته : تجمع النسوة على أن علاقتهن بأهل الزوج تنقطع بانقطاع العلاقة التي كانت قائمة : - 7 من 10 . تؤكد أن العلاقة غير موجودة. - 2 من 10 العلاقة سيئة. بينما 4. 2 من 10 ترى بأن العلاقة عادية. أما الرجال فيرى 6 من 10 بعدم وجود علاقة مع أهل الزوجة: من بينهم 3.5 علاقة سيئة. أما 4 من 10 رجال فقد حافظوا على العلاقة التي كانت قائمة مع أهل الزوجة و يصفون هاته العلاقة بالحسنة .

مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يخص العلاقات الأسرية :

تم الاقتصار على المبادئ التي يمكن مقارنتها بما أملك من معطيات ميدانية من واقع الأسر الجزائرية. و ذلك حتى تتسنى عملية المقارنة .
إن من أعظم آيات الله في الأرض أن خلق للبشرية تنظيما إجتماعيا أساسه الذكر و الانثى. مصداقا لقوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنو إليها و جعل بينكم مودة ورحمة .إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ~
«الروم 21» .

ثم إنه بين الأخلاق الفاضلة التي على كل من الذكر و الأنثى التمسك بها دونما تمييز. و التي من شأنها أن تنفع الملتزمين بها في توثيق العلاقة المتبادلة بينهم. ناهيك عن الثواب من رب العالمين : " إن المسلمين و المسلمات و المؤمنين والمؤمنات و القانتين و القاتنات و الصادقين و الصادقات و الصابرين والصابرات و الخاشعين و الخاشعات و المتصدقين و المتصدقات و الصائمين و الصائمات و الحافظين فروجهم و الحافظات و الذاكرين الله كثيرا و الذكرات اعد الله لهم مغفرة و أجرا عظيما ~ . «الاحزاب 35» .

لا داعي للخوض في الصراع بين الذكر والانثى. الصراع المفتعل من طرف الحضارة الغربية التي لم تعرف الخير الذي أتى به الإسلام في إضفاء العلاقة الحميمة بين الجنسين. و الأصل الواحد للبشرية نساء و رجالا. و ذلك مصداقا لقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير « الحجرات:13 ».

وكذلك مصداقا لقوله تعالى: " و أنه خلق الزوجين الذكر و الأنثى من نطفة إذا تمنى ~. النجم: 45 و 46 - ~ هن لباس لكم و أنتم لباس لهن ~ « البقرة: 187 » .

إذا ما أردنا إنزال مبادئ الشريعة الإسلامية على واقع الأسرة الجزائرية
يتبين لنا ما يلي :

- فيما يخص الكفاءة التي تشترط في الزوج على اعتبار أنه هو المسؤول الأول عن الأسرة. مصداقا لقوله تعالى: " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ~ « النساء :34 » .

ملاحظة: إنني لم أتطرق إلى جانب أولاه الشارع/ أهمية بالغة و فصل فيه بنصوص قرآنية محكمة. و هي قضية المواريث و ذلك لأنني لم أتطرق إلى هذا الجانب المهم و المعقد في آن واحد بالنسبة للحياة الأسرية المعاشة في الواقع.

الملتقى الدولي حول (فكر مالك بن نبي) المجلس الإسلامي الأعلى - الجزائر.

الدكتور محمد بن سميحة
جامعة الجزائر

المقدمة :

يحرص المجلس الإسلام الأعلى بالجزائر على تنشيط الحياة الفكرية والإسهام في عملية مد جسور الحوار والتواصل بين الهيئات الثقافية والمهتمين بهذه المناحي في البلاد، وبين هؤلاء وبين أمثالهم في الخارج، وذلك من خلال ما فتىء هذا المجلس الموقر يصدره من نشرات ودراسات وكراسات، وما ينظمه من أيام دراسية وندوات ومحاضرات، وما يعقده من ملتقيات وطنية ودولية، تتبادل في جلساتها الآراء، وتتقارح من على منبرها الأفكار بين الباحثين والدارسين من داخل البلاد ومن خارجها من نحو، وبينهم وبين المعنيين بهذه الاهتمامات من الجمهور من نحو ثان. ويدور الحوار أثناء ذلك حول بعض القضايا التاريخية والفكرية والاجتماعية المتصلة بعطاءات الأمة ماضيا. وباهتماماتها حاضرا، وبتطلعاتها مستقبلا...

وكان آخر ما أشرف المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر على تنظيمه من ملتقيات:

(الملتقى الدولي : حول فكر مالك بن نبي) المنعقد بفندق الأوراسي بالجزائر

العاصمة، ففي الأيام (23 - 24 - 25 شعبان 1424 هـ / 18 - 19 - 20 أكتوبر 2003). وذلك إحياء للذكرى الثلاثين لوفاة المفكر الجزائري الأستاذ مالك بن نبي رحمة الله عليه، وقد شارك في أشغال هذا الملتقى عدد من الباحثين من أهل الدار، ومن بعض الذين وفدوا على الجزائر من العالم العربي الإسلامي، ومن غيره من بعض دول العالم: من المغرب، ومصر، ولبنان وماليزيا وباكستان، وفرنسا، وأمريكا.

وقد دار الحوار خلال تلك الأيام الثلاثة للملتقى في مجموعة من المحاضرات تركز الحوار فيها حول جملة من المسائل والقضايا المتصلة بحياة الأستاذ مالك بن نبي وأفكاره وأعماله وصلة ذلك بحركة النهضة الحديثة في العالم العربي الإسلامي، وعلاقتها بنهضة الأمم الأخرى.

وقد حضر صاحب هذه الكلمة أعمال هذا الملتقى، وكانت هذه السطور من أصداء ذلك وسيتركز الحديث فيها حول العناصر التالية :

أولا - نبذة عن الأستاذ مالك بن نبي وأعماله

ثانيا - الحضور الجزائري في هذا الملتقى

ثالثا - مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى

رابعا - وقفة متأنية عند محاضرة الأستاذ حسن حنفي

خامسا - مكانة اللغة العربية في الملتقى

سادسا - الأستاذ مالك واللغة الفرنسية

سابعا - الجانب التنظيمي في الملتقى

ثامنا - الخاتمة

وتأتي هذه الكلمة إلى النظر في هذه المحاور وفق الخطة المتقدمة:

أولا - نبذة عن الأستاذ بن نبي وأعماله: الأستاذ مالك مفكر جزائري معاصر

(1905 / 1973) قضى حياته يشتغل بقضايا الفكر والثقافة الإنسانية، وشروط

النهضة ومشكلات الحضارة، وعني في هذا الإطار بدراسة العوامل التي ساعدت وتساعد المسلمين على بناء ذاتهم وتقويم فاعليتهم في الميدان العملي، وترشيد عطائهم الأخلاقي والعلمي والفكري والحضاري، وما إلى ذلك مما استطاعوا به أن يتركوا بصمات إسهاماتهم المميزة في بناء منظومة الحضارة الإنسانية، كما حرص الفقيد في الوقت ذاته على رسم علامات واضحة عن الأسباب التي كانت من وراء انحسار مد حضارة المسلمين في العصر الحديث وما انتهوا إليه في حاضرهم من تشرذم وتخلف، وذل وهوان !

ويخلص الأستاذ مالك من هذا التحليل العلمي والتشخيص الموضوعي الدقيق لوضعية المسلمين في العصر الحاضر، ولما ينخر جسم أمتهم من علل وأدواء، إلى وصف الدواء الناجع لتلك الأدواء، وذلك بدعوته قومه دعوة صادقة مخلصة تحثهم على النظر في أوضاعهم الحالية بمنهج نقدي يضع أيديهم على العوامل التي كانت المرتكز الأساسي في بناء حضارتهم، ويحرص في الوقت ذاته إلى ما يجنبهم الأسباب النقيضة التي أردت بهم إلى المنعطف الذي انحدروا إليه فعسى أن يمكنهم ذلك من استعادة وعيهم الحضاري ودورهم التاريخي فيأخذوا مكائتهم التي كانت لهم يوم أن كانوا يمثلون العالم الأول بين الأمم الحية « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » (1).

للأستاذ مالك مجموعة من الأعمال تركزت عنايته فيها على معالجة جملة من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية المتصلة بشروط النهضة، ومشكلات الحضارة، وأدواء التخلف وعوامل التقدم، وغير ذلك من مسائل الفكر والثقافة والاجتماع والسياسة.

وقد كتب الفقيد معظم أعماله ضمن سلسلة (مشكلات الحضارة) ومن من بين تلك الأعمال :

(الظاهرة القرآنية - شروط النهضة - ميلاد مجتمع - وجهة العالم الإسلامي - مشكلة الثقافة - فكرة الإفريقية الآسيوية - الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - افاق جزائرية - مذكرات شاهد القرن - وغيرها...)

كما أن للأستاذ مالك تلامذة وقراء ودارسين فأفكاره وأعماله في كثير من بلدان العالم (من طنجة إلى جاكرتا، ومن موسكو إلى واشنطن).

ثانيا : الحضور الجزائري في أشغال الملتقى : لقد شارك في هذا الملتقى بعض الجزائريين من داخل البلاد، ومن خارجها: من المقيمين في ديار الغرب بفرنسا. وقد كانت هذه المساهمة لأهل الدار بنوعها الداخلية والخارجية في معظمها محدودة في عددها، متواضعة في أبعادها، معرب لسان بعضها، مستغرب لسان معظمها، وبخاصة منها تلك التي تعود للمغتربين.

أما عما يتصل بالعدد فقد كانت محاضرات أصحاب الدار ثمانين من بين سبع عشرة محاضرة، هي : مجموع ما ألقى في الملتقى، أي كانت نسبتها أقل من (50٪) من المشاركة العامة. ومع أن الجهد العلمي لا تقدر قيمته بالعدد فحسب، فإن له مع ذلك بعض الاعتبار في مثل هذا المقام.

وأما ما يتعلق بالنوعية فقد كانت تلك المحاضرات في معظمها متواضعة في جانبها العلمي من حيث ما اتسم به هذا الجانب من طروحات، وما أخذ به من طرق المعالجة، وما اتصف به في أغلب ما تطرق إليه من تكرار، ويمكن أن يتضح ذلك بشيء من الموازنة ما بين ذلك النوع من المشاركة، وبين ما تتميز به المستوى العلمي في محاضرات معظم الضيوف، ولاشك أن الذي يكون قد فعل ذلك يسهل عليه أن يلمس ذلك الفرق.

وأما أداة التعبير في مساهمة (أهل الدار) فقد كانت في بعض أعمال المقيمين، وفي مجمل المحاضرات الأربع للمغتربين بالفرنسية، ما خلا واحدة منها فقد كانت

باللسان العربي وهي محاضرة الدكتور مولود عويمر الأستاذ بالمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية (فرنسا)، الذي كتبها وألقاها بالعربية، وإذن فإن نسبة العربية إلى الفرنسية في محاضرات هؤلاء كانت 1 / 4 أي (25٪).

وأما ما كان من نصيب أهل الدار وحدهم من أعمال الملتقى لم يشاركهم فيه غيرهم، فلم يتجاوز ذلك أو يكاد الجانب التنظيمي وعملية الإشراف على سير الجلسات، وهذا أمر طبيعي وإن هذا الجانب - كما هو واضح - يكاد يقتصر دوره على الناحية التنظيمية من أشغال الملتقى وقد تم ذلك في مجمله - على أية حال - بصورة اتسمت في غالبيتها بقدر ملموس من النظام والإحكام.

ويمكن القول أنه لولا ما كان من تلك المشاركة للجمهور - ومعظمه من أهل الدار - المتمثلة في بعض التعقيبات والاستفسارات، تلك التي أضفت بما تخللها من جدية في المتابعة ورغبة في الفهم جوا من الحيوية والنشاط على سير أشغال الملتقى، لو ما كان من تلك المشاركة المثمرة لكان صوت أهل الدار أضعف الأصوات في هذه المناسبة.

ويتلامح أمام المتأمل في ذلك هذا السؤال: أين هم إذن تلامذة مالك بن نبي بيننا وأين هم قراء أعماله في مجتمعنا؟ وأين هي مساهمتهم أمام ما كان من مساهمة غيرهم في هذا الملتقى؟!

ولعل من بين ما يمكن أن يصلح للإجابة عن هذه الأسئلة، أن مالك عاش غربا في بلده غير معروف المعرفة اللازمة بين المتعلمين من أهله وذويه، أما لدى غير هؤلاء من أوساط العامة، فإن صورة هذه الظاهرة أوضح وأعم وأدعى للخجل ! وإنك - أيها القارئ الكريم - إذا أردت أن تتأكد من هذه الحقيقة فما عليك إلا أن تجرب أن تحدث أحد هؤلاء عن مفكرنا الأستاذ مالك، فإنك بمجرد ما تبادر بذكرك له اسم مالك، لحسبك أنك تحدثه عن أحد الأعلام من القرون الأولى في تاريخ

الإسم، مما يضطرك إلى الاستدراك فتوضح لمحدثك بأنك تتحدث عن مفكر جزائري معاصر اسمه مالك بن نبي ، فينصت إليك حينئذ مغتبطا وأنت تحدثه عن مفكر جزائري اسمه (مالك بن نبي !) وتسلمنا هذه الحقيقة إلى هذا التساؤل لماذا كانت مكانة مالك في قومه كذلك؟

يمكن القول أن مرد ذلك إلى عوامل عديدة: تأتي على رأسها تلك الظروف الاستثنائية التي عاش الشعب الجزائري يصلى ناراها في جحيم حكم الاحتلال الفرنسي الذي سخر كل ما بين يديه من وسائل المكر والكيد لإبقاء الجزائريين بين مخالب الجهل وأنياب الأمية، والعمل على حرمانهم من كل الأسباب التي تساعد على أخذ حقهم من عطاءات العلم والمعرفة، كما كانت سلطات الاحتلال تصدر من القوانين البوليسية والإجراءات التعسفية ما يساعد في عملية التعتيم على أعلام الأمة ومحاولة تقزيمهم، وملاحقتهم وتحديد مجال حركتهم، وكان من بين من كان من هؤلاء محل رصد ومتابعة وتعتيم من طرف سلطات الاحتلال، الأستاذ المفكر مالك الذي كانت دوائر الغزو الفكري من ورائه حيثما حل، وحيثما ارتحل، بما كان لذلك من الانعكاسات السلبية التي تتبدى فيما كان ينتابه من الهواجس الفكرية والإضطرابات النفسية التي كانت تعتريه بين الحين والآخر.

وكان لهذه المتابعات والملاحقات التي كان الفقيد في معظم مراحل حياته عرضة لامتحاناتها ما كان لها من دور خطير في عملية التعتيم عليه في بلده، وتهميشه بين أهله وذويه.

ونخلص من رسم هذه الخطوط العريضة من تلك الصور الباهتة في ملامحها، المحدودة في أبعادها التي تبرز مشاركة أهل الدار في أعمال هذا الملتقى، إلى القول بأن هناك صورة أخرى تقابلها أكثر تركيزا وأعمق تحليلا وأبعد مرمى، تلكم هي التي ترسم أبعادها مساهمات الإخوان الضيوف في الملتقى، فماذا عن ذلك؟

ثالثاً - مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى : لقد تميزت محاضرات

معظم المشاركين الضيوف بالتنوع في موضوعاتها والعمق في تحليلاتها، ويمكن التذليل على ذلك بالإشارة إلى بعضها من مثل : (أثر الفكرة الدينية في فكر مالك - د / عبد السلام الهراس - المغرب) (فكرة كومونويلث إسلامي - د / محمد نور منوطي - ماليزيا) (مالك بن نبي ومعاييره للتنوع الثقافي ومشكلات الحضارة - د / أسعد السحمراتي - لبنان) (عالمية الثقافة في فكر مالك بن نبي - د / عمر مسقاوي - لبنان) (د / محمد الطاهر الميساوي - تونسي - ماليزيا) (من القصد إلى الفعل : محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي - د / حسن حنفي - حنين - مصر) .

وإن أبرز ما يمكن أن يستخلص من هذه المشاركة النوعية لهؤلاء الباحثين أن لملك بن نبي تلامذة ودارسين كثيرين في غير قليل من بلاد العالم العربي الإسلامي، وغيرها من بلدان العالم ممن درسوا أعماله واستوعبوا أفكاره وتحمسوا - وما يزالون متحمسين - لتجسيدها في مناهجهم العلمية ورائهم الفكرية، في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

ونبادر بالقول أن محاولة النظر في جميع محاضرات هؤلاء الباحثين تستدعي فضاء لا يمكن أن يتسع له صدر هذه الكلمة لأكثر من سبب، وعليه فإن الحوار في هذه الفقرة المتصلة (بمشاركة الضيوف) سيقصر على النظر في واحدة من تلك المحاضرات، وهي محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي، أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، وباحث معروف على الساحة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، له إسهاماته المتميزة وأعماله القيمة في مجال تخصصه .

وقد وقع الاختبار على الوقوف وقفة متأنية عند هذه المحاضرة دون سواها، مما سبق

ثالثا - مشاركة الباحثين الضيوف في أعمال الملتقى : لقد تميزت محاضرات

معظم المشاركين الضيوف بالتنوع في موضوعاتها والعمق في تحليلاتها، ويمكن التدليل على ذلك بالإشارة إلى بعضها من مثل : (أثر الفكرة الدينية في فكر مالك - د / عبد السلام الهراس - المغرب) (فكرة كومونويلث إسلامي - د / محمد نور منوطي - ماليزيا) (مالك بن نبي ومعاييره للتنوع الثقافي ومشكلات الحضارة - د / أسعد السحمراتي - لبنان) (عالمية الثقافة في فكر مالك بن نبي - د / عمر مسقاوي - لبنان) د / محمد الطاهر الميساوي - تونسي - ماليزيا) (من القصد إلى الفعل : محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي - د / حسن حنفي - حنين - مصر) .

وإن أبرز ما يمكن أن يستخلص من هذه المشاركة النوعية لهؤلاء الباحثين أن لملك بن نبي تلامذة ودارسين كثيرين في غير قليل من بلاد العالم العربي الإسلامي، وغيرها من بلدان العالم ممن درسوا أعماله واستوعبوا أفكاره وتحمسوا - وما يزالون متحمسين - لتجسيدها في مناهجهم العلمية ورائهم الفكرية، في نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

ونبادر بالقول أن محاولة النظر في جميع محاضرات هؤلاء الباحثين تستدعي فضاء لا يمكن أن يتسع له صدر هذه الكلمة لأكثر من سبب، وعليه فإن الحوار في هذه الفقرة المتصلة (بمشاركة الضيوف) سيقصر على النظر في واحدة من تلك المحاضرات، وهي محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي، أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، وباحث معروف على الساحة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، له إسهاماته المتميزة وأعماله القيمة في مجال تخصصه .

وقد وقع الاختبار على الوقوف وقفة متأنية عند هذه المحاضرة دون سواها، مما سبق

الإلماع إليها، لما تميزت به هذه المحاضرة من (إثارات) فلربما جعلها ذلك تحتاج أكثر من غيرها إلى شيء من النظر والتحقيق، فإلى ذلك :

رابعاً - وقفة عند محاضرة الأستاذ حنفي وهي بعنوان : (من القصد إلى الفعل : محاولة لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك).

لعل من أبرز ما تميزت به هذه المحاضرة: منهجية الطرح وعمق التحليل ووفرة الأفكار وحسن الإلقاء المشوب باللهجة الخطابية التي تزوده بشحنة من فاعلية التأثير على نفوس المتلقين وهذه السمة الأخيرة بخاصة يبدو أن إخواننا في أرض (النيل) يتوفرون على قدر منها أكبر مما يتوفر عليه من ذلك غيرهم من أبناء العربية في جميع أقطارهم، ولعل لماء النيل أثرا في ذلك.

وقد تميزت هذه المحاضرة - إلى جانب ذلك - بجملته من الإيماءات، ولربما هي غمزات أكثر منها إيماءات وإثارات، من بينها:

- 1 - المطالبة من المخاطبين بالانتقال من المدح إلى الفعل.
 - 2 - التوجه بالخطاب الى (أحفاد مالك)
 - 3 - الزعم بأن معظم أعمال مالك مقالات صحفية
 - 4 - القول بطغيان النزعة الإنشائية في كتابات مالك
 - 5 - الإشارة إلى إهداء مالك كتبه إلى بعض الشخصيات
 - 6 - الزعم بأن مالك يعني بقضايا بلده أكثر من عنايته بقضايا بلاد المسلمين
 - 7 - الادعاء بمحاولة الأستاذ مالك التسجيل في شهادة (الدكتوراه) وفشله في ذلك
 - 8 - المحاضرة موضوع هذه الوقفة لم توزع
- هذه هي أهم الهمزات أو اللمزات التي تضمنتها محاضرة الأستاذ الدكتور حنفي ويتجلى بعض ذلك بدءاً من عنوانها (من القصد إلى الفعل ..) وإن المتأمل

في العنوان كاملا ، قد يستشف بعض ما يومىء إليه ذلك العنوان من معاني،
نحتزىء بالإشارة إلى اثنين منها :

أما الأولى فلربما يراد منها الإشارة إلى أن بعض الناس يقصدون، يريدون،
يتمنون... ولكنهم لا يحركون ساكنا ولا يعملون عملا جادا، مكتفين فحسب
بالأمانى والتعلات والأحلام.

ولعل من بين من تعنيهم بالخطاب هذه الإشارة هم (الحضور).

أما الثانية فلعل دلالتها تبرز من خلال الجزء الثاني من العنوان وهو (... محاولة
لإعادة بناء مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي) بما قد يراد به من أن تناول
مالك لهذه المشكلات كان ناقصا ومن ثم فإن ما أقامه من بناء في هذا الميدان،
يحتاج إلى غير قليل من التقويم والتصويب وإعادة البناء!

ونخلص من هذه الوقفة العجلى عند بعض ما يمكن أن يكون قد رمز إليه ما جاء
في عنوان المحاضرة من دلالات، إلى ما جاء من ذلك في صلب هذه المحاضرة، فماذا
عن ذلك ؟ وماذا عما يريد حضرة الأستاذ أن يمكن له من خلال ذلك في نفوس
الحضور؟

يمكن الإجابة عن ذلك من خلال مناقشة تدفعها رغبة ملحة إلى الاقتراب من
وجه الحقيقة في هذه الإشكالية خدمة للعلم، ولا تتوخى شيئا أهر غير ذلك ، فإلى
ذلك:

1 - لقد استهل الأستاذ محاضرتة مطالبا بالانتقال من (المدح إلى الفعل) :

وقد ألح حضرته على هذا الطلب بما يوحي أنه يظن أن الجزائريين - وهم يحيون
هذه الذكرى الثلاثين لأحد رجالاتهم بعد ثلاثين سنة على انتقاله لى رحمة الله -
قد ذهبوا في مدحه بعيدا وبالعوا في إطاره أكثر من اللازم، يقول ذلك بلهجة يمكن

أن يستشف منها المتأمل في بنيتها وطريقة أدائها، أن حضرة الأستاذ قد جانبه وجه الصواب في هذه القضية، كما يبرز ذلك من نحو آخر، أنه غير ملم بمافيه الكفاية بما يتصل بالظروف والملابسات التي كانت تكتنف مسيرة الفقيد الذي قضى معظم مراحل حياته في دائرة تكاد تكون مغلقة، تحيط بها أسوار التعقيم من كل الجوانب، وتخيم على ساحتها غيوم النسيان من كل الجهات، لقد عاش مالك - رحمه الله حيا وميتا في هذه الأجواء المكفهرة بالغيوم ، المدلهمة بالضباب، كما أن أعماله ظلت زمنا طويلا بعيدة عن التداول في الساحة الثقافية في بلاده، قليلة التداول من طرف أبناء شعبه من المتعلمين بله غيرهم، ذلك أن هذه الأعمال لم تعرف طريقها إلى النور بينهم إلا في حدود جد ضيقة، ما كانت تأخذ حقها من الدرس والنشر، لو لم يقيض الله لها من عني بها ممن عرف قيمتها العلمية فأخرجها إلى النور من إخواننا بالشرق العربي، وبخاصة في مصر وسورية ولبنان، وبعض البلاد الإسلامية، خاصة منها (ماليزيا). لولا هذه العناية الإلهية لظل الكثير من أعمال مالك مجهولا لدى أهله وذويه قبل غيرهم.

وإذن فأين مانال من ذويه الأقربين ومدح وإطراء، وقد رأيناه أنه عاش على تلك الصورة التي رأينا بين غالبيتهم مجهولا مغمورا، وغير معروف إلا في أوساط ضيقة لدى بعض الخاصة منهم على وجه الخصوص؟

فكيف إذن وهذه هي حال الفقيد مالك، وحال أعماله في بلده وبين عشيرته، ويأتي من يستكثر على مالك أن تحيي بلده ذكرى رحيله بعد مرور ثلاثين عاما على ذلك الرحيل، كما يستكثر هؤلاء المستكثرون أيضا أن يلتقي بعض ثلاثينته وقرائه ودارسيه من داخل الجزائر ومن خارجها بعد ثلاثين عاما على رحيله ليحيوا ذكراه، وليتبادلوا الرأي حول أفكاره، ويتدارسوا أعماله فيما بينهم، وبين عامة جمهور قرائه،

وليتعاونوا على توطيد أسباب الصلة بينه وبينهم كما تكون هذه الصلة عادة - تقديرا - ومحبة ووفاء - بين التلامذة وبين أستاذهم ومعلمهم.

ويبلغ الغلو مبلغه بأولئك المستكثرين (ذاك القليل)، مما أبداه إخوان مالك وبنوه وأحفاده نحوه من وفاء وتكريم وثناء! ومهما يكن مما وصلت إليه المعاني من درجة على سلم هذه القيم النبيلة، فإن ذلك سيبقى قليلا في حق ذاك الذي أعطى من عقله وقلبه إلى أمته والإنسانية من قبل ومن بعد (الكثير)، ومع ذلك يأتي من يطلب من الجزائريين أن يقتصدوا في التفضل بذاك (القليل) لمن أعطى (الكثير)، فيطلبون من الجزائريين: القصد في ذلك، القصد، القصد أيها الجزائريون، فقد ذهبتم بحبكم ووفائكم وتكرمكم لأحد أعلامكم (أعلام الأمة) وإحيائكم لذكراه لأول مرة بعد ثلاثين عاما على رحيله، لقد ذهبتم بذلك بعيدا.. بعيدا بعيدا!..؟

2 - كان حضرة الأستاذ قد توجه بالخطاب في مداخلته تلك، إلى من أسماهم (أحفاد مالك) وقد كرر هذه العبارة في محاضراته أكثر من مرة، يترجى بها من أولئك (الأحفاد) أن يعملوا شيئا على طريق العلم والفكر، وكأنه يريد أن يومية بذلك إلى من سبق هؤلاء الأحفاد لم يكن لهم في ذلك الميدان ما يذكر فيشكر! فمن هم هؤلاء (أحفاد مالك؟) وما دلالة هذه العبارة في هذا المقام؟ وماهي الرسالة التي يريد حضرة الأستاذ أن يوصلها من خلال ذلك إلى هؤلاء الأحفاد؟ يظهر أن الأستاذ يقصد بتلك العبارة: (أحفاد مالك) الجيل الثالث من بعد مالك، إذ أن هناك (جيل مالك) و(جيل الأبناء) ثم يأتي من بعد ذلك (جيل الأحفاد)، وكأن الأستاذ يريد بذلك أن يومية إلى أن المجهود العلمي للجيلين: الأول والثاني، جيل مالك، و(جيل الأبناء) الذين يمثلون (الزمن الحاضر) من الجزائريين، إن جميع أو معظم من يمثل هذين الجيلين، لم يتحقق - من خلال ما

يفهم من كلام حضرة الأستاذ - على أيديهم في المجال العلمي والفكري بخاصة، وغير ذلك من المجالات الأخرى ما يمكن أن يسمو إلى الدرجة المطلوبة، وإن كان بالإمكان أن يتحقق شيء من ذلك في يوم من الأيام، فقد يكون ذلك على أيدي أولئك الأحفاد (أحفاد مالك).

ويترتب على هذه التخمينات أن ينتظر الشعب الجزائري حوالي ربع قرن من الزمن حتى يظهر من بين أفراد - أحفاد مالك - هؤلاء الذين لعلهم يستطيعون أن يفعلوا شيئاً في ميدان العلم والمعرفة، لعلهم وعساهم!

وبما يمكن أن يستنتج من هذه التأويلات أن نظرة الأستاذ إلى هذه الإشكالية تطفئ عليها نزعة تشاؤمية من حاضر الجزائر ومن مستقبلها، وسبحان الله الذي لا يعلم الغيب سواه.

ومهما يكن من ذلك، فإن الجزائريين - على أية حال - لم يزعموا يوماً أنهم وصلوا إلى غايتهم على طريق جهادهم في طلب العلم، وهم مؤمنون إيماناً صادقاً بقول ربهم، رب العالمين في كتابه العزيز : « وقل رب زدني علماً » (2).

وحسبهم أن نيتهم معقودة على حب الخير وفعله، وأن قلوبهم عامرة بالتفاؤل والأمل وأن طموحهم كبير، وأن ثقتهم أكبر، في عون الله وتوفيقه لهم على السير في هذا الطريق اعتزازاً بماضيهم وسموا بحاضرهم، واستشرافاً لما يشرق من بعده - إن شاء الله - من مستقبل عزيز كريم.

3 - يرى حضرة الأستاذ أن أعمال (مالك) إن هي إلا مجموعة مقالات

صحفية!

فماذا يريد حضرته من هذا الحكم؟ وما يمكن أن يستنتج منه؟
يبدو أن المقصود من هذه (الغمزة) أن يشيع صاحبها بين الحضور أن أعمال

مالك من قبيل ما يكتب في الصحافة السيارة، وهي من ثم لا ترقى إلى مستوى الأبحاث العلمية الأكاديمية العميقة، وماذا إلا أنها كتابات صحفية، لا يمكنها أن تتجاوز هذه الحدود وتتطلع إلى مستوى تلك الدراسات العلمية الرفيعة التي يكتبها (بعضهم) في جامعاتنا العربية، - ما شاء الله - تلك الجامعات (الهياكل) المترامية الأطراف هنا وهناك في أرضنا العربية ولكنها من حيث التناج العلمي والنشاط الفكري ليس لها - لأسباب متعددة - ذلك الدور العلمي الذي نهضت وتنهض به كثير من الجامعات في العالم، ذات الفاعلية في حركة الحياة العامة في الأمم المتطورة، بما جعل إسهام معظم جامعاتنا العربية عمليا وعلميا في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وحركة التطور العلمي، والتحكم في وسائل التقنية الحديثة محدودا جدا، بالمقارنة مع ما تخرجه للناس دوريا الجامعات الأخرى في العالم من مختلف الابتكارات والمنتجات الحضارية، وقد انعكس ذلك الاعتلال وذلك الهزال الذين أصابا جامعاتنا على صورتها العلمية في المحافل الأكاديمية العالمية، فبدت باهتة مغمية، كما انعكس ذلك على صوتها فيما يجري في تلك المحافل من حوارات ومناقشات، فكان خافتا ومبحوحا حتى لا يكاد يبين.

وماذا بعد يضير الأعمال الجادة العميقة كأبحاث الفقيد مالك أن تنشر في بعض الدوريات أو الصحف، والحال أن نشر أعمال أي باحث أو مفكر أو عالم في بعض الصحف لا ينقص في حد ذاته من القيمة العلمية لها، لدى الباحثين المنصفين، إذا كانت هذه الأعمال في جوهرها كذلك بمحتواها وبمنهجها وبطرق المعالجة فيها. وإن الأمثلة على هذه الحقيقة عديدة في سجلات التاريخ وفي جنبات الحاضر وفي أكثر من نموذج. من ذلك أن بعض العلماء المحققين وبعض المفكرين المستنيرين، كانوا قد نشروا بعض أعمالهم بدءا في الصحف، ثم أخذت تلك الأعمال مكانها في بعض المراجع التي تعنى بمعالجة بعض القضايا الفكرية العميقة والنظريات الفكرية العميقة والنظريات العلمية الطموحة، مما حولها بأن تكون منطلقا للدارسين

في أبحاثهم، فوصلوا على نهج فروضها إلى آراء فكرية عميقة وضوابط علمية جادة. ومن أقرب الأمثلة على ذلك من زماننا، ومن بلاد الغرب، أجل من بلاد الغرب، لأن بعض من يسمون أنفسهم في بلادنا العربية (بالمفكرين المستنيرين) لا ينكسون رؤوسهم منبهرين ومشدوهين إلا أمام كل ما يفد علينا من (الغرب) مادة كان ذلك أو معنى، ولعل من أقرب هذه الأمثلة إلينا، على ذلك المقال الذي نشره المفكر الأمريكي (هنتغتون - huntington) في الصحف بعنوان (صراع الحضارات)، أو المقال الذي نشره المفكر الياباني أصلا الأمريكي موطنا (فرانسيس فوكوياما) حول فكرة (نهاية التاريخ).

وقد ظهرت هاتان الفكرتان أول مظهرتا على صفحات الجرائد، ثم انتقلتا منها إلى صفحات الكتب، فصارتا من المرجعيات الفكرية التي انطلق منها الباحثون في دراسة تطورات افاق مستقبل الحضارة الإنسانية.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، أو ما يقرب من ذلك - ولكن من محيطنا هذه المرة - ما تفتقت عنه قرائح بعض أعلام أمتنا في مطلع هذا العصر، من أحاديث هامة في قضايا الفكر والاجتماع والسياسة والأدب، وكانت تلك الأبحاث قد ظهرت أول ما ظهرت أيضا في بعض صحف تلك الفترة من أهمها : مجلة (العروة الوثقى) التي قد كان أصدرها المصلحان الكبيران : (الأفغاني ومحمد عبده) في بلاد الغرب في (فرنسا) بتاريخ (31 مارس 1884) وتوقفت بعد صدور عددها الأخير يوم (17 أكتوبر 1884) ثم مجلة (المنار) التي أصدرها المصلح الكبير (محمد رشيد رضا) في مصر بتاريخ (15 مارس 1886) واستمرت في الصدور إلى وفاته (1953) ثم مجلة (الرسالة) التي أصدرها الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) في مصر بتاريخ (10 جانفي 1932) وصدر العدد الأخير منها في (ديسمبر 1953). وغير ذلك من الصحف والمجالات المشرقية.

وكان من أثر ما نشر أولئك الأعلام الرواد وغيرهم في تلك الدوريات من أبحاث قيمة وأفكار صائبة.

وعلى هذا الدرب، وفي أحضان مثل تلك الصحف، تتابعت إنجازات الرعيل الثاني من أعلام النهضة الفكرية والأدبية في المشرق، من أمثال: الرافعي والعقاد والزيات وطه حسين وهيكल والمازني وغيرهم.

ويمكن أن يتجلى هذا المثال عندنا في الجزائر، فيما كان قد نشره أعلام النهضة الوطنية: مصلحين وأدباء وسياسيين، من أعمال في صحف مرحلة النهضة، وبخاصة منها: (المنتقد) التي أصدرها الإمام عبد الحميد بن باديس، رائد النهضة الوطنية، بتاريخ (02 / 07 / 1925) فكانت الفاتحة الميمونة والانطلاقة الرشيدة على درب النهضة الوطنية العامة، إلا أن المحتلين لم يطمثوا لظهور (المنتقد)، ولم يرقهم منهجها الوطني الحضاري، ولم يطبقوا صبرا على توجهاتها الوطنية، وما تستهدفه من مرام وأهداف حضارية، فسارعوا إلى وأدها وهي في في المهد صبية بنت شهرين وعشرة أيام، فلم تكتحل عيناها برأى التضحيات التي أرست الطريق أمامها لترى نور الحياة، ولا اكتحلت عيون الأمة بضياؤها لأكثر من ثمانية عشر عددا فكانت هذه الثمانية عشر عددا « في بيان النهضة ثمانية عشر سندا »⁽³⁾

وإنه لمن المصادفات العجيبة في هذا المضمار أن يكون مصير (المنتقد) كمصير (العروة الوثقى) التي كان الفرنسيون في باريس من قبل، قد ضاقوا بتوجهاتها وبأهدافها ذرعا، فأوقفوها هي الأخرى، ولم يتجاوز عمرها (كالمنتقد) ثمانية عشر عددا.

بيد أن هذه السياسة الجائرة لم تثن عزم ابن باديس على مواصلة جهاده في هذا الميدان، فلم يلبث أن أصدر (الشهاب) في السنة نفسها (12 / 09 / 1925) فأحيا الله بها (المنتقد الشهيدة) وحفظها وأطال في عمرها، فاستمرت في الظهور إلى (أوت

1939) كما لم تكن تلك السياسة الجائرة نفسها من قبل، الشيخ محمد رشيد رضا على أن يواصل مسيرة شيخه محمد عبده وأستاذ شيخه السيد جمال الدين الأفغاني فيصدر (المنار) على طريق العروة الوثقى بعد مرور حوالي عامين على توقفها.

كما أصدرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأول مرة سنة 1933 ثلاث صحف هي (السنة، الشريعة، الصراط) كانت فرنسا (بلد الحرية والحقوق الإنسانية!) قد استقبلت هذه الجرائد الثلاث (بتوقيفها) تباعا الواحدة تلو الأخرى، ولم يمض على ميلاد كل منها أشهر، كما لم تعمر جميعها أكثر من حول واحد. ثم أعادت الجمعية الكرة من جديد فدخلت الميدان الإعلامي سنة 1935 بإصدارها جريدة (البصائر) في (شهر ديسمبر) من هذا العام، بيد أن المحتلين قد أذاقوها كسابقاتها مرارة المصادرة مرتين، إلا أنها استأنفت الصدور من بعد رحيلهم من البلاد، وهاهي ذي تواصل جهادها في الوقت الحاضر، على نهج مؤسسيها الأوائل. وقد كان إلى جانب المنتقد والشهاب والبصائر مجموعة من الصحف الوطنية، وقد اضطلعت جميعها برسالة النهضة الحديثة في الجزائر.

وقد كانت الأبحاث القيمة والأفكار الصائبة والتوجيهات السديدة التي كان ينشرها أعلام النهضة الوطنية في الجزائر في تلك الصحف الوطنية قد أوقدت جذوة اليقظة، وأرست أسس النهضة العامة، وأحيت الأمة بعد أن كانت قد أقبرت أو تكاد، وبعثت في روحها شرارة اليقظة بعد أن أوشكت أن تخمد في صدرها جذوة الحياة، ووضعت يديها على شروط النهضة ورسمت الطريق أمامها نحو الثورة التحرر. فكانت تلك الأعمال ومثيلاتها هي المهاد إلى ثورة نوفمبر المباركة التي دكت ملاحم أبطالها الميامين حصوون الظالمين، وأجلت تضحيات شهدائها الأبرار فلول الغزاة من أرض الوطن صاغرين مدحورين.

ويدلي (شاهد القرن) الأستاذ ماك بن نبي نفسه بشهادته في هذا المصمار فيقول : « لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس)، فكانت تلك الساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك، وبألها من يقظة جميلة مباركة! » (4)

وما يمكن أن يخلص إليه البحث في هذه الفقرة أن العمل العلمي الجاد والجهود الفكرية الأصيل ليس بضارهما وليس بناقص من قيمتها، أن ينشرا في الصحف الجادة، وكم من بحث كان أجدى وأنجع على حركة النهضة الفكرية الإنسانية وعملية تطورها العام، من مجلدات جمعت بين صفحاتها ركاما من التهويمات والأهواء، وكانت بذلك أداة في نشر الأفكار الهدامة بين أجيال الأمة.

4 - الإدعاء بغلبة الإنشائية على كتابات كمالك :

يزعم حضرة الأستاذ أن كتابات مالك إنما تغلب عليها النزعة الإنشائية، ويطلق حضرته هذا الحكم (بأسلوب إنشائي؛ من دون تعليل أو تحديد، أو تمثيل، فهو لم يحدد في أي الجوانب من جوانب كتابات مالك تظهر هذه النزعة الإنشائية؟ كأن يوضح هل هي بادية في مضمون تلك الكتابات، أم في صورتها التعبيرية؟ ويمكنك أيها القارئ الكريم أن تصل إلى وجه الصواب في هذه الإشكالية، من دون أن تذهب إلى أبعد مما تختزنه ذاكرة تلميذ في المرحلة الثانوية من قواعد في (علم المعاني) من (علوم البلاغة)، تميزا بين سمات الأسلوب الإنشائي (الأدبي، وبين خصائص الأسلوب العلمي وغيره من خصائص أساليب الكتابة في اللغة العربية من نحو، وبين الموضوعات التي يصلح لها هذا الأسلوب، أو ذاك، والتي يصلح لها سواهما من الأساليب من نحو ثان.

وإن من يستحضر ذلك يدرك أن الأسلوب الإنشائي هو الصورة اللفظية الملائمة

للتعبير عن الحالة النفسية المشحونة بالانفعالات والمشاعر الوجدانية والمواقف الخطابية وما إلى ذلك، مما يتوخى من خلاله الكاتب الوصول إلى هدفه في الإثارة والإمتاع.

ويتضح مما تقدم أن هذا الأسلوب بتلك الخصائص المميزة له، إنما هو أبعد ما يكون عن الموضوعات العلمية التي تستدعي ما يتميز به الأسلوب العلمي من سمات، يأتي في مقدمتها: القرب والوضوح والرقّة والتركيز وما إلى ذلك، مما يستهدف به التوعية والتوجيه، والإفادة والإقناع، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يمكن للدارس أن يطرح هذا السؤال :

أي من الهدفين السابقين، كان الأستاذ مالك المفكر يتوخى في كتاباته؟ وأي الأسلوبين أكثر ملاءمة لذلك؟

لعل من أبرز ما يميز اهتمامات مالك في كتابات أنه لا ينطلق من حالات شعورية طارئة تغذيها بعض الانفعالات الذاتية والخوافز الشخصية، بهدف التعبير عن بعض الخلجات النفسية وبعض الإثارات الوجدانية، مما يستدعي من وجوه الصياغة ما يوائم ذلك من ألوان الأسلوب الإنشائي الخطابي، وإنما كان أبرز ما تركّز عليه كتاباته أنها تعالج قضايا فكرية ومسائل علمية تتسم بطابع فكري واضح، وتقوم على النظر العميق والتحليل الدقيق، وهي بذلك أبعد ما تكون عن الانفعالات والوجدانيات والأدبيات، هذه الألوان النفسية التي تستدعي من أدوات الصياغة الفنية ما يعد من أبرز ما يميز خصائص الأسلوب الأدبي (الإنشائي).

ومن ثم جاءت صورة التعبير في كتابات مالك، وأهم ما يميزها الميل إلى الألفاظ الحقيقية القريبة، والتراكيب الواضحة الدقيقة، والزهد فيما يتصل بمظاهر التأنق اللفظي، والعزوف عن استخدام الخيال والمحسنات، وغني عن البيان أن هذه الخصائص، إنما هي من بعض ما يميز الأسلوب العلمي من سمات.

وقد يصل بالأستاذ مالك في بعض الأحيان هذا الميل إلى الإكثار من استخدام خصائص هذا الأسلوب العلمي في كتاباته إلى حد بلوغه في ذلك مبلغا يضطره إلى أن يستعير في بعض كتاباته بعض المصطلحات من بعض العلوم الدقيقة (الرياضيات) وغيرها، ليقرر بذلك بعض الحقائق العلمية: النفسية أو الاجتماعية أو غيرها، وقد يجعل ذلك بعض قرائه يلقون شيئا من العسر في فهم بعض أفكاره وتحليلاته من خلال ما يغلب أحيانا على بعض كتاباته من روح علمية ونزعة عقلية وبرودة عاطفية، وغير ذلك ما يميز الطابع العلمي في الكتابة من ميل إلى التروي والأناة والدقة والتركيز.

وهل بقي بعد هذا البيان ما يعطي لآراء من يزعم أن كتابات مالك يطنى عليها الطابع الإنشائي قدرا - ولو ضئيلا - من المصادقية تمكنها من الصمود أمام ما وصل إليه القارئ عن طريق التحليل والتعليل، والحجة والتمثيل، من بيان وبرهان في هذه الإشكالية.

5- أشار حضرة الأستاذ إلى قضية إهداء (مالك) كتبه إلى بعض الشخصيات وكأنه

يريد بذلك أن يرمي إلى شيء ما، فهل من سبيل إلى تفسير ذلك الشيء؟

يمكن الوقوف عند هذه الغمزة بدءا بالتذكير بأن مالك لم يقم بإهداء ما أهدى من أعماله لمن أهداها لهم - وقد أغناه المغني عن جميع الفقراء إلى الله - تزلفا وتملقا وطمعا، أي من أجل أن ينال رضى حضرة هذا أو يتملق - حاشاه - جناب ذاك، أو طمعا فيما في أيدي هذا وذاك أو فيما في أيدي من سواهما من الناس، وإنما أهدى ما أهدى لمن أهدى، رغبة منه في تقديم بعض وجوه النصيح والإرشاد - قياما منه بواجب أمثاله من العلماء والمفكرين - لمن يستحق ذلك، ممن بأيديهم مقاليد أمور

المسلمين، تقديرا لمواقفهم، وتثمينا لجهودهم في حسن قيادة مسيرة الأمة وخدمة قضاياها، والغيرة على مصالحها.

وهو لم يفعل ذلك - على أية حال - من نحو آخر، تقربا بأعماله أو بمواقفه من أعداء الأمة القدامى والمعاصرين، بل ظل طوال نضاله يقف من هؤلاء الموقف الذي يشرفه ويشرف أمته توعية لها بمكائدهم، وتحذيرا لها من مكرهم، وتعضيدا لصراعها معهم.

6 - الزعم بأن مالك يعني بقضايا بلده أكثر مما يعني بمشكلات المسلمين:

يذهب حضرة الأستاذ إلى أن اهتمامات مالك في أعماله توشك أن تقتصر على حدود بلده الجزائر، ولا تكاد تتجاوز ذلك إلى العناية بشؤون المسلمين بالقدر المطلوب.

ويمكن أن يتركز النقاش حول هذا الحكم في الوجوه التالية:

أ - نبادر بالقول أن من ينعم النظر في هذا الحكم يدرك أنه لا يقوى على الثبات أمام ما قد يدحضه من حقائق التاريخ ومن شواهد الحاضر، ويكفي القارئ في ذلك أن يعود إلى ما سبق أن تبينه من خلال وقوفه في هذا العمل عند مساهمات المشاركين الضيوف في الملتقى، مما يكون قد سمح له بأن يعرف من أن قراء مالك وتلامذته ودارسيه منتشرون، ليس على امتداد العالم العربي الإسلامي فحسب، وإنما هم متواجدون في غيره من بلاد العالم، وأن أفكاره وأعماله استطاعت أن ترحل إلى بعيد، فتصل إلى حيث وصلت كتائب جند الفتح الإسلامي في القرون الأولى للإسلام، من أراضي إفريقيا وأسيا وأوربا وغيرها، حاملة إلى الناس كافة رسالة الإسلام العالمية.

ب - تحسن الإشارة إلى أن مالك ليس هو الوحيد من بين أعلام الإسلام الذين حاولت دوائر الغزو الفكري في هذا العصر - وماتزال - أن تنال من مكانتهم العلمية ومن مواقفهم الجهادية وتعمل على تضيق الخناق في وجه حركة أفكارهم والتقليل من قيمة أعمالهم، وتقوم بتهميشهم والتعتيم عليهم. ومن استهدفته تلك الدوائر بذلك من الجزائريين إلى جانب مالك كثيرين، فقد فعلت ذلك مع الأمير عبد القادر قائد المقاومة الوطنية ضد الغزاة الفرنسيين، ومع قادة الثورات الوطنية المتعاقبة طوال تاريخ الكفاح الوطني من ثورة الأمير، إلى ثورة نوفمبر التحرير، ومع الأمير خالد رائد الحركة الوطنية الحضارية، وغير هؤلاء من زعماء الحركة الوطنية وقادة ثورة نوفمبر المجيدة.

لقد حاولت تلك الدوائر الاستدمارية أن تنال من سمعة هؤلاء في بلادهم وفي غير بلادهم، ولكن جميع تلك المحاولات الماكرة قد باءت بالفشل الذريع، وصدق الله العلي العظيم: «ليحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» (٥).

ج - إن الذي يستحضر ما سبق الإلماع إليه في هذه العمل عند الحديث عن الصورة المتواضعة للحضور المحلي في هذا الملتقى، بالموازنة مع فاعلية مشاركة الضيوف فيه، يمكنه أن يلمس بوضوح أن الأستاذ مالك بن نبي كان معروفا خارج بلاده الجزائر، أكثر مما كان معروفا بداخلها، وليس من المنطقي أن يتأتى له ذلك لو لم يكن كبير العناية بشؤون المسلمين، مهموما بمشكلاتهم واضعا يده على عوامل تخلفهم وشروط نهضتهم، مشخصا عللهم وأدواءهم، واصفا لذلك ما يلزم من ضرورات الحمية والدواء.

وهل يمكن أن يكون لأفكار مالك ما كان لها من مكانة بين أهالي أكثر من إقليم في بلاد العرب والمسلمين وغيرهم، في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا وغيرها. كما تصور جزءا من ذلك قائمة المشاركين في هذا الملتقى - لو لم تكن اهتماماته قد

تجاوزت حدود الدائرة المحلية (وطنه الصغير) إلى (وطنه الكبير؛ العالم العربي الإسلامي، إلى (وطنه الأكبر) العالم أجمع والإنسانية قاطبة؟

7 - يزعم حضرة الأستاذ أن مالك حاول أن يسجل في شهادة الدكتوراه تحت إشراف المستشرق (لوي ماسينيون) صاحب فكرة (فرانس إسلام) ولكنه لم يفلح في ذلك!

فماذا عن هذه (الغمزة؟) وماذا عما يريد صاحبها أن يتوخى من ورائها؟
يمكن مناقشة ذلك من الوجوه الآتية:

أ - لعل من أول ما يمكن أن يستخلص من هذه الرواية أن (بعضنا) اليوم في عالمنا العربي يعطي لهذه الشهادة (الدكتوراه) مكانة علمية مابعداها من مكانة من العلو والرفعة، وكأن هؤلاء يرون بذلك أن الدرجة الرفيعة في سلم المعرفة والمكانة المرموقة في فضاء الفكر والعلم لا ينالها وليس جديرا بها، إلا من كان (دكتوراً!) أما من لم يكن كذلك، وكان عالماً نحريراً، ومفكراً مستنيراً، وباحثاً محققاً، ودارساً لامعاً، فإنه - لا يمكن أن يحسب من بين حضرات (الدكاترة المحترمين الذين يكونون بتلك الشهادة، قد حازوا العلم من جميع أطرافه وأخذوا بمفاتيح الفكر من كل أبوابه.

وماذا يمكن أن يقال - انطلاقاً من هذا القسطاس غير المستقيم - أمام ما يقرره التاريخ ويقره الواقع، من أن معظم علماء الأمة المتقدمين وبعض المعاصرين منهم قد بلغوا شأواً بعيداً على سلم العلم والمعرفة، وما كان من أحد منهم (دكتوراً!).

ب - لأن الأستاذ قد انفرد بهذه الرواية ولم يقل بها أحد غيره - فيما أعلم - من دارسي مالك ولا تلامذته ولا معارفه من داخل الجزائر أو من خارجها، ومن يكون صاحب هذه الرواية حتى يخصه مالك وحده بها من دون عباد الله؟

ج - يؤكد حضرة الأستاذ أنه سمع هذه الرواية من الفقيه ذاته (في أمريكا)، وليس في بلده الجزائر، أو في غيره من بلاد العرب والمسلمين التي قضى ببعضها ردحا من عمره، وأما زمن هذه الرواية، فكان سنة 1972، أي قبل عام واحد من وفاة مالك رحمه الله.

وهل من دلالة لهذه المفارقة بين ذاك المكان القاصي، وهذا الزمان الداني؟ ولعل بما يمكن أن يقرب من وجه الحقيقة في هذه الإشكالية، أن بعض دارسي مالك يؤكدون أن الفقيه حاول أن يسجل في معهد الدراسات الشرقية في باريس، وليس في شهادة (الدكتوراه) كما جاء في تلك الرواية.

د - وما يستحسن ذكره في هذا المضممار، أن ذلك المعهد ليس من اختصاصه الدقيق - فيما أعلم - التدريس في قسم الدكتوراه، وإنما يقتصر دوره أو يكاد - كما هو واضح من اسمه - على تدريس اللغات الشرقية، ومن ثم فلا المعهد المذكور يدرس تلك الشهادة، ولا الفقيه كان بصدد ذلك، حتى يستدعي منه ذلك البحث عمن يشرف على بحثه!

وإذن فإن الفقيه لم يكن بحاجة إلى من يشرف عليه، لا (ماسينيون) ولا غيره، وإنما كان (ماسينيون) يشرف يومئذ على إدارة المعهد السابق الذكر التي لم تسمح للمالك بالتسجيل في حدود اختصاصها (قسم الدراسات الشرقية).

بيد أن هذا الرفض شهادة لها قيمتها من هذه الدوائر التي تعرف الأستاذ مالك وأفكاره حق المعرفة، كما تدل هذه الشهادة من نحو آخر، عما يتميز به مالك بما لا يروق لتلك الجهات، من قوة شخصيته، وأصالة ثقافته، وعمق أفكاره وعظيم إخلاصه في خدمة أمته، وصدق وفائه لمسيرتها ماضيا، ولجهادها حاضرا ولتطلعاتها مستقبلا، مما يجعله يستعصي على عمليات التغريب والاستلاب، هذه العمليات التي هي من أبرز ما تسهر تلك الدوائر على إخضاع الطلبة من أبناء المسلمين

لتأثيراتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، في محاولة منها لسلخهم عن مميزاتهم الثقافية وخصوصياتهم الحضارية ، وحملهم على التكرار لهذه ولتلك، ومن ثم كانت تلك الدوائر لا تريد أن تغامر بوجود واحد مثل مالك بين طلاب معاهدها، وذلك لجملة من المحاذير لعل من أبرزها هاذين المحذرين اثنين:

1 - أما الأول فهو إدراك تلك الدوائر أنها لا تستطيع أن تصل من مالك إلى أهدافها، وإذن فلا حاجة لها به.

2 - وأما الثاني فإنها تخشى من أفكاره على أهدافها، لما تعرف من قوة فاعليتها. ويمكن أن يستخلص مما تقدم، أن عدم قبول مالك بهذا المعهد، إنما كان من عناية الله به وتوفيقه له، ولعله لو كان قد التحق بتلك المؤسسة لكان لذلك تأثيراته السلبية عليه، ولكان مالك الطالب بمعهد الدراسات الشرقية بباريس، غير مالك الذي صرفته عناية الله عن الالتحاق بذلك المعهد، وهيئته في الوقت ذاته ليتجه وجهة أخرى أسلم وأقوم، فيكون (شاهد القرن) على حلقات الصراع الذي دار بين أمته، وبين الغزاة المعتدين، دفعا للظلم، وذوداً عن الحق وأن يكن من نحو آخر، مؤرخا لما قام به الغرب من حملات القمع والإرهاب، والتفريغ والاستلاب، ضد أمم الشرق في العصر الحديث.

وقد تحدث كثير من الدارسين عن الآثار الخطيرة التي لحقت بكثير من أبناء المسلمين المنتسبين للتعليم الأجنبي، وكان من بين من أشار إلى ذلك من الباحثين الجزائريين الإمام عبد الحميد بن باديس⁽⁶⁾.

وقد قسم الإمام هؤلاء المتعلمين إلى أقسام ثلاثة، كانت الأمة قد خسرت منهم الثلثين، وسلم من أدواء الاستلاب الثلث الباقي، وكان من بين السالمين من أفراد ذلك الثلث، الأستاذ مالك وأمثاله.

8 - المحاضرة (موضوع هذا النقاض) لم توزع على الحضور:

كانت مداخلة حضرة الأستاذ من بين الأعمال التي لم توزع على الحضور، ومن ثم فقد كان اعتماد الكاتب في تحرير هذه الكلمة حولها على السماع وحده حين إلقتها، ويمكن أن يكون قد فات الكاتب شيء من المحاضرة.

ونبادر بالقول أن الأستاذ لم يرسل محاضراته إلى الهيئة المنظمة للملتقى قبل مجيئه، كما أنه لم يسلمها إلى المشرفين على الملتقى حين مجيئه، مع أن المحاضرة كانت بين يدي حضرة الأستاذ مكتوبة وهو على المنصة وقد ألقاها قراءة، فما المانع إذن من تسليمها في الحين للمعنيين لتطبع ثم توزع تعميماً للفائدة؟

إن الظاهرة مدعاة للتساؤل، وليس لها من جواب شاف في الوقت الراهن، وإلى أن يحصل شيء من ذلك، يمكن النظر في ذلك من هذه وجوه:

أ - كيف بمثقفينا (الكبار) أن تسمح لهم مكانتهم العلمية بأن يسافر أحدهم للمشاركة في ملتقى دولي فيطوي في طريقه إلى ذلك آلاف الأميال، دون أن يكون قد أرسل عمله مسبقاً بإحدى وسائل الاتصال الحديثة؟ تلك الوسائل التي هي في حقيقتها ليست من ابتكارنا، وإنما صنعها لنا غيرنا، فأصبحنا نملكها في إطار (ظاهرة التكديس وليس بفعل عملية البناء)، كما فعل اليابانيون وغيرهم، ممن وقفوا من حضارة الغرب موقف (التلميذ) من الأستاذ، وليس كما فعلنا نحن - وما نزال - بوقوفنا من تلك الحضارة موقف (الزبون) المترف المسرف الجشع الذي لا يتحرك في غالبية أحواله في هذا المضمار إلا ليشبع شهواته ونزواته، أكثر مما يستهدف شيئاً آخر!

وكان الأستاذ مالك قد تناول (ظاهرة التكديس) هذه بالدراسة في بعض كتبه⁽⁷⁾ وعالجها من بين ما عالجها من مشكلات الحضارة التي تتخبط في (معضلاتها) أمتنا - وما نزال - والتي بلغنا فيها (شأواً بعيداً!) وضررنا فيها للناس (المثل!).

وقد أمسينا نملك (بفضل) تلك الظاهرة بعض تلك الوسائل الحديثة، ولكن كثيرا منا - مع الأسف - يزهّد في استخدامها، ومن لا يزهّد في ذلك لا يحسن استخدامها، وكلا الاحتمالين وارد، كما تصوره الوقائع والسلوكيات اليومية في الميدان.

ب - إن من نافلة القول التذكير بأن ما يجري به العمل في مثل هذه الملتقيات العادية منها، بله الدولية، أن يرسل المحاضر عمله مسبقا حتى يطبع ويوزع على الحضور قبل إلقاء المحاضرة أو أثناء ذلك، وإن هذا ما يلتزم به (الآخرون) أولئك الذين غلبونا على أمرنا فأذلونا في عقر دارنا بما تميزوا به في جميع مظاهر حياتهم من استخدامهم للعقل والمنطق في أعمالهم وأبحاثهم وإقبالهم على طلب العلم بمنهجية وجدية، والتزامهم بالنظام واحترامهم الوقت، وإتقانهم العمل وغير ذلك من مقومات السلوك الحضاري الذي أخذوا به، فأخذ بأيديهم على طريق المدنية الحديثة، ومكنهم من السيطرة على آليات العلم الحديث، وشجعهم تفوقهم المادي هذا على الهيمنة على شعوب البلاد الضعيفة والأمة المستضعفة (كحال أمتنا اليوم). وقد كنا قد سبقنا بالأمس غيرنا إلى ذلك السلوك الحضاري وإلى المدنية والإنسانية، يوم أن كنا نمثل العالم الأول، بما أكمل الله لنا من تعاليم ديننا وأتم علينا من نعمته ورضي لنا الإسلام شرعة ومنهاجا. فأين نحن من ذلك؟ وقد أصبح فينا من يخجل بأن يجهر بالالتزام بما جاء به ديننا الحنيف من تعاليم ومبادئ وفضائل، وأمسى في ذلك من الزاهدين، فكان من نتيجة ذلك أن تراجعنا عن مكاتنتنا التي كانت لنا في مقدمة الأمم الحية إلى المكانة التي أمسينا جديرين بها، مع المتخلفين القاعدين في مؤخرة الأمم.

ج - قد يحدث أن يتعذر على أحد المشاركين في إحدى الملتقيات أن يرسل

عمله قبل قدومه إلى الملتقى، فيمكنه في هذه الحال الاستثنائية أن يصحبه معه حين مجيئه فيطبع ويوزع في الوقت المناسب، ولكن الذي كان من حظ هذه المحاضرة، والذي قام به صاحبها، لا هذا ولا ذاك والله المستعان.

د - وما يحسن التذكير به أن هذا السلوك لم ينفرد به الأستاذ القادم من أرض الكنانة وحده وإنما شاركه فيه غيره من بين أهل الدار، مما يمكن أن تقاس المسافة بين إقامتهم، وبين مقر الهيئة المنظمة للملتقى بالأمتار، وليس بالآلاف الأميال...! وإذن فقد تساوى في هذه الظاهرة (مثقفونا) في مغربنا وفي مشرقنا، وقد أُمسينا في ذلك سواء ، وقد قال من قبل شوقي:

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق (8)
ويبدو أن هذه المقولة ماتزال صحيحة فينا، ولعلها أُمست أكثر انطباقاً على أوضاعنا وقد ازدادت هذه الأوضاع على أرض الواقع سوءاً، كما ازدادت أمتنا على الناس هواناً.

وإنه لمن المنطقي أن يترتب على هذه الزيادة في معنى التردّي زيادة في مبنى تلك المقولة ولاشك أن شوقي - رحمه الله - لو كان بيننا في هذا الزمان، لفعل ذلك ولأُمست تلك المقولة حينئذٍ - مع الاعتذار للخليل بن أحمد - (ولكن كلنا في الهم شرق وغرب!!).

فأين نحن بعد، من المنهجية والروح العلمية والفاعلية والحركية، والالتزام بالنظام وحسن استثمار الوقت والجهد، وغير ذلك من الفضائل السلوكية والقيم الحضارية التي غرسها في قلوبنا وفي عقولنا، في أفعالنا، وفي أقوالنا، وفي جميع مظاهر حياتنا منذ فجر الدعوة الإسلامية ديننا الحنيف، وتمثلها أفعالاً وأقوالاً في الواقع اليومي المعيش أوائلنا الأطهار، وسار من بعدهم على هذا النهج عبر التاريخ الأعلام الثقة، ومن بينهم الأعلام الرواد في عصرنا الحاضر هؤلاء الذين قضوا أعمارهم - والفقيد

مالك واحد منهم - ينادون بالالتزام بتلك السلوكيات الحضارية ويتمثلون هم أنفسهم بها في أفعالهم ميدانيا، ويحرصون على غرس بذورها في ذهنية أبناء الأمة وفي سلوكهم بالقول وبالفعل ، بالنصيحة وبالقدوة، بينما اكتفى بعض مثقفينا المعاصرين بالتغني بها وبمطالبة غيرهم (الأحفاد) بالالتزام بها، وهم عن بعضها معرضون، ولعلمهم لها ناكرون.

هـ - ويحسن التذكير بعد أن المحاضرة (موضوع النقاش) في هذه الفقرة، إنما كان عنوانها:

(من القصد إلى الفعل ..) فهلا تساءلت أيها القارئ الكريم بعد هذا الذي مر بك من وجوه الحوار حول هذه المحاضرة: أين نحن من ذلك القصد؟! وأين نحن من ذلك الفعل?!

خامسا - مكانة اللغة العربية في أشغال الملتقى: نبادر بالقول أن لغة الحوار في هذا الملتقى لم تكن واحدة، وإنما كانت لغات ثلاث هي :
العربية والفرنسية والانجليزية.

وكان أهل الدار قد زaujوا بين العربية والفرنسية، كما زauj الإخوة من بعض البلاد الإسلامية مابين العربية والانجليزية، وأما الإخوة من البلاد العربية فقد تميزوا من بين الحضور، بأن كانت جميع محاضراتهم باللسان العربي المبين، وأما المعقبون - وقد كان معظمهم من أهل الدار - فقد كانت أغلب تعقيباتهم بالعربية ماخلا واحدة، فقد أبى صاحبها إلا أن يخرج على هذا الإجماع باختياره لتعقيبه (اللغة الإنجليزية) على محاضرة الأستاذ الدكتور محمد نور منوطي من (ماليزيا)، وقد كانت محاضراته بهذه اللغة، فراد هذا المعقب بذلك من حظوظ اللغات الأجنبية في هذا الملتقى، ولو كان تعقيبه بالعربية لكان بمكنته أن يسجل بذلك هدفين اثنين:

أما الهدف الأول فيسجل به ما أراد أن يسجل من ملاحظ باللسان العربي،

فيكون بذلك منسجما مع نفسه ومع هويته، ومع الملابس الزمانية والمكانية والأجواء النفسية والموضوعية للملتقى.

وأما الهدف الثاني فقد كانت أمام المعقب فرصة ثمينة كان حريا به أن يهتبلها، فيعقب بالعربية ليلفت بذلك نظر الأستاذ صاحب المحاضرة، إلى أن من المستحسن أن تكون لغة التخاطب والحوار في هذا المقام وبين الإخوة - لتحقيق أكبر قدر من الانسجام مع الجو العام لهذه المناسبة - باللسان الجامع بينهم، وفي كثير من أحوالهم: عقديا وتاريخيا، ثقافيا وحضاريا، في ماضيهم وفي حاضرم وفي مستقبلهم، وبخاصة أن الأستاذ المحاضر (الضيف) كان يحسن العربية، وقد برهن على ذلك من خلال استخدامه لها مرات أثناء إلقائه محاضراته.

وما يمكن استخلاصه في ختام هذه الفقرة مما يتصل بهذا الموضوع أن العربية كانت لسان الكلمات التشريفية في البدء وفي الختام في هذا الملتقى، كما كانت معظم التعقيبات بها كذلك ولو ما كان ذلك، لكانت مكانة العربية في هذا الملتقى مرجوحة أمام غيرها من اللغات الأخرى وفي عقر دارها وبين أهلها، وبإلها من انتكاسة نكراء كانت تكون، لو تحقق ذلك لاسمح الله!

وغني عن البيان أن اللغة - أيا كانت - هي جزء أصيل من بين المقومات الثقافية والخصوصيات الحضارية لأية أمة، ومن ثم فالمحافظة عليها والاعتزاز بها وإيثارها على غيرها في لغة التخاطب والبحث وفي سائر الاستعمالات، إنما ذلك يعد من بين أبرز الواجبات في عنق كل فرد من أفراد (أمة القرآن).

وقد أصر بعض إخواننا من لم تكن العربية لسانهم الأصلي أن يلقوا محاضراتهم بالعربية وكأنهم أرادوا بذلك أن يعبروا عن حسن إدراكهم وعمق وعيهم لتلك الصلة العضوية الوثقى التي تربط بين ذلك اللسان وبين قرآنهم (كتاب عقيدتهم وشريعتهم) وبين (سنة نبهم) البيان الصادق الأمين لذلك الكتاب المبين.

وقد يعذر إخواننا هؤلاء ممن لم تكن العربية لغتهم الأصلية أن يتخذوا من اللغات الأجنبية أداة لتوصيل أفكارهم للآخرين، أو لنقل ما عند هؤلاء الآخرين من علوم ومعارف ومدنية إلى لغاتهم.

وأما من كانت العربية لغتهم الأصلية، فيحسن بهم أن تكون جميع استعمالاتهم اللغوية: حوارا وكتابة بها، وليس بمستحسن منهم أن يهجروها ويستمروا في هجرها - وهي لسان قومهم - في مختلف استعمالاتهم إلى لغة أخرى سواها، كما فعل ويفعل ذلك بعض الكتاب في عالمنا العربي الإسلامي في هذا العصر، وبخاصة منهم بعض أدباء المغرب العربي، وبوجه أخص بعض الجزائريين الذين تعذر عليهم القدرة على التعبير عن حاجاتهم بلغتهم للظروف الاستثنائية التي كانت بلادهم قد مرت بها في فترة الاحتلال، ولم يشهدوا وعمرها في حديثها وقسوتها وطول سنيها أي بلد غيرها من بلاد العرب والمسلمين، وذلك لما كان من اثار الغزو الفرنسي الذي فرض على شعبها سياسة القهر والهيمنة، ورمى بأهلها في غياهب التجهيل والامية وحرمتهم من أبسط حقوقهم في العلم والمعرفة، وقام بتضييق الخناق على لغتهم وثقافتهم، وحاول استلابهم وتغريبهم شيئا ليس ذا بال من لغته بحيث لايساعدهم ذلك على فتح أبواب العلم من أمامهم، والولوج إلى ساحاته والإفادة منها، كما لا يمهّد لهم الطريق إلى ميادين المعرفة فاضطر بعض الكتاب الجزائريين - في هذا الحال - إلى استخدام لغة المحتل للتعبير عن قضايا شعبهم والدفاع عن حقوقه ومواكبة حركة جهاده، وكان من بينهم: الأستاذ مالك، فماذا عن ذلك؟

سادسا - الأستاذ مالك واللغة الفرنسية: كان مالك كبعض الكتاب الجزائريين

قد حاول أن يوظف اللسان الفرنسي كوسيلة من وسائل الجهاد في معركة أمته

وشعبه ضد الغزاة المعتدين، في الوقت الذي كان فيه معاصروه من أعلام النهضة الوطنية يكتبون أعمالهم بالعربية، ويمكنون لها بجهودهم وتضحياتهم في حياة الأمة: يؤسسون المدارس لتعليمها، ويصدرون الصحف لنشرها ويقتحمون ساحات الصراع وميادين الجهاد، دفعا لغيلة الظلم والضييم عنها.

وما يمكن الإشارة إليه بدءا في هذا المضممار، أن مالك كتب أعماله بالفرنسية، بالرغم من أنه لم يكن من أولئك الكتاب الجزائريين الذين سبقت الإشارة إلى أن الاحتلال حرمهم من تعلم لغتهم العربية، وإنما كان يحسن العربية إلى جانب الفرنسية، فهو أحد طلبة (المدرسة الفرنسية الإسلامية) بقسنطينة، وهي واحدة من ثلاث مدارس أسسها المحتل 1850 م خدمة لبعض أغراضه، كان من بينها، تخريج متعلمين جزائريين يمكن توظيفهم كأعوان في المحاكم ومترجمين في المصالح الإدارية الحكومية، ومعلمين في المدارس الرسمية، فكانت هذه المدارس لذلك تجمع في مناهجها ما بين تعليم الفرنسية والعربية، وكان طلابها من ثم من مزدوجي اللغة، وكان مقر كل واحدة من هذه المدارس الثلاث في واحدة من هذه المدن الثلاث في الجزائر يومئذ، وهي (الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان).

وما يمكن الإلماع إليه في هذا الصدد أن مالك بالإضافة إلى أنه كان يحسن العربية تعلمًا فقد كان ابن بيئة عربية خالصة، فقد قضى معظم مراحل حياته، وبخاصة في هذه الأطوار الثلاثة : (النشأة والتكوين والتوظيف) ما بين مدينة قسنطينة، مدينة العلم والعلماء، عاصمة النهضة الثقافية في الجزائر، وبين (تبسة) مدينة الشيخ المجاهد الشهيد العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومدير معهد عبد الحميد بن باديس المؤسسة الأولى الوحيدة للتعليم العربي الحر يومئذ في الجزائر، وفي مدينة (افلو) بالجنوب الجزائري، حيث كان يعمل في المحكمة الشرعية.

وقد أعانته هذا الحال : بيثيا وتكوينيا ووظيفيا، على تقوية معارفه باللسان العربي .
وإذن فإن عوامل عديدة: بيئية وتعليمية واجتماعية تضافرت على تنشئة مالك
نشأة عربية خالصة، تكون - بلا شك - قد ساعدت على تحسين مستوى مؤهلاته
العلمية في هذا الميدان.

وما يلفت النظر إليه في هذا المضمار، هذ المفارقة في حياة مالك بين مواصفات
الوسط البيئي والثقافي والاجتماعي الذي قضى فيه معظم مراحل حياته، وبين
ممارسته اللغوية بخاصة في ميدان الكتابة، باستعماله فيها غالبا اللغة الفرنسية
بصفتها الأداة المفضلة لديه للتعبير عن أفكاره وطروحاته في هذا المجال، على خلاف
ما كان يحرص عليه من استعماله للعربية في معظم حواراته ومحاضراته العامة
التي كان ينظمها داخل الجزائر أو خارجها في بعض البلاد العربية وبخاصة منها
مصر التي كان يقيم بها أثناء الثورة، وسوريا ولبنان اللتين كان يتردد عليهما في هذه
الفترة.

وقد كان صاحب هذه الكلمة ممن كانوا يحضرون بعض محاضراته التي كان
ينظمها في السنوات الأولى للاستقلال إلى وفاته - رحمه الله - في بداية السبعينات .
وقد كان الفقيه في هذا الميدان بما تميز به من فهم لخصائص العربية وحسن
استخدامه لها الاستخدام الصحيح، وتوظيفه لها التوظيف الهادف، وليس
التوظيف الإنشائي المثير. وبما وهبه الله - بالإضافة إلى ذلك - من قدرة فائقة على
حسن إدارة الحوار بينه وبين من يستمع له بصورة تجعل هؤلاء المستمعين
مشدودين إليه بقوة، ويصغون إلى أحاديثه وحواراته برغبة كبيرة، وباهتمام بالغ،
وبهدوء تام ..

وكان الفقيه بهذه الخصائص وبما تميز به - إلى جانب ذلك - من عمق أفكاره

وبعد نظراته ومنهجية تحليلاته، فارس ميدان في مضمار الفكر والمعرفة من فرسان أمتنا، في هذا الزمان..

وتبقى هذه الإشكالية التي تعكس ظاهرة سيطرة الفرنسية على كتابات مالك بوجه خاص - وهو الغيور على الإسلام وعلى لغة الإسلام العربية - تحتاج إلى شيء من الدرس والتحقيق وشيء من التعليل والتفسير.

ولعل الزمان يسمح بأن يأتي من يملك ما يساعد على التعليل الصحيح لهذه القضية فيفيد غيره بذلك.

وحتى يحين ذلك يمكن الاستئناس بأن من بين من يملك ما يساعد على التعليل الصحيح لهذه القضية فيفيد غيره بذلك.

وحتى يحين ذلك يمكن الاستئناس بأن من بين الدوافع التي جعلت مالك يكتب معظم أعماله بالفرنسية لا العربية إدراكه أن معظم أعلام النهضة الوطنية من معاصريه في الجزائر كانوا يتوجهون بالخطاب إلى المحتلين ذودا عن حقوق الأمة باللسان العربي، وأن الذين يستخدمون منهم في هذا المضمار اللسان الفرنسي قليلون، فلعل هذا العامل من بين الأسباب التي جعلت الأستاذ مالك يرغب في تدعيم صف هذا الفريق، بهدف توصيل صوت أمته إلى الغزاة بلسانهم فلعلهم بذلك يكونون أكثر وعيا لمغزى هذه الرسالة فيردعون عن غيهم ويكفون عن مظلهم ويبادرون بالاعتراف بحقوق أهل الحق فيعطونهم حقوقهم، وعسى أن يكون هذا الدافع الوطني الوجيه أو شيء قريب منه من بين الدوافع التي حملت مالك في تلك الفترة أن ينتهج في أعماله هذا المنهج، وما يمكن أن يدعم هذا التعليل أن مالك قد كتب بعض أعماله فيما بعد الاستقلال بالعربية وترجم إليها بعض ما كان قد كتبه من قبل بغيرها.

مالك النموذج المحتذى: وعسى أن تدفع الروح الوطنية والغيرة على لسان الأمة أولئك الذين مايزالون منا إلى اليوم يصرون على اتخاذهم الفرنسية أداة للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، أن ينتهجوا هذا النهج الذي رأينا الأستاذ مالك قد انتهجه في آخر حياته، بانتقاله في كتابة أعماله من الفرنسية إلى العربية، فيكون لهم مالك النموذج المحتذى على هذا الطريق.

وإنه ليس من المنطقي في شيء، ولا من الوفاء لأمتنا، ولا من الاعتزاز بشخصيتها، وأن يستمر بعضنا من الذين كانوا يتعاطون صنعة الكتابة في فترة الاحتلال، ومن اتخذهم من بعد من جيل الاستقلال قدوة له في هذا المضمار أن يستمروا في تدبيج أعمالهم وتنميق عباراتهم باللسان الفرنسي إلى اليوم، أي بعد ما يزيد على أربعين حولا، على استعادة شعبنا سيادته الوطنية وإجلاله فلول الغزاة مدحورين من على أرض الوطن وتطهيرها من رجس الهيمنة التغريبية، ليس من المعقول في شيء أن يستمر بعضنا من بني جلدتنا بعد هذه المدة يجاهرون بالتنكر للسان قومهم والامسخفاف به ويفاخرون في الوقت ذاته بلبوسهم عباءة التفرنس والتغريب توددا (لأصدقائنا التاريخيين) على الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط ويعبرون عن مكنون صدورهم، وفيض مشاعرهم، وخلجات خواطرمهم بذلك السان وهم فخورون مزهوون..!).

وأحسب أن ذلك لا يمكن قبوله، كما لا يمكن تفسيره إلا باستمرار وقوع أولئك القوم من ؟بني جلدتنا) تحت عامل مؤثرات دوائر الغزو الفكري والاستلاب الثقافي والتبعية اللغوية وغير ذلك، مما يدخل في هذه الدائرة ويحوم حول هذا الحمى، مما يدحض بقوة وواقعية وموضوعية دعاوى ذلك الحياذ اللغوي المزعوم!! وإنه لمن نافلة القول التذكير في هذا الصدد لمن يتذكر وتنفعه الذكرى، أن اللسان للجنان ترجمان، وأي ترجمان!

سابعاً - الجانب التنظيمي في الملتقى : يمكن القول أن سير أشغال الملتقى قد كان

عادياً، فقد قام المشرفون على الناحية التنظيمية بتوزيع معظم محاضرات المشاركين على الحضور، كما حاولوا أن ينوعوا من فقرات برنامج الملتقى فأدخلوا الى جانب المحاضرات عرضاً مصوراً حرص أصحابه على أن يرصدوا بعض الجوانب من سيرة الفقيد مالك، وبعض النواحي من نشاطاته العلمية، وأن يعرفوا ببعض أعماله وأفكاره، وقد كان ذلك مبادرة طيبة والتفاته حسنة من المشرفين على الملتقى، إلا أن المقصد منها لم يتحقق على الوجه المرغوب، وذلك لما تخلل ذلك العرض من رداءة الصوت، وضبابية الصورة، الأمر الذي فوت على الحضور فرصة الاستفادة من ذلك مع ضياع بعض من وقتهم.

كما تخلل سير: أشغال الملتقى في بعض فقراته شيء من الاختلال وشيء من الملل، وشيء من الانفعال.

أما الاختلال فقد حدث بخاصة أثناء معالجة عملية نقل محاضرة الأستاذ الأمريكي ALLAN CHRISTELOW (الغائب الحاضر) عن طريق شبكة الاتصالات العالمية، وقد استمرت هذه العملية جارية بعض الوقت، ولما لم يتحقق المطلوب منها وطال الانتظار وضاع بعض الوقت، قرر المنظمون حينئذ أن يقرأ أحد الباحثين (عبد الرحمن بن عمارة) مداخلة الأستاذ الأمريكي (الحاضر الغائب) بالنيابة عنه، فكان ذلك، وقرأت المداخلة بالفرنسية، وهي اللغة التي كتبت بها، مما زاد في توسيع دائرة استعمال تلك اللغة في هذا الملتقى.

وكانت محاولة نقل تلك المحاضرة جارية في الوقت الذي كان فيه الحضور يستمعون إليها وهي تلقى بالنيابة، فصبروا على ذلك حتى أتى ملقيها على نهايتها، فطلب رئيس الجلسة حينئذ من المحاضر التالي في برنامج الملتقى أن يلتحق بالمنصة ليلقي محاضرتة، فاستجاب الأستاذ المعني لذلك، ومضى مسترسلاً في

عرض ورقته، وظلت في هذا الوقت محاولة الاتصال بالأستاذ الأمريكي مستمرة، وما كاد يصل ذلك الأستاذ المترسل في محاضراته من على منصة الملتقى إلى ختامها حتى تمت عملية الاتصال بالأستاذ (الغائب الحاضر)، فأنفأت الأضواء ليسمع ويرى من في القاعة هذه المحاضرة للمرة الثانية، ويكون بذلك المنظمون قد أبوا إلا أن يسمعوها للحضور مرتين اثنتين في جلسة واحدة، مما يبرز بوضوح - لسبب من الأسباب - اهتمامهم البالغ وعنايتهم الفائقة بهذه المحاضرة، بالرغم مما كان قد تسبب فيه ذلك التكرار من وجوه الاختلال وعوامل الرتابة، ومسببات الملل وضياح الوقت..!

أما الانفعال فقد كان بسبب ما طرأ من خروق لنظام سير بعض جلسات الملتقى، مما جعل بعض الضيوف حفاظاً على النظام وحرصاً على حسن استثمار الوقت، يعبر عن امتعاضه من تلك التصرفات، ويبين الرأي الصائب والوجه الحسن في ذلك. فزاد ذلك في انفعال أولئك المنفعلين وكاد ذلك أن يفقدهم شيئاً من السيطرة المطلوبة على توازنهم النفسي..!

ثامنا - الخاتمة:

لقد تميز هذا الملتقى عن غيره مما ألفناه، في مختلف النشاطات المماثلة، بما حفل به من حوار مثمر، ونقاش جاد، وعطاء متنوع.

ولاشك أن يكون الحضور الكرام قد شعروا بذلك، وبغيره مما كان يعبق في أجواء الملتقى من شذا الأفكار النيرة الرشيدة، ومن عبير الآراء القيمة السديدة. لقد كان الملتقى غنياً بوفرة المشاركين فيه، غنياً في طروحاته، غنياً في تطلعاته... وقد تحقق له ذلك - ولاشك - بما حرص المجلس الإسلامي الأعلى على توفيره من إمكانيات وبما بذل من جهود، وبما أبدى من اختيار، وبما عبر عنه من وفاء لأعلام

الأمة بإحيائه هذه الذكرى الثلاثين لرحيل الأستاذ المفكر مالك بن نبي، عليه
رحمة الله ورضوانه.

وسيكون لهذا المجلس الموقر فضل أكبر، وجميل أعظم، وذكر أطيب وأبقى إذا
استطاع أن يجسد في الواقع الميداني الملموس ما نصت عليه توصيات الملتقى
وبخاصة منها تلك التي تؤكد على جمع اثار الأستاذ الفقيه مالك بن نبي - رحمه
الله - ودراستها ونشرها...

وإن ذلك لمن أعظم الأعمال التي تحي بها الأمة ذكرى واحد من عظمائها، وتجلب
سيرته وتعتز بمواقفه، وتخلد اثاره.

وإن من بقي من (جيل مالك) ومن أبناء مالك) ومن (أحفاد مالك) في وطنه
الصغير (الجزائر) وفي وطنه الكبير (العالم العربي الإسلامي) وفي وطنه الأكبر
(الإنسانية كافة)، إن جميع هؤلاء إلى ذلكم لمنتظرون...

والله ولي التوفيق

الهوامش:

- 1 - تنسب هذه المقولة للإمام مالك بن أنس (رضي الله عنه)
- 2 - الآية: 114 سورة طه.
- 3 - ابن باديس: مجلة الشهاب ج 1 م 5 (أفريل: نيسان 1935)
- 4 - مالك بن نبي: شروط النهضة ط 3 - ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين - دار الفكر دمشق 1969 - ص 30.
- 5 - الآية: 8 سورة الأنفال.
- 6 - ابن باديس: جريدة البصائر ع: 109 (22 أفريل: نيسان 1938)
- 7 - مالك بن نبي: شروط النهضة (مصدر سابق) ص: 57
- 8 - أحمد شوقي: الوشقيات ط 10 - دار الكتاب العربي بيروت 1984 ج 2 ص 76.

د / محمد بن سمينة جامعة الجزائر

**الكلمة الافتتاحية للأستاذ : د. محمد مزغيش بمناسبة افتتاح
السنة الجامعية 2004 - 2005 يوم الاثنين 11 أكتوبر 2004
تحت إشراف فخامة السيد رئيس الجمهورية
بولاية بومرداس**

السيد / رئيس الجمهورية، أيها الحضور المحترم، أيها الإخوة الأعزاء، طلبتي
الأعزاء.

لي الشرف أن أتقدم إليكم بهذا العرض حول موضوع «الجامعة والتنمية»
بمناسبة هذا الدخول الجامعي الجديد، والذي يعتبر حدثا وطنيا، هذا ليس مفصلا
وإنما هي رؤيا متواضعة حول التعليم العالي.

لا ينبغي أن ننسى بأن التعليم العالي يعتبر منذ أمد بعيد من الحقول
الاستراتيجية في التنمية المستدامة، ويأخذ أهمية معتبرة في إطار العولمة.

كما يطلب من الجامعة أكثر من أي وقت مضى، أن تحول كل ابتكار ومنتوج
للبحث العلمي إلى نجاح صناعي وتجاري.

هذا المتطلب قد وضع التعليم العالي في العالم في أزمة لا بد من اجتيازها، وهو
اليوم مستهدف اليوم بين:

- منطق اقتصادي وتجاري (السوق) من جهة.

- ونسق جامعي عمومي، من جهة أخرى عرضة للتناقضات التي يولدها طموحه

لتحقيق حق التعليم للجميع.

السؤال المطروح: ما مكانة الجامعة في التنمية المستدامة في بلدنا؟ وإذا أخذنا هذا الأمر من مختلف جوانبه التي يقتضيها، فإن الجزائر اليوم تأخذ نصيبها في مشاريع (NEPA.D) مثلا، كما أنها شريك في المفاوضات مع منظمة التجارة العالمية حتى تنجح في الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية وتندمج في السوق العالمية.

الإجابة عن هذا السؤال ليست بديهية، ولكن تقتضي إيلاءها الانتباه اللازم، والأهمية من طرف كل واحد منا.

كل مقارنة، تفترض إجابة ينبغي أن تأخذ في الحسبان ثلاث نقاط أو مبادئ والتي ليست بالضرورة شاملة، لإعطاء إكسير الحياة للجامعة، كما نلاحظ في بعض الدول النامية.

لكن قبل القيام بعرضها، ينبغي أن تأخذ في الحسبان التجربة الثرية للجامعة الجزائرية، والتي تراكمت منذ الاستقلال من خلال مختلف المراحل التي تطور فيها النسق التربوي.

هنا نميز مرحلتين أساسيتين :

- المرحلة بين 1970 - 1979، وفيها تم إقرار مخططات التنمية، وقد ظهر عدم التكيف بين نسق التكوين، والحاجات من الإطارات في القطاع الاقتصادي.

كما أن إصلاح التعليم العالي الذي أعلن في سنة 1971، والتوجيه العلمي والتقني قد تحقق للاستجابة للحاجات من التأطير على مستوى القطر.

- المرحلة من 1980 إلى أيامنا هاته، تم تطبيق نظام المدرسة الأساسية، والتي صدرت من خلال التعليمية الرئاسية بتاريخ 16 أفريل 1976، والتي تذكّر في التوطئة بمبادئ النظام التربوي (الدمقرطة، الجزأة، والبعد العلمي والتقني).

وبعد أربع سنوات تم تبني الخريطة الجامعية وتحقيقها، وهذا برزت القوانين الجديدة للجامعة، وإنشاء المعاهد الوطنية للتعليم العالي، والمدارس العليا للأساتذة وإلى تبني نسق جديد للتقييم، وتعريب العلوم الاجتماعية.

هذه المرحلة تقاطعت مع سنوات السبعين (70)، حيث اتضح أن التصنيع، والجهد المبذول للتنمية أعطت معنى حقيقيا للمدقرطة، وللالتجاه العلمي والتقني. كما أن سنوات الثمانين وما بعدها قد اتسمت بغياب أو بضعف نسبة الاستثمار، ومن ثم ركود اقتصادي، هذه المرحلة قد شهدت تطورا مؤثرا لعدد المستخدمين حيث أن النتائج ارتبطت بكثافة الجهود، والوسائل المستعملة لتطوير البنية التحتية، وصيانتها، ثم الرفع من تكلفة الخدمات الاجتماعية بشكل مدهش، وهذا ليس له مقابل من طرف المجتمع.

النتيجة الحتمية هو سفر عد من الأساتذة منذ العشرية الأخيرة (1990 م)، من أحسن الكفاءات الجامعية، وهذا الوضع سيء بالنسبة للبلد، حتى ولو حدث للبعض ظروف قاهرة، بفعل الوضعية الأمنية للبلد، حيث ان رد الفعل لم يرق الى المحافظة على رأس المال، وعلى بعض المصادر التي لا تقدر بثمن، والتي أهدر فيها بلدنا ثلاث عشرات لاستردادها.

هذا يدفعنا إلى القول بأن الجامعة قد استجابت إلى متطلبات المجتمع، ولكن في أوقات أخرى وجدت نفسها على الهامش، ومنقطعة عن محيطها، السبب هو أن النظام الجامعي (النسق التربوي على العموم) لا يتطور في دائرة مغلقة، فهو في علاقة وطيدة مع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فهو يحقق النجاحات والازدهار، ولكنه يعاني من الأزمات، والصراعات التي قد تعرف في بعض الحالات اليأس، وفي بعضها الأمل.

إذا أخذنا العبرة من دروس هاته التجربة الثرية، فإننا نقف على ثلاث نقاط

أساسية ينبغي تعميقها لكي تحدد بصفة ملموسة مكانة الجامعة في تنمية بلدنا.

1 - لا بد من تبني الحوار بين الجامعة و «السياسي» بدون عقدة من هذا الطرف أو ذاك وهذا نظراً للفارق بين:

* المنطق السياسي الذي يتأسس في المدى القصير على التحكم في المشاكل اللوجستية، من جهة.

* ضرورة الإصلاح الجامعي الذي يقتضي أمداً طويلاً من جهة أخرى.

2 - ضرورة تسجيل تطوير الجامعة في إطار نظرة شاملة لاستراتيجية التنمية على المدى الطويل لتتجنب الجامعة أن تشغل لنفسها فقط.

3 - الذكاء يتأكد كرسيد أساسي للأمة، وهذه الوضعية تتطلب سياسة منسجمة وجريئة لتقويم المصادر البشرية.

تضييع الإطارات ذات المستوى العالي والتي تبين كم هي هشة وسيئة كل سياسة للتنمية التي لا تستطيع أن تمنح لنخبها الأمل في أن تعمل وتنشر في بلدها.

كل نقطة من هذه النقاط تشكل برنامج عمل، يقتضي عملاً جماعياً للمختصين يمكن لهم تطويره نحو الأحسن.

السيد / رئيس الجمهورية

أيها الحضور المحترم ،

بهذه المناسبة، لا ننسى بأن الدخول الجامعي 2004 / 2005 يرتبط بالذكرى

الخمسين لاندلاع ثورة التحرير المباركة.

لذلك فالحركة الثورية لجيل نوفمبر 1954 والتي حققت حلم الشعب الجزائري، هي تجربة ناجحة وتشكل في حد ذاتها مثلاً ناصحاً. إنها تمدنا بكثير من التعاليم التي تدفعنا إلى إلقاء الضوء، وتوصيل هذا الجزء من تاريخنا المعاصر الى الشباب، وتشكل أيضاً معلماً ضرورياً لتنوير الطريق الذي يفتح اليوم أمامنا.

أشكركم

أ. د محمد مزغيش

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغبة، الجزائر

2005

Printed in Algeria

